وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك فى مصر

لطفى أحمد نصار



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
١٩٩٩

تـاريخ المصـــريين

(١٤١)

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



الاشراف الفنى :

محمـود الجـزار

تقــــديم

يسرنى أن أقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب المهم عن « وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك فى مصر » ، الذى الفه الباحث لطفى أحمد نصار ، وهو فى الأصــل رسالة علمية فى التاريخ الاسلامى والوسيط حصل بها صاحبها على درجة الماجستير .

وقد قدم الباحث لدراسته بلمحة سريعة عن بعض وسائل الترفيه التى كانت شائعة قبل عصر المماليك ، لينتقل بعدها الى عصر المماليك محل الدراسة . وقد قسمه الى ثلاثة ابواب :

الباب الأول : وهو بعنوان « المجالس »

والثانى : بعنوان « الألعاب الرياضية » .

والثالث : بعنوان « الألعاب المنزلية أو الهادئة .

وبالنســـــبة للمجالس فقد تحدث فيه عن ثلاثة أنواع من المجالس : مجالس العلم والوعظ والقصص ، ومجالس الأدب والشعر ، ومجالس الشراب والطرب .

أما عن الألعاب الرياضية فقد تحدث فيها عن العاب الفروسية والرماية ، وتناول فيها لعبة رياضية مرتبطة بالفروسية تسمى لعبة القبق أو القباق ، ومعناها بالتركية القرعة العسلية ، وقد

أطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى لعب الرماية ، والمعروف باسم « القبق » فى عصر المماليك .

كذلك تحدث عن الصيد والقنص ، والرمى بالبندق ، وهو الكرات الصغيرة من الحجارة أو الطين أو الرصاص أو الفضة أو الذهب ، التى كانت تطلق بالمزاريق فى رمى الطيور ، ومن هنا اسم البندقية الحديثة لنفس الغرض كسلاح نارى .

كذلك تناول الباحث فى هذا الباب ألعاب الكرة والسباحة وغير ذلك من الألعاب مثل سباق الخيل ، والمصارعة ، واللعب بالطيور ، ورفع الأثقال الذى كان يطلق عليه اسم « المعالجة » ، والملاكمة أو « اللكام » ، والتحطيب ، ومناقرة الديوك ، وتناطح الكباش والثيران ..

اما الباب الثالث ، فتناول فيه الباحث ألعاب النرد والشطرنج ولعب الورق وألعاب الأطفال ، وتناول فى فصل خاص ألعاب خيال الظل .

والكتاب بذلك يسد نقصا فى المكتبة العربية كانت فى أشد الحاجة اليه ، وقد رجع فيه الباحث الى أوثق المصادر الأصلية . وهو جدير بالقراءة .

والله الموفق ،،،

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

تمهيـــد

لا شك أن الترفيه أمر ضروري للانسان ، مهما كان موقعه في الحياة ، حاكما كان أو محكوما ، خاصة أن الترفيه باختلاف وســائله يشــكل جانبا مهما من جوانب حياة الانسان حتى يمكن اعتباره الوجه الآخر للعمل كما أنه لا يمكن أن نعتبر كل ترفيه لهوا أو مجونا ، أو مضيعة للوقت كما يتصور البعض ، فان له جوانب ايجابية متعددة ، خاصة وســائل الترفيه التى تتصــــل بالفنون والرياضة والفروسية ، وكما قيل : لا تخلو تسلية من فائدة ، كذلك قيل أن شعبا لا يعرف كيف يلعب لا يعرف كيف ينتج .

وبمنظور اسلامى نجد أن الدين الاسلامى دين واقعى يقف من الانسان على أرض الحقيقة والواقع ، ويعامل الناس معاملة تتفق مع بشريتهم ، ولم يفترض فيهم أو يفرض عليهم أن يكون كل كلامهم ذكرا أو كل صمتهم فكرا ، أو كل فراغهم فى المسجد ، أو كل ســــماعهم قرآنا ، بل أعترف بفطريتهم وغرائزهم التى خلقوا عليها ، يفــرحون ويمرحون ويضــــحكون ويلعبون كما يأكلون ويشـــــربون .

وان لكل شعب من الشعوب وسائل الترفيه الخاصة به ، التى يقبل عليها فى أوقات الفراغ ، والتى كثيرا ما تتلاءم مع عادات أهله وتتواءم مع أخلاق أمته . ورغم اختلاف هذه الوسائل من حيث

الشكل والمضمون وتبعا للزمان والمكان ، فانها تتفق عادة من حيث الغرض منها الا وهو تريض العقول والأبدان .

وقد تفنن العرب فى ايجاد الوسائل التى شغلوا بها أوقات فراغهم . فقد كان بعض هذه الوسائل معروفا لديهم فى الجاهلية كمجالس الشعر والأدب ، ومجالس الشراب والطرب ، والصيد والسباق ، بيد انهم اخذوا عن الشعوب التى احتكوا بها بعد الفتح الاسلامى العديد من وسائل الترفيه الأخرى كاللعب بالكرة والصولجان ، والرمى بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها .

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحب السرور وما يجلبه ويكره الحزن وما يدفع اليه ، ويستعيذ بالله من شره كما كان يعيش حياته مع الناس بشرا سويا ، يحب الطيبات ، ويبش ويبتسم ، ويداعب ويمزح ، ولا يقول الا حقا .

كما شرع عليه السلام الوانا كثيرة من اللهو وفنونا من اللعب للمسلمين ترفيها عنهم ، وترويحا لهم . وهى مع ذلك فى كثير منها رياضات تدربهم على معانى القوة وتعدهم لميادين الجهاد فى سبيل الله ، مثال ذلك مسابقة العدو ، فقد كان الصحابة يتسابقون على الأقدام والنبى (صلى الله عليه وسلم) يقرهم عليه وقد رووا أن عليا كرم الله وجهه كان عداء سريع العدو(١) .

كما كان النبى نفسه (صلى الله عليه وسلم) يسابق زوجته عائشة مباسطا لها وتطييبا لنفسها ، وتعليما لأصحابه .

ويستنبط الفقهاء أن المسابقة والمصارعة لا تنافى الوقار والشرف والعلم والفضل وعلو السن ، فقد صارع الرسول رجلا معروفا بقوته يدعى « ركانة » فصرعه النبى أكثر من مرة . كما

كان يمر على أصحابه فى حلقات الرمى فيشجعهم ويقول : « ارموا وانا معكم »(٢) وكان يرى عليه السلام ان هذا الرمى ليس هواية او لهوا فحسب بل يراه نوعا من القوة التى أمر الله باعدادها ، فكان يأمر أصحابه بالرمى ويعتبره خير لهوهم .

وكان الرسول يهتم بالفروسية ويحث على الركوب ويرى أن الخير معقود بنواصى الخيل . ويتضح من ذلك أن الرسول كان يشجع مثل هذه الرياضات لأنها لهو ورياضة وتدريب واعداد للقوة .

والصيد من اللهو النافع الذى أقره الاسلام فهو متعة ورياضة واكتساب سواء كان عن طريق الآلة كالنبال والرماح أو عن طريق الجوارح كالكلاب والصقور .

كما كان الصحابة يمزحون ويضحكون ويلعبون ويتندرون ، معرفة منهم بحظ النفس ، وتلبية لنداء الفطرة ، وتمكينا للقلوب من حقها فى الراحة واللهو البرىء لتكون أقدر على مواصلة السير فى طريق الجد .

كذلك عرف المسلمون اللعب بالشطرنج والنرد وهى من وسائل الترفيه المعروفة كما مارس المسلمون فنون الغناء والموسيقى فى كل العصور ، وهما من الوان الترفيه التى تستريح اليها النفوس وتطرب لها القلوب .

وقد أخذ العباسيون نظام مجالس الطرب والغناء التى انتشرت فى عهدهم عن الفرس وكان الرشيد من بين خلفاء بنى العباس الدين جعلوا للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم اكاسرة الفرس . كما فاق الرشيد غيره من الخلفاء فى تقديره الندماء والمغنين والموسيقيين ، حتى انه لم يجتمع على باب خليفة من الندماء والمغنين ما اجتمع على بابه .

وكان الأمين بن الرشيد يميل الى سماع الأغانى ويقضى أوقاته فى الاستمتاع بضروب اللهو فقد روى الطبرى أنه لما ، الخلافة وجه الى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم اليه وأج اهم الأرزاق ، كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ول ولعبه بقصر الخلد .

وقد كان المأمون — وهو حجــة فى المســائل العا والفلسفة — يمتنع عن سماع الغناء ثم أخذ يسمعه من وراء حج كما كان يفعل ابوه الرشيد فى أول عهده بالخلافة ، وعندما شـ بالغناء دعا الندماء والمغنين الى الجلوس بحضرته ، كما ق اليه اسحق الموصلى ، ورفع من شـأنه ، وكذلك فعل مع ابراهيم بن المهدى وكان مبدعا فى غنائه .

ولم تكن مكة والمدينة من هذه الناحية بأقل من بغداد ، ان بعض الباحثين يرى أننا لا نسرف اذا قلنا « ان نهضة الـ فى العراق فى أثناء العصر العباسى انما كانت امتدادا لهذه المو التى نفذت الى العراق على أيدى مغنى مكة وزملائهم من مـ المدينة .

ويرجع انتشار الغناء فى هذا العصر الى كثرة الجوارى وكان معظم الفتيات اللاتى يحترفن الغناء ببغداد فى أوائل الق الرابع الهجــرى من الجــوارى وقليل منهن من الحرائر . وكا الجوارى يغنين من وراء ستار ، واذا ما أقيم حفل خاص أراد به اكرام ضيف غنت المغنيات فى هذا الحفل أمام الستار .

وبرغم ان الغناء والطرب كان من اهم وسائل الترفيه واكثر انتشارا على امتداد العصر العباسى ومن قبله العصر الأموى فقد كانت المجالس الخاصة تعقد فى داخل المنازل لسماع الحكاي

القصيرة من النوادر والأحاديث التى تتجلى فيها اللباقة المقالة ولقضاء أوقات الفراغ فى ألعاب هادئة(٣) .

فقد عرف المسلمون الشطرنج فى عهد الرشيد واظهر الخليفة المأمون بعد قدومه من خراسان الى بغداد ميلا اليه فاستحضر كبار لاعبيه وقد كانوا يتوقرون بين يديه حتى ضاق لذلك وقال : « ان الشطرنج لا يلعب مع الهيبة ، قولوا ما تقولون اذا خلوتم » .

ومن البديهى فان الترفيه ووسائله المتنوعة أمر قائم فى كل حقبة من الحقب ، ولدى كل شعب من الشعوب لذا تجدر الاشارة الى ما كان سائدا منها فى مصر فى عهد الطولونيين .

فقد كان الطولونيون يعنون بالغناء والموسيقى ، ولعل ما يدل على ذلك بيت الذهب الذى بناه خمارويه بن أحمد بن طولون واتخذ على حيطانه صورا بارزة من الخشب تمثله مع مغنياته باشكال بلغت حد البهاء ودقة الزخرف ، وكان اذا جلس لسماع الغناء وسمع المؤذن ، يأمر المغنيات بوقف الغناء . ولم يكن خمارويه مبتدعا فى ذلك أثناء الحكم الطولونى فقد سبقه أبوه أحمد بن طولون فى الاهتمام بالرياضة فقد شيد ميدانا خاصا للعب الكرة خارج فسطاط مصر على نمط الميدان الذى الحقه الخليفة المعتصم بقصر الخلافة بمدينة سامرا .

كما عنى ابن طولون بحلبات السباق ، فبنى مكانا لعرض الخيل سماه المنظر ، واعتبره القضاعى احدى عجائب الاسلام الأربع(٤) حيث أن حلبة السباق عند الطولونيين — لاسيما فى أيام خمارويه — كانت بمثابة الأعياد لما يصحبها من اقامة معالم الزينة ، وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة .

كذلك كان الأمراء الطولونيون يقبلون على ممارسة لعب الكرة وشغفوا بها كثيرا .

أما فى عصر الاخشيديين ، فكان محمد بن طغج الاخشيد نفسه مولعا بسماع المغنين والمغنيات ، كما أن وجوه القوم فى مصر كانوا يقبلون فى مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات . وعلى أية حال فان وسائل الترفيه الموجودة بمصر ابان عصور الاستقلال وما قبلها قد استمرت بصورة أو بأخرى حتى جاء الفاطميون الى مصر وهم الذين تفننوا فى اضفاء مظاهر الأبهة والفخامة على دولتهم . فقد غلب الاهتمام بالغناء والموسيقى فى العصر الفاطمى بمصر على وسائل الترفيه الاخرى .

فاقبل كثير من رجال الدولة وأعيانها فى مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات وكان معظم المغنيات من الجوارى ، فيحكى أنه اشتريت من بغداد جارية تجيد الغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر فغنت له ولجلسائه ، وقد عرف هذا الأمير بميله الى الطرب والمجون ، وكان أثناء اقامته بمصر يخرج الى متنزهاتها ويشارك المصريين لهوهم . كما كانت مجالس الطرب والغناء " واللهو ، تقام على شواطىء الخليج بالقاهرة ، ويبدو أن هذه المجالس كان يشوبها بعض الانحلال الاجتماعى مما جعل الخليفة الحاكم بأمر الله يصدر قوانين يمنع بعضها سماع الموسيقى ويحرم البعض الآخر الغناء والملاهى التى اعتبرت خطرا على الأخلاق العامة .

على أن مجالس الطرب والغناء ما لبثت أن عادت الى الظهور بعد وفاة الحاكم .

وقد عرفت القصور الفاطمية أنواعا متعددة من الملاهى والألعاب

المسلية والهزليات حتى أن المقريزى يروى لنا أنه كان يوجد بالقصر الفاطمى « مجلس اللعبة » ويبدو أن هذا المجلس كان مسرحا لألعاب خيال الظل وغيره من أنواع الفنون والملاهى التى كانت تعرض فى القصر آنذاك ، بل بلغ شغف بعض الخلفاء الفاطميين بالصيد الى حد أن بعضهم لقب بالخليفة الصياد خاصة أن الفاطميين قد وجدوا فى الصيد متنفسا لهم بديلا عن ممارستهم الحروب بأنفسهم فى الغالب فكان الصيد بمثابة حرب بين الصائد وفريسته تظهر فيها فنون القتال وتجعل الصائد مستعدا لمواجهة الأخطار وعدم الاستسلام للأمان والدعة .

أما عن الدولة الأيوبية فان وسائل الترفيه التى كانت تمارس فيها قد كانت امتدادا لتلك التى كانت قائمة أثناء الدولة الفاطمية وان لم تكن بنفس الدرجة والمستوى أيام الفاطميين وقد يكون ذلك مرجعه الى تلك الأعباء التى ألقيت على كاهل الأيوبيين نتيجة لحروبهم الكثيرة خاصة مع الصليبيين فقد شغف ملوك بنى أيوب بلعب الكرة مثل نور الدين زنكى الذى اعتبرها نوعا من رياضة النفس والبدن ، وقد بلغ شغفه بها حدا كبيرا حتى لعبها بالليل مثل النهار .

كذلك كان السلطان الصالح نجم من اكثر الأمراء شغفا بهذه اللعبة فقد شيد برسمها ميدانا بأراضى اللوق من بر الخليج الغربى وجعل فيه مناظر جليلة تشرف على النيل ، وصار يلعب فيه بالكرة .

كذا اشتهر بنو أيوب بولعهم الشديد بالصيد حيث أعدوا له الأحواش فى مختلف أقاليم الديار المصرية .

والجدير بالذكر أنه على امتداد العصور الاسلامية فان الدول الاسلامية قد مارست الوانا مختلفة من وسائل الترفيه ولم يقتصر

ذلك على مجرد التسلى والترويح بل انطلقت نحو
الوان أخرى مما يمكن أن نطلق عليه الترفيه الجاد
فى قصـــور الخلفاء والوزراء والأعيان المجالس
يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة وتنافس
هذا الى جانب مجـــالس العلم التى كان يتردد عل
يتسامرون وينهلون منها العلم والأدب .

تلك لمحة سريعة عن بعض وسائل الترفيه -الـ
قبل عصر المماليك والتى توضح لنا أن وسائل الـتر
المملوكى انما كانت فى معظمها امتدادا لوسائل و
على مر العصور الاسلامية السابقة .

وان كان البحث قد اغفل تناول بعض هذه الو
المماليك ، فان ذلك مبعثه الالتزام بالمنهج وعدم الابـ
التى يتناولها البحث بالدراسة وهى عصر سلاطين
يرد الاستزادة حول ذلك الموضوع ابان العصور
المماليك فانه يجد المجال متسعا فى المؤلفات التاريخية
تناولته باسهاب وتوضيح لم يتيسر لنا كثيرا عند
البحث ابان العصر المملوكى .

هوامش التمهيد

(١) قالت عائشة « سابقنى رسول الله فسبقته ، فلبثت حتى اذا أرهقنى اللحم (أى سمنت) سابقنى فسبقنى ، فقال : « هذه بتلك » يشير الى المرة الأولى « رواه أحمد وأبو داوود » .

(٢) رواه البخارى.

(٣) يقصد بها النرد والشطرنج ويطلق عليها أيضا الألعاب المنزلية .

(٤) أشار القضاعى الى أن عجائب الاسلام الأربعة هى : عرض الخيل عند الطولونيين ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعه ببغداد .

(انظر : المقريزى ، خطط جـ ١ ص ٣١٨ ، ٣١٩) .

* * *

الباب الأول

المجالس

الفصل الأول : مجالس العلم والوعظ والقصص

الفصل الثاني : مجالس الأدب والشعر

الفصل الثالث : مجالس الشراب والطرب

الفصـــــل الأول

مجالس العلم والوعظ والقصص

مجـــالس العـــلم :

يعد ســـقوط بغداد فى أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م مصرعا لكل عزيز ونفيس من تراث المسلمين وآثارهم فى العراق التى كانت مفخرة للشعوب الاسلامية جميعا . فقد أباد التتار تراثهم العلمى فخربوا المكتبات وغيرها ، فالأرواح مســفوكة والحرمات مهدرة والأفواه مكممة ، والألسنة خرساء ..

نزح العلماء الى مصر والشام ، ولما غزا المغول الشـــام هاجر علماؤها الى القاهرة التى كانت تضـــم المدارس والمعاهد ومجالس العلم والمكتبات ولمس العلماء من عطف المماليك ورعايتهم ما حبب اليهم البقاء ، فأخذوا يكتبون ويؤلفون وينشرون وينظمون ، كما هاجر الى القاهرة أيضا فى غضون تلك الفترة عدد غير قليل من علماء الأندلس وأدبائها فارين منها هربا من خطر النصارى ، الأمر الذى ساعد على قيام نهضة دينية وعلمية وأدبية .

وقد حظيت تلك النهضة بتشجيع السلاطين والأمراء ، وحسبنا أن نشير فى ذلك الى تلك المجالس التى حرص عليها ســـلاطين المماليك ، والتى كانت تضم نخبة من العلماء والأدباء والجلساء ، على أن تسير بخطى واســـعة فى سبيل استكمال حاجات المجتمع الروحية والثقافية بل قدموا المال والجاه دفعا للعلماء الى التأليف فى مختلف العلوم ، كما أسندوا اليهم المناصـــب وأحاطوا ديوان الانشاء بالرعاية والاهتمام ، بما أنشأوا من المدارس والمســـاجد

وحلقات العلم التى أمها المتعلمون من كل مكان ، وأصبحت مدن القاهرة والاسكندرية وقوص والفيوم ، ثم دمشق وحماة وحمص تحتل مكانة بغداد وقرطبة وأصفهان وبخارى وغيرها .

وارتبطت مجالس العلم بمجالس الثقافة التى تضمنت مجالس الأدب والشعر ومجالس الوعظ والقصص وكذا مجالس الشراب والطرب ، التى أقبل عليها السلاطين للترويح عن النفس من مشاغل الدولة ، وخصصوا لها المجالس للاطـــــلاع على آداب العرب وأخبارهم ، وضموا اليها فحول شعراء العصر .

فقد ازدهرت مصر فى أثناء حكم المماليك بطائفة من العلماء ما بين المفسر والمحدث والفقيه والاصـــــولى والمتكلم والنحوى وغيرهم ، ويجمع الكل أنه يحق عليهم — كما يقول صاحب معيد النعم ومبيد النقم — « ارشاد المسلمين وافتاء المستفتين ونصح الطالبين واظهار العلم للسائلين » ، والا يقصـــدوا بالعلم الرياء والمباهاة والسمعة والا يكون العلم سبيلا الى الدنيا ، فان الدنيا أقل من ذلك .

وكان العلماء يوصفون بعلو الهمة ، وسمو القدر ، وعزة النفس ، يترفعون عن الملوك ويرقون بأنفسهم عنهم . فلا غرو فى ذلك فقد سئل بعضـــــهم عن مســـــألة فى القرآن ، فى اعرابها ومعناها ، فأجاب بوجه ، ثم أجاب بوجه آخر ، حتى ذكر عشرة أوجه ومنهم من كان لا يهاب ملكا ولا أميرا شديد البأس مهابا ، لايزال يأمر عظماء الدولة بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويصـــدع بالنكير عليهم « بغير احتشام لهم ولامراعاة » .

حتى ان أحدهم وهو محمد القونوى قد كتب الى السلطان برقوق يقول له « ... أما بعد فان برقوق اسم هجين لا يليق

بالملك وقد استخرت الله تعالى وسميتك أحمد ولقبتك نظام الملك فاشرع ذلك فى عملك .. » . وكان برقوق قد اجتمع به بدمشق فى بدء أمره وله فيه اعتقاد .

على انه من ناحية أخرى أثر عن بعض سلاطين المماليك تضييق الخناق على حرية الأفكار ، مما جعل تلك النهضة المصطنعة تنكمش داخل حدود مصر والشام ، ولا تخرج عن نطاق الموضوعات الدينية والأدبية الا فيما ندر ، فضلا عن أنها كانت ضعيفة الأثر فى آداب اللغة .

ويمكن الرد على ذلك بأن تلك النهضة العلمية ابان عصر سلاطين المماليك انما كانت نهضة أصيلة ، اعتمدت على أساطين العلم فى مختلف فروعه حتى كان من أبناء السلاطين الذين اشتهروا فى العلوم الدينية محمد بن جقمق الذى حفظ القرآن الكريم واشتغل بالفقه والفرائض والحديث والمنطق والعربية ، فلما تسلطن أبوه زاد طلبه للعلم ، فقرأ على ابن حجر العسقلانى ، وحضر على سعد الدين بن الديرى قبل أن يلى القضاء فى الفقه والتفسير ، وقد اثنى عليه ابن حجر بالفهم والحفظ ، وكما كان محبا فى العلم والعلماء .

كذلك جنح بعض المماليك أنفسهم الى الدراسة الفقهية وغيرها من الدراسات المدنية ، وصار منهم الفقيه والأديب والشاعر والحاسب .

ويذكر ابن خلدون أن « أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون — على القدم منذ عهد مواليهم ملوك بنى أيوب — بانشاء المدارس لتدريس العلم والخوانق لاقامة رسوم الفقراء فى التخلق بآداب الصوفية السنية .. فكثرت لذلك المدارس والخوانق

بمدينة القاهرة ... وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية وآثارها الجميلة الخالدة .

وقد كان العلماء يتداوسون العلوم فيما عرف بمجالس العام التى حرص الناس على حضورها ، كما كان سلاطين المماليك يحضرون هذه المجالس ، بل يشاركون فيها مشاركة ايجابية ، فقد وجد منهم — كالسلطان الغورى — من حرص على عقد المجالس العلمية والدينية فى القلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع وكانت تبحث فى تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية التى تنافس فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء ، كما اشتغل بعض أمراء المماليك وأبنائهم فى مصر بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لاقراء الطلبة والتدريس لهم .

كما لم يكن حضور هذه المجالس العلمية مقصورا على الرجال فحسب ، بل كان يقبل عليها أيضا عامة النساء بالقاهرة ، فقد حرصن على حضور مجالس العلم والدين حيث يجلسن فى مكان منفرد عن الرجال لسماع الدروس الدينية .

وجدير بالذكر أن بعض السلاطين كانوا يحرصون على حضور هذه المجالس العلمية بغرض التفقد والوقوف على ما بجرى فيها ، فقد نزل السلطان المؤيد شيخ الى جامعه بجوار باب زويلة وحضر دررس المشايخ كلهم ، فكان يجلس فى كل حلقة قليلا والمدرس يلقى دروسه ، ثم يقوم الى الحلقة الأخرى ، حتى طاف الحلق السبع وعاد الى القلعة .

ولم يقتصر الأمر على ولع الكثير من سلاطين المماليك بمجالس العلم والأدب بل كان بعضهم كالسلطان الظاهر تمربغا — مثلا — عالما بأصول اللغات والتاريخ والتصوف .

كما كان بعض السلاطين متمسكين بأحكام الدين ويؤدون الفرائض كاملة ويحجون الى بيت الله الحرام ، فبرغم أن المماليك لم يكونوا أهل حضارة فى البيئات التى جاءوا منها فانهم كانت لهم عناية كبيرة بوجوه الحضارة وينشر العلم ، فقد أنشأوا — كما سبقت الاشارة — عددا كبيرا من المدارس فى جميع انحاء البلاد فى المدن والقرى ، وفتحت هذه المدارس أمام الراغبين فى الاستفادة ، يأتون اليها ليستمعوا الى ما يلقى فى حلقاتها على غير نظام مألوف ، حيث كان فى هذه المدارس — وفى الجوامع ايضا — اساتذة يلقون دروسا فى موضوعات معينة ، وكان على الراغب فى المعرفة أن يجلس فى الحلقة التى يروق له موضوعها بلا شروط ولا قيود ولا تسجيل ولا امتحانات .

وقد اخذ البعض على تلك السياسة التعليمية — ان جاز هذا التعبير — انها تضيع جانبا كبيرا من جهود الدولة والأساتذة ، ومن جهود الناس أيضا كما أنها لا تبرز الا أفرادا قليلين من كبار العلماء ، وتدفع السواد الأعظم من الناس فى غمرة من الجهل .

ولكن المدقق يستطيع بشىء من تصور ظروف ذلك العصر وملابساته ، أن يدرك ان ذلك كان فى حد ذاته يعد نهضة علمية لا غبار عليها ، فتلك كانت مدارس مفتوحة يجلس راغب العلم أينما يروق له بلا قيود ولا شروط ولا رسوم — كما سبقت الاشارة الى ذلك — مما يسر العلم وسهله ، حتى استطاعت تلك المدارس أن تجلو شخصيات أولئك الذين أوتوا نصيبا من العقل والجد والمثابرة .

بل لقد أفرزت لنا تلك المدارس خيرة العلماء وأفذاذهم الذين كان منهم من يتكلم على الحديث الواحد من بكرة الى قريب الظهر ، وربما أذن الظهر ولم يفرغ من الحديث الواحد واعترفت له علماء جميع الاقطار بالحفظ وكثرة الاستحضار .

ولعل مما ادى الى انتعاش الحياة العلمية والثقافية فى تلك الآونة هو انتقال العلم من العراق الى مصر وكثرة العلماء فى كل من والأدباء والشعراء خاصة فى مصر والشام بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ، علاوة على تشجيع السلاطين للعلم والعلماء وحسن رعايتهم للمتعلمين .

فقد كان السلطان برقوق « يجل أهل الخير ومن ينسب الى الصلاح ويقوم للفقهاء والصلحاء اذا دخل أحد منهم عليه ، ولم يكن يعهد ذلك من ملوك مصر قبله » ومع تنكره للفقهاء فى سلطنته الثانية بسبب انهم افتوا بقتله فانه « لم يترك اكرامهم قط مع شدة حنقه عليهم » وكان يفرق كل سنة فى أهل العلم والصلاح مائتى ألف درهم .

ورغم إن مجالس العلم كانت بطبيعة الحال مجالس جادة ، فانها كانت تجتذب اعدادا كبيرة من الناس ، بحكم انها كانت مجالس مفتوحة ــ كما سبقت الاشارة الى ذلك ــ وان الكثيرين كانوا يجدون فيها وسيلة من وسائل الاستمتاع حيث كانت تتناول موضوعات شتى من واقع حياة الناس ومشكلاتهم ، او كانت على الاقل تبعدهم عن واقعهم الأليم أحيانا حيث المجاعات والأوبئة .

فقد عرف عن معظم العلماء روحهم المرحة وخفة الظل وسرعة البديهة ، كما كان بعضهم يميل الى الخلوة مع عظمتهم عند السلطان والأمراء ، فقد قال الشهاب المنصورى وقد دخل على أحدهم فى خلوته وهو محيى الدين الكافيجى(١) وأضافه بحلاوة قرع فقال فى الحال ارتجالا دعابة لطيفة صاغها شعرا(٢) .

وكانت هذه المجالس تجذب الناس لما يدور فيها من مجادلات ومناظرات علمية وأدبية تهفو اليها نفوس العامة والخاصة ، فيذكر

صاحب الطالع السعيد فى ترجمة هبة الله بن عبد الله بهاء الدين القفطى توفى سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م « مجلسا للعلم والمناظرة ، حضره الوالى والقاضى والفقهاء ، كما حضره كثير من العوام الذين كانوا يتابعون ما يجرى فى المجلس ، ولما تمت المناظرة رفع العوام المناظر وعظموه(٣) .

وهذا يدل على مشاركة العوام فى هذه المجالس وحرصهم على ذلك ، بل تحمسهم للمتناظرين واستحسانهم لما يدور فى هذه المناظرات ، وتعظيم المتفوقين فيها وبطبيعة الحال لا نشك فى أن حضور هذه المجالس لم يكن مبعثه التثقيف أو التعلم بقدر ما كان بغرض تمضية وقت يستمتعون فيه بأحداث تلك المناظرات العلمية والجدلية التى كانت فى الغالب تتميز بمحاولة كل من المتناظرين اظهار عجز وادعاء الطرف الآخر ، وهذا مما يرضى العامة ويشبع رغبتهم فى حب الاستطلاع والترقب .

وقيل انه فى عهد السلطان الأشرف قايتباى ، فى المحرم من سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤ م صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالعام الجديد ، وصعد كذلك الشيخ جلال الدين السيوطى فلما جلس سأله السلطان عن اى سنة سنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يفعلها ، فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك بشىء مع غزارة علمه وقوة اطلاعه ، وكان السلطان يقتنى كتابا يسمى « حيرة الفقهاء » ثم أجاب الشيخ جلال بعد ذلك بجواب حسن كاف فى تلك المسألة ، بأن السلطان قصد بذلك الأذان ، فانه سنة ولم يفعله والأصح انه اذن فى وقت ، وأورد فى ذلك الحديث ، وعمل فى هذه المسألة كراسة مطولة وذكر فيها أشياء كثيرة مما سنه البنى (صلى الله عليه وسلم) ولم يفعله .

وهذه الواقعة توضح أن ما كان يدور فى هذه المجالس فى الغالب انما كان بهدف المحاورة التى تأخذ أسلوب الألغاز وهى

ورغم ذلك فانه يبدو أن العلماء كذلك لم يسلموا من قبائح الأمراء ، حتى ان قاضى القضاة ناصر الدين أبى نصر عبدالوهاب السبكى ذكر أن كثيرا من الأمراء لا يوقرون أهل العلم ولا يعرفون لهم حقوقهم وينكرون عليهم أبسط الأشياء فقال : « ... فما يتعين على الأمير اذا انهى اليه عن أحد من أهل العلم سوء ألا يصدقه ويحسن الظن بهذه الطائفة فان لحومها مسمومة وما رايت أميرا يغض من جانب الفقهاء الا كانت عاقبته سوءا ... »

وذكر من قبائحهم « استكثارهم الأرزاق وان قلت على العلماء واستقلالهم الأرزاق وان كثرت على أنفسهم ، ويقول رايت كثيرا منهم يعيبون على بعض الفقهاء ركوب الخيل ولبس الثياب الفاخرة ... »

على أنه كان من الأمراء أنفسهم من كان يحفظ القرآن ويتلوه بصوت حسن بل أنشأ بعضهم مكتبا لتحفيظ القرآن .

وكان من الأمراء من جمع بين فضيلتى السيف والقلم مثل موسى بن محمد بن شهرى شرف الدين ، أحد الأمراء بحلب سبط الملك المؤيد صاحب حماة وقد برع حتى اذن له البارينى بالافتاء .. وكان يحب العلماء ويكرمهم ويجالسهم ويبحث معهم ، ت سنة ٧٨٠ هـ/١٣٧٨ م .

وقد كان من المماليك من يترددون على مجالس العلم كثيرا الى جانب ممارستهم أعمالا أخرى يتعيشون منها ، ولدينا من هؤلاء فتح الله بن معتصم بن نفيس الداودى التبريزى الحنفى الطبيب الذى صار من أخص المماليك عند السلطان برقوق وكان « يدرى كثيرا من الألسن ومن الأخبار فراج عند برقوق وباشر رياسة الطب . وكان السلطان برقوق — كما سبقت الاشارة — معظما للعلماء يقوم اليهم ويتلقاهم اذا حضروا عنده .

ويذكر أيضا ان السلطان المؤيد شـيخ المحمودى كان كثير الاختلاط بالعلماء والفقهاء ، وكان يخصص يومى الأحد والأربعاء ليجتمع عنده جماعة من العلماء وطائفة من الصلحاء « يقعدون عنده ــ وهو فيما بينهم كأحدهم ــ من قبل العصر بساعة الى قرب المغرب فى القصر ، ينباحثون بالعلوم الشـريفة ويتذاكرون فى المسائل العويصة ، وهو يسمعهم وربما يشاركهم بلطف وأدب » . ثم كانوا اذا فرغوا يامر بأن يسقوا من السكر المكرر المعد لنفسه فى سلطانيات كبار ، فى كل سلطانية قطعة كبيرة من الثلج فى أيام الصيف والهواجر . وقيل ان هذا شىء لم يفعله أحد من الملوك من قبله .

وكان من عادة بعض العلماء عند استفتاح الدرس بعد البطالة أن يعدوا طعاما حسنا « وشـيئا حلوا » للطلبة ، واذا ختموه للبطالة صـنعوا مثل ذلك أيضا ، مثلما كان يفعل يحيى بن عبد الرحيم القوصى الذى ينعت بمحيى الدين الذى آلت اليه رياسة التدريس والفتوى بالأعمال القوصية ت ٧١٨ هـ/١٣١٨ م .

وتشير المصادر الى أن بعض العلماء فى ذلك العصـر لم يكونوا راغبين فى المشاركة فى مثل تلك المجالس ، بل يفضلون العزلة ويجدون فى التزام الخلوة متعة ترضى نفوسهم وتسـرهم وتغنيهم عن الاختلاط بالناس لغير ضرورته وكان من هؤلاء ابن القسـطلانى الامام قطب الدين ابو بكر محمد بن أحمد بن على المصرى المتوفى سنة ٦٨٦ هـ/١٢٨٧ م(٦) .

ومن اشهر مجالس العلم التى عقدت فى عهد السلطان المؤيد كان سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م . وهو الذى عقد لشمس الدين بن عطاء الله الرازى المعروف بالهروى الذى اشيع عنه انه يحفظ اثنى

عشر الف حديث ، وأنه يحفظ « صحيح مسلم » بأسانيده ويحفظ « البخارى » فاستعظم الناس ذلك .

وسئل الهروى عن بعض المسائل الدينية التى أجاب عنها ولكن الحاضرين استشعروا كذبه(٧) . وكان القصد من ذلك هو — كما نرى — اظهار عجز الهروى ، ومع أن هذا المجلس كان مكتظا بالحاضرين واستغرق وقتا طويلا فاننا نلاحظ انه لم يتناول مسائل ذات بال من الناحية العلمية بقدر ما كان محوره الأساسى المجادلة ومحاولة اظهار عجز بعض الحاضرين وهذا ينقل المجلس من كونه مجلس علم الى مجلس افتخار وزهو وتحد من جانب الحاضرين بعضهم لبعض ، ولعل هذا مما يبرر اعتبار تلك المجالس — حتى ان كانت علمية — تدخل فى اطار وسائل الترفيه زمن سلاطين المماليك ، ذلك أن غاية الحضور هو تمضية وقت يستمتعون فيه ويرفهون عن أنفسهم .

ورغم تعدد مجالس العلم والاهتمام بها على مدى عصر المماليك وعناية السلاطين والأمراء حتى العامة بهذه المجالس ، فان البحث لا يتناول موضوعات هذه المجالس ولا ينقدها بقدر ما يعرض لها من حيث كونها احدى الوسائل المهمة التى كانت بعض الفئات تقضى بها وقتها ، فقد كانت غاية معظم من يحضرون تلك المجالس هو كما ذكرنا من قبل الاستمتاع بما يدور فيها من مناظرات ونوادر العلوم وان كانت لا تخلو من فائدة ، فهى على الأقل قد حثت الناس على التفكير وتحصيل الثقافة حسب ظروف العصر .

وحسبنا أن نشير الى كتاب « نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية » الذى ألفه واحد ممن شهدوا مجالس

ـغورى فى مصر وهو حسين بن محمد الحسينى ، وهو
والى مصر وجمع فى كتابه هذا بعض المباحث التى كان
العلماء يتكلمون فيها(٨) . ويقول المؤلف « لم تكن المعارف
.هرة فى مصر فى عصر الغورى » مستدلا على ذلك بالنظر
، والمجادلات التى كانت تدور فى مجالس هذا السلطان ،
ـ عن ضيق الأفكار وقلة المعارف والولع بسفاسف الأمور
ن جلائها .

ـ أيضا : « ينبغى ألا نعد هذه المجالس مصورة معارف
فى ذلك العهد ، فان كبار العلماء كانوا يتورعون عن
ن ... » وكذا أيضا فان القضاة الأربعة الذين يذكرون
ـنئون ذلك العصر ، ولهم بالدولة والسلطان المملوكى
ـة ، قل أن يذكر أحدهم فى مجالس السلطان الغورى .

ع المصادر على أن السلطان الغورى كان ذا حظ من
ينية كالتوحيد والفقه والتفسير ، ويشارك فى علوم
ـحو والبلاغة وغيرها كما كان مولعا بقراءة كتب التاريخ
قصص .

حوى كتاب « نفائس المجالس السلطانية » ، وكذا كتاب
الدرى »(٩) مسائل وافية تصور مجالس الغورى وتبين
ء العلماء والكبراء الذين كانوا يغشون مجالسه .

طبيعة هذه المجالس فقد كان السلطان يتصدر قاعة
ى الأشرفية بالقلعة ، وهو يجلس على مرتفع مغطى
حريرى وأرض مغطاة بالسجاد الثمين ، فقد كانت تلك
عقدت فيها هذه المجالس تنبىء بوقوع أحداث جسام
تصدى للدولة العثمانية الوليدة التى دأبت على التحرش
ـ ، فكانت تلك المجالس تخفيف الواقع الصلب .

وقد تعددت تلك المجالس ، وتنوعت المسائل التى تناقش فيها ، رغم أن مقصود بعض الحاضرين كما جاء على لسان السلطان الغورى فى أحد المجالس ، لم يكن الا المكابرة ، لا اظهار الصواب والمناظرة أو قصده الغلب المطلق ، وان كان على غير الحق ، كما اتهم بعضهم بافشاء أسرار المجالس العلية عند الناس والافتخار بها بين العوام والخواص ، وهذا مما كان يغضب السلطان .

فغالبها أحيانا بعيد عن العلم قريب من الألغاز والنوادر خاصة أن تلك المجالس كانت تمتد ليلا فهى أشبه بالسهرات وأحاديث السمر .

بالاضافة الى انه كان يقام للكتب سوق تعرض فيها نفائس الكتب ، وكان الناس يقبلون على شرائها ، بل كان منهم من يحب ملازمة تلك السوق . فكان للكتب تجارة رائجة تدر على محترفيها أموالا طائلة ، مثلما كان ابن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م(١٠) .

وكذا كان على بن أحمد بن يوسف بن الخضر الآمدى الحنبلى الذى كان يتجر فى الكتب ، ولم يكن يخفى عليه منها شىء حتى انه اذا طلب منه المجلد الأول مثلا من أحد الكتب قام وأخرجه ، بل كان يلمس الكتاب فيذكر ما يشتمل عليه ولا يخطىء فان كان الكتاب مثلا بخطين ذكر ذلك .

وكذلك على بن اسماعيل بن يوسف القونوى علاء الدين (ت ٧٢٩ هـ/ ١٣٢٩ م) الذى كان السلطان الناصر يعظمه ويثنى عليه ، وهو الذى تولى قضاء دمشق فتوجه اليها فى سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٧ م وأحضر صحبته من الكتب « ما حمل على نحو العشرين فرسا » .

وبرغم ذلك فان البعض كان ينظر الى بعض تلك الكتب على أنها ليست ذات نفع للناس ، بل اعتبرها مضلة لهم ومضيعة لأموالهم ، مثلما فعل الشيخ تقى الدين بن تيمية الذى ذكر المؤرخون انه اشترى الكيمياء ممن يحوزونها وغسلها فى الحال وقال : « هذه الكتب كان الناس يضلون بها وتضيع أموالهم فافتديتهم بما بذلته فى ثمنها .

ومما لاشك فيه أن الكتب وما حوته من مادة كانت احدى وسائل قضاء الوقت كوسيلة من وسائل الترفيه النافعة التى ساهمت فى نشر العلم والثقافة والأدب فى عصر سلاطين المماليك، حتى ان كان هناك من حرص على اقتنائها استكمالا للمظهر والأبهة والتعلق بأهداب العلم ، فمن المسلم به أن قيمة تلك المؤلفات تكمن أخيرا فى مدى الاستفادة منها ومدارسة محتوياتها وهذا ما لا يمكن الجزم بحدوثه ولو لدى القلة ممن اقتنوا هذه الكتب ، خاصة أن البعض كان يقتنى الكتب النفيسة كما يقتنى الجوارى الحسان والآنية الثمينة .

مجالس الوعظ :

وهناك أيضا مجالس خصصت للوعظ والارشاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، اقبل الناس عليها فى أوقات فراغهم ، وقام بالوعظ فيها وعاظ فضلاء ، حرصوا على عقد هذه المجالس خاصة فى شهور رجب وشعبان ورمضان فى كل يوم سبت .

وقد ألف بعضهم كتبا فى الوعظ منها ما عرف بكتاب الحريفيش وهو من تصنيف عالم صوفى وواعظ مشهور هو الشيخ الصالح عبد الله بن سعد بن عبد الكافى المصرى المعروف بالحرفوش المتوفى سنة ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م . وكذا كتاب ابن الرسام (ت

٨٤٤ هـ/١٤٤١ م(١١) ، الذى كان يعمل المواعيد(١٢) وهو مؤلف فى الوعظ على نمط كتاب شيخه ابن رجب المعروف بلطائف المعارف بالاضافة الى عدة تصـــانيف أخرى منها « سفينة الأبرار الحاملة للآثار والأخبار » وهو عبارة عن ثلاثة مجلدات فى الوعظ وهى من تأليف شمس الدين محمد بن أحمد ابن سعيد المقدسى الحنبلى قاضى مكة المشرفة المتوفى سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م .

كذلك ما كتبه العينى المؤرخ فى المواعظ والرقائق وهو فى ثمانية مجلدات . والرقائق لفظ اصطلاحى يطلق فى كتب الحديث الكبرى على باب خاص من أبواب الحديث النبوى ، وســـميت أحاديث ذلك الباب بهذا الاسم لأن فيها من الوعظ والرحمة والتنبيه ما يجعل القلب رقيقا رحيما ، فيقال باب الرقائق ، وباب الرقاق والتسمية الثانية أكثر شيوعا .

كما صنف الواعظ زين الدين بركات أحمد بن محمد بن يوسف الشهيد المتوفى سنة ٩٢٩ هـ/١٥٢٣ م عدة كتب منها كتاب « حياة القلوب ونيل المطلوب » فى الوعظ وايضا « الكواكب الزاهرات فى معرفة من اختلط من الرواة الثقـــات » ومنها كذلك « أسنى المقاصد فى معرفة حقوق الولد على الوالد » و « الجواهر الزواهى فى ذم الملاعب والملاهى » و « الأنجم الزواهر فى تحريم القراءة بلحون أهل الفسق والكبائر » .

والحقيقة اننا لم نعثر على أى من هذه التصانيف ، التى كان يمكن أن تكون منهلا فياضا للموضوع .

وكانت مجالس الوعظ أشبه بمدارس شعبية ، تحملت عبء تثقيف العامة وقامت المساجد بهذه المهمة ، الى جانب المدارس المتعددة التى أكثر المماليك من انشائها ، كما سبقت الاشارة .

وكانت هذه المجالس تعج بالناس على اختلاف مستوياتهم دون قيد أو شرط حتى بلغ الحاضرون فى بعض هذه المجالس الألوف من الناس . كما تميزت تلك المجالس بمعالجة المسائل الدينية والدنيوية ، لذا فقد كان أثرها واضحا فى حفظ بعض معالم التراث الاسلامى ، ولاسيما ما يتعلق منه بالقيم والمثل الاسلامية العليا .

وكان عمل الواعظ يقتصر فى الغالب على التذكير بالله ، وبث المواعظ المحركة الى الله تعالى ، وتخويف الناس من عذابه ويحضهم على التمسك بأهداب الدين ، وكان الناس اذا ما أعجبوا بأحد الوعاظ تعصبوا له وأقبلوا على مجالسه لاعتقادهم فيه اعتقادا زائدا ، بل كثيرا ما كانوا يقفون الى جانبه ضد بقية الوعاظ الذين يخالفونه الرأى فى وعظه أو تفسيره ، حتى لو اقتضى الأمر استخدامهم القوة ، بل كان أحيانا يقع شجار بين العلماء أنفسهم بسبب خلافهم فى الرأى .

وكان الوعاظ من القضاة والعلماء الذين يتولون الخطابة فى مساجد مصر والشام ، خاصة علماء الجامع الأزهر منذ بناه جوهر الصقلى سنة ٣٦٠ هـ/ ٩٨٠ م ، وقد حمل هؤلاء العلماء على أكتافهم مهمة الوعظ والارشاد ، وتوافد الناس عليهم من كل فج ، كما كان السلاطين والأمراء المماليك كثيرا ما يحضرون هذه المجالس خاصة تلك التى كانوا يدعون هم لعقدها ، وسنذكر طرفا منها فيما بعد .

وقد كانت مجالس الوعظ تشد الناس اليها وتستولى على ألبابهم ، حتى أنهم كانوا يتركون أعمالهم ويتفرغون لها ، فتذكر المصادر أن أبا المظفر الحنفى البغدادى الدمشقى سبط ابن الجوزية

المتوفى سنة ٦٥٥ هـ/١٢٥٧ م « كان حسن الوعظ » وكان له مجلس وعظ كل يوم سبت بكرة النهار عند السارية التى تقوم عندها الوعاظ اليوم — زمن المؤلف — عند باب مشهد على بن الحسين زين العابدين ، وقد كان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع ويتركون البساتين فى الصيف حتى يسمعوا ميعاده ، ثم يسرعون الى بساتينهم فيتذاكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن ، على طريقة جده ، وكان الشيخ تاج الدين الكندى وغيره من المشايخ ، يحضرون عنده تحت قبة يزيد ، التى عند باب المشهد ويستحسنون ما يقول .. وكان مجلس وعظه مطربا وصوته فيما يورده حسنا طيبا » .

وكان الوعاظ لكونهم علماء ورجال دين يتمتعون بحب الناس كافة حتى كان منهم « الرائج عند العامة » ، وكثير منهم اشتهر بصدق اللهجة وجودة الرأى وحسن التذكير والأمر بالمعروف مع الصرامة والصدع بالوعظ فى خطبه وقصصه وصارت له « وجاهته عند الخاصة والعامة » ، وبطبيعة الحال فانهم كانوا سعداء بذلك ، حريصين على ارضاء العامة فيظهرون لهم التواضع ولين الجانب فى حين كان معظمهم يخاشن الملوك والسلاطين ، ويغلظ عليهم فى القول . ومع ذلك كانوا يعظون فى خشوع وتواضع حتى كان منهم من « يغيب فى وعظه لفرط خشوعه » .

وتذكر بعض المصادر ما يشترط فى الواعظ فأوردت أن للواعظ شروطا منها : « أن يكون عالما بالكتاب والسنة ، وأن يكون مستقيم اللسان حسن البيان ، ومن شرطه أن يكون صاحب اشارة ورموز فقد قيل : رب اشارة أبلغ من عبارة ، ورب لحظ أبلغ من لفظ ، وقال مالك بن دينار : الواعظ الذى اذا دخلت بيته تعظك آلة بيته ، فترى اناء الوضوء وسجادة الصلاة .

وقيل ان الوعظ ثانية مراتب الحسـبة فأولاها فى النهى
نانية بالوعظ والثالثة بالردع والزجر ، ولا ينفع وعظ من لا يتعظ
، ليس بصالح فى نفسـه كيف يصلح غيره ، وجاء أن على
تسب أن ينظر فى أمر الوعاظ ، ولا يمكّن أحدا ممن يتصـدى
ألفن الا من اشتهر بين الناس بالدين والخير والفضيلة(١٣) .

ومن عرف شيئا يسيرا من كلام الوعاظ وحفظ من الأحاديث،
بار الصالحين قبل ذلك وقصد الكلام يسترزق به ويسـتعين
قوته فيباح له بشرط ألا يصعد المنبر ، بل يقف على قدميه ،
رتبة صعود المنبر رتبة شريفة لا يليق أن يصعد عليه الا من
هر بما وصفناه ، وكفى به علوا وسموا أن النبى (صلى الله
وسلم) صعد عليه والخلفاء الراشدبن من بعده والأئمة(١٤) .

وهناك نقد لمجالس الوعظ فى عصـر سـلاطين المماليك
أن صار الواعظ لا يطلب الا لتمام شهور ميت أو لعقد نكاح ،
جتماع هذيان ، ولا يجتمع الناس عنده لسـماع موعظة ولا
ة ، وانما صار ذلك من نوع الفرح واللعب والاجتماع ، ويجرى
لمجلس أمور لا تليق من اجتماع الرجال والنسـاء ، ورؤية
ـهم لبعض وأشياء لا يليق ذكرها ، واعتبر هذا من البدع
ة وكان الأولى حسم ذلك والمنع وان تعذر فلايمكن من ذلك
جل مشهور بالدين والخير والفضيلة ، ومن شرطه أن يكون
لله مجتهدا قوالا فعالا ، هذا وقد اعتبر الفقهاء والمتكلمون
ـاء والنحاة أهل الذكر والوعظ قصاصا .

وكان على الواعظ أن يرفع صوته فى مجلسه بحيث يسمعه
ن نفسا وأن يذكر بأيام الله ويخوف الناس فى الله وينبئهم
السلف الصالح وما كانوا عليه ، وأهم ما ينبغى له وللخطيب

أن يكون مثلا أعلى وقدوة حسنة قولا وعملا وأن يعلم أن الكلام اذا لم يخرج من القلب لم يصـــل الى القلب فكل خطيب وواعظ لا يكون عليه سمات الصلاح قل أن ينتفع الناس بوعظه .

والابتداع فى الوعظ من المـــكروهات ، فان الواعظ المبتـــدع يجب منعه فلا يجوز حضور مجلسه الا على قصـــــد اظهار الرد عليه ، فان لم يقدر فلا يجوز سماع البدعة ، كما أنه اذا كان الواعظ شابا متزينا للنساء فى ثيابه وهيئته ، كثير الأشعار والاشارات والحركات ، وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه ، فان الفساد أكثر من الصلاح ويبين ذلك بقرائن أحواله .

ولا ينبغى أن يســــــلم الوعظ الا لمن ظاهره الورع وهيئته السكون والوقار ، وزيه زى الصالحين . والا فلا يزداد الناس الا تماديا فى الضلال ، كما يجب أن يضرب بين النساء والرجال حائل يمنع النظر اليهن فان ذلك مظنة الفساد(١٥) .

ورغم هذا التشدد فى حضور النساء مجالس وعظ الرجال، فان المرأة فى العصر المملوكى تمكنت من المشـــاركة فى الحياتين العلمية والدينية ، حتى أن التاريخ يسجل أسماء كثيرات اشتغلن بالنحو ونظمن الشعر وتخصصن فى الفقه والحديث بل لقد قررت امرأة شيخة على زاوية السلطان قايتباى بالمرج ، بعد أن مات زوجها الشيخ قلج الرومى الأدهمى سنة ٨٩١ هـ/١٤٨٦ م وان كان ذلك عد من النوادر .

ويبدو أن مجالس وعظ للنساء كانت تعقد خصيصا لهن ، يقوم بالوعظ فيها واعظات كن على درجة كبيرة من العلم والاقتدار، منهن — على سبيل المثال — ست الخطباء بنت القاضى تقى الدين

على بن عبد الكافى السبكى ، المولودة بالقاهرة وحدثت بمصر والشام وتوفيت فى جمادى الآخرة سنة ٧٧٣ هـ/١٣٧٢ م ، وكذا ست الوزراء بنت عمر بن أسعد بن المنجا التنوخية الدمشقية أم عبد الله وتدعى وزيرة بنت القاضى شمس الدين عمر بن شيخ الحنابلة وجيه الدين ، وقد سمعت من والدها وغيره ، وحدثت أيضا بدمشق ومصر وماتت فى شعبان سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م .

ومنهن أيضا أسماء بنت الفخر ابراهيم بن عرصة التى كانت تلقن النسوة القرآن الكريم وتعلمهن العلم ، وكانت تجهد نفسها فيما يقربها الى الله ، توفيت سنة ٧٠٨ هـ/١٣٠٨ م ، وكذا عائشة بنت ابراهيم المتوفاة سنة ٧٤١ هـ/١٣٤١ م وكانت تحفظ القرآن وتلقنه النساء ، قال عنها ابن كثير ــ وكان زوج ابنتها ــ كانت عديمة النظير لكثرة عبادتها وحسن تأديتها للقرآن ، تفضل فى ذلك على كثير من الرجال واقرأت عدة من النساء وختمن عليها وانتفعن بها .

ويكفى دليلا على اقتدار كثير من سيدات العصر فى الوعظ ما شهد به ابن تيمية حيث أثنى على فاطمة بنت عياش بن أبى الفتح البغدادية أم زينب الواعظة ، فقد كانت تدرى الفقه جيدا حتى تعجب ابن تيمية من حرصها وذكائها وقد انتفع بها نساء أهل دمشق لصدقها فى وعظها وقناعتها ، وعندما تحولت الى القاهرة حصل بها النفع وارتفع قدرها وبعد صيتها توفيت ليلة عرفة سنة ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م .

وكذا ظهرت اخريات فى مجال الوعظ كفاطمة بنت على بن يحيى بن عمر بن حمود البعلبكية ، وقد سمعت من القطب الونينى ، وحدثت وسمع منها رجال كثيرون ، ولم يأنف كثير من كبار فقهاء

القاهرة فى عصر المماليك من الاعتراف بانهم سمعوا من بعض السيدات الشهيرات اللائى اجزن لهم .

كذلك برعت فاطمة بنت محمد بن محمد بن جبربل بن أبى الفوارس وتدعى ست العجم التى ارخ لوفاتها تاسع عشر رمضان سنة ٧٣٧ هـ/١٣٣٧ م ولها ست وسبعون سنة . كما سلكت بعض النساء فى عصر سلاطين المماليك طريق التصوف وشاركن مشاركة فعالة فى حركة التصوف التى اشتد ساعدها فى ذلك العصر بالذات بل ان بعض النساء لبسن خرقة التصوف كما يلبسها المتصوفة من الرجال وأطلق علبهن اسم الشيخات ، ولازمت هؤلاء المتصوفات الزوايا والأربطة التى خصصت لهن تحت رئاسة شيختهن .

ووصف بعض المؤرخين هذه الزوايا الخاصة بالنساء ، بشدة الضبط والمواظبة على وظائف العبادات والحرص على مبادىء الأخلاق ، حتى ان خادمة الفقبرات كانت لا تمكن أحداً من استعمال ابريق ببزبوز ، وتؤدب من خرج على الطربق بما تراه .

وكان الواعظ يعتبر نفسه مصلحا يتلمس نواحى الضعف فى الحكومة وفى طبقات الأمة لذلك العهد فيتصدى لنقدها بصراحة وجرأة تدعوان الى الاعجاب ثم يصف وسائل الاصلاح ، وهى غالبا ما تدور حول قيام كل بواجبه فى دائرة عمله . وكان يحصل للناس فى مجالس الوعظ رقة وخشوع وبكاء حتى تاب على أيدى الوعاظ كثبرون .

وارتبطت بمجالس الوعظ قراءة القرآن الكريم ، حيث كان يجتمع الناس والعلماء ويقرأون ختمة كامله ، ثم يدعون بدعاء طويل فى عشى كل سبت ليلة الأحد . وكان بعض السلاطين

يحرصون على الاجتماع لسماع القراءة والدعاء وزيارة المدارس التى هى موطن العلوم الشرعية والعبادات والصلاة مع الناس وقد فعل ذلك السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م ، وكثيرا ما حدثت مناظرات ومجادلات فى تفسير بعض الآيات الكريمة ، ومسائل فقهية متنوعة .

وظهر من المفسرين فى هذا العصر الامام القرطبى المتوفى سنة ٦٧١ هـ /١٢٧٣ م وهو صاحب كتاب التذكرة بأمور الآخرة ، والتفسير الجامع لأحكام القرآن ، وكان اماما علما من الغواصين على معانى الحديث .

كما ازدهر فن القراءات ، فكان هناك من يقرأ القرآن بأربع عشرة رواية . وكثيرا ما كان القراء والوعاظ يدعون فى مناسبات متعددة لاحياء لياليها بدعوة من السلطان أو أحد الأمراء ، وكان يلى القراءة والوعظ أن تصنع وليمة حافلة ، يحضرها القضاة الأربعة والأمراء المقدمون وأرباب الوظائف من المباشرين ، ويحضر قراء البلد قاطبة والوعاظ ، ويحضر السلطان المجلس والسماط .

وكان السلطان يستمتع بمشاهدة مجالس الذكر والرقص فى الخوانق التى هى أماكن العكوف للمتصوفين ، وكان من عادة رجال الصوفية أن يحضروا عند السلطان فى كل يوم ثلاثة أشهر لقراءة البخارى . وكانت العادة أن يقرأ كتاب صحيح البخارى بالقصر من قلعة الجبل ، بحضور قاضى القضاة الشافعى وشيخ الاسلام فى طائفة يسيرة من الفقهاء بلغ أحيانا الستين فقيها ، بصرف لكل منهم الف درهم فلوسا .

وفى رمضان كان ختم قراءة البخارى بجامع الأزهر ، حيث تجرى قراءته من اول الشهر فى الجامع الأزهر بحضور القضاة الأربعة والعلماء ثم تفرق عليهم الخلع والصرر .

وفى عهد السلطان الغورى فى رمضان ، كان ختم قراءة صحيح البخارى يتم بالحوش السلطانى وقد نصبت هناك خيمة كبيرة ، وكانت العادة القديمة أن البخارى يقرأ بالقصر وتختم بالقصر الكبير ، ويكون له يوم مشهود وتفرق هناك الخلع والصرر على القضاة ومشايخ العلم ، فبطل ذلك وصار البخارى يقرأ بجامع القلعة ويختم بالحوش ، « فتكون ساعة يسيرة ثم ينفض ذلك المجلس على أمر هين » .

ويقال انه كان يصنع فى كل ليلة رابع عشر الشهر ، ليلة حافلة بجامع السلطان قايتباى فى الروضة ، وكانوا يسمونها البدرية نسبة الى البدرى حسن بن الطولونى ، وينصب على شاطىء النيل أمام الجامع ما لا يحصى من الخيام ، وتجمع المراكب هناك بكثرة . ويجتمع الناس وتوقد بالجمع وقدة حافلة ، ويحضر هناك قراء البلد جميعا والوعاظ ، وتكون « ليلة حافلة ، لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، واستمر ذلك مدة حتى أبطل .

كما شارك السلاطين فى الاحتفال بالمولد النبوى ففى كل سنة يجتمع القضاة والعلماء فى الحوش من القلعة تحت خيمة كبيرة تضرب هناك ويحضر السلطان والأمراء ، وعندما يفرغ من قراءة القرآن الكريم يقوم الوعاظ واحداً بعد واحد ، ثم يدفع اليهم بصرر المال وتمد الأسمطة الجليلة .

وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون يحضر عند ابن جماعة لسماع الحديث . كذلك كان الظاهر جقمق عالما متفقها ، فصيح اللسان بالعربية .

وغالبا ما كان السلاطين يدعون الى مجلس لقراءة القرآن الكريم عند المقياس فقد ندب السلطان المؤيد شيخ المحمودى

طائفة من القراء للاجتماع على تلاوة كتاب الله بالمقياس وأجرى عليهم من الأطعمة ما يليق بهم فأقاموا على ذلك بالمقياس وكان سبب ذلك توقف النيل عن الزيادة عدة أيام فكثيرا ما كانت تعقد تلك المجالس القرآنية عندما تحل الأزمات بالبلاد ، أو تقع ظاهرة طبيعية غير عادية مثل كسوف الشمس أو خسوف القمر أو غيرها فقد كان ذلك مجالا واسعا للوعظ وحث الناس على فعل الخيرات دفعا لما قد يقع من البلاء .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٢٢ هـ/١٤١٩ م فى عهد السلطان المؤيد شيخ اشتد الطاعون بالناس ، فنودى فى الناس بالخروج الى الصحراء ، وأن يخرج العلماء والفقهاء ، ومشايخ الخوانق ، وصوفيتها ، وعامة الناس ، ونزل الوزير الصاحب بدر الدين بن نصر الله ، والأمير التاج الاستادار بالصحبة الى تربة الملك الظاهر برقوق ، حيث نصبوا المطابخ بالحوش القبلى منها وشارك السلطان فى ذلك مظهرا الخشوع والانكسار وهو يبكى ويدعو الله بين القضاة والخليفة وأهل العلم وطوائف من الناس لا تحصى ، وكان يوما مشهودا ، يقول المقريزى لم ندرك مثله .

وكانت مثل هذه التصرفات العاجزة سمة بارزة ونغمة مشتركة فى مواقف الدولة ورجالها الذين يتمسحون برداء الدين ابان الأزمات .

وفى عهد السلطان الأشرف برسباى كان من عادة قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى أن يخرج فى جمع موفور الى الصحراء ، خارج باب النصر وأن يجلس جانب تربة الملك الظاهر برقوق ، فيعظ الناس على عادته ويعمل الميعاد .

ففى سنة ٨٣٣ هـ/١٤٣٠ م وقع وباء عظيم بمصر فاجتمع اربعون شريفا اسم كل منهم « محمد » بالجامع الأزهر وقرأوا ما

تيسر حتى أذان العصر فصعدوا على سطح الجامع وأذنوا جميعا بصوت واحد ثم صلوا العصر وانفضوا ، وقيل أخذ الوباء يتناقص بعدها حتى انقطع .

ويبدو أن الناس كانوا سريعى الاستجابة للخروج فى مثل هذه التجمعات الدينية ، خاصة عندما كان يشتد الكرب ، ففى التاسع والعشرين من صفر سنة ٨٢٢ هـ/١٤١٩ م كسفت الشمس قبيل الزوال ، فاجتمع الناس بالجوامع لصلاة الكسوف ، فبادروا للتطهر وسعوا رجالا ونساء الى الجوامع وهم فى خشوع وذكر واستغفار .

ولم يكن المماليك أقل استجابة لتلك النزعة الدينية التى سادت فى العصر المملوكى ، فالمعروف أن بعض المماليك حفظوا القرآن الكريم كله عن ظهر قلب ، وحرص على تجويده ، فاشتهر الأمير ازدمر الابراهيمى الظاهرى جقمق بتلاوة القرآن والقراءة مع قراء الجوق ورياسته مع فهم فى الجملة وطول نفس . وعرف عن يشبك بن سليمان شاه المؤيدى الفقيه أحد أمراء السلطان المؤيد شيخ وصهره انه اشتغل بالقراءات .

ومن المماليك من اشتهر بحسن الخط والتأنق فيه كالأمير تجكاس الاسحاقى الظاهرى جقمق الذى يقال أنه كتب قصيدة البردة للبوصيرى وقدمها لأستاذه جقمق فاستحسنها ، واعتبرت الاجادة فى الخط مبررا لزيادة ثمن المملوك .

وبلغ من اهتمام المماليك بالقرآن قراءة وكتابة وحفظا أن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق كان له اشتغال بالعلم ، وبرع فى الفقه وأذن له بالافتاء ، توفى فى المحرم ٨٩٢ هـ/١٤٨٧ م. وكذا على باى بن برقوق نائب الشام المتوفى فى رجب سنة

٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م ، فى عهد الأشرف قايتباى ، كانت له عناية بالعلم والاشتغال به ، وكان شابا فاضلا(١٦) .

ويذكر أن الأكابر والأمراء كانوا يحضرون مجالس الوعظ والعلم بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، ويقبلون على شيخها ويجلسون بين يديه متأدبين ، وهو يخاطبهم بأسمائهم من غير تعظيم ولا تلقيب .

ولندع الرحالة ابن بطوطة يصف لنا طرفا من هذه المجالس، شاهدها بنفسه فى أقاليم مصر أثناء رحلته للحج اذ يقول : « ونزلت من هذه المدينة — يقصد اخميم — بزاوية الشيخ أبى العباس بن عبد الظاهر ، وبها تربة جده عبد الظاهر وله من الاخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ، ومن عاداتهم أن يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين وأولاده وقاضى المدينة فخلص وسائر وجوه أهلها فيجتمعون للقرآن ويذكرون الله الى صلاة العصر ، فاذا صلوها قرأوا سورة الكهف ثم انصرفوا » ، ويضيف الرحالة أنه سافر من أخميم قاصدا مدينة كبيرة بساحل النيل تسمى « هو » ويقول انه نزل منها بمدرسة تقى الدين بن السراج ويقول : « رأيتهم يقرأون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ، ثم يقرأون أوراد الشيخ أبى الحسن الشاذلى وحزب البحر » .

وكان الأمراء يتنافسون فى أفعال الخير ، وبناء المساجد والزوايا ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضى فخر الدين القبطى ، وكان نصرانيا فأسلم وحسن اسلامه وله منزلة عظيمة عند الملك الناصر .. وكان من عادته أن يجلس عشى النهار فى مجلس له فى داره على النيل ويليه المسجد ، فاذا حل المغرب

صلى فى المسجد وعاد الى مجلسه وأتى بالطعام ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان ، ويقضى حاجات الناس ، ومن كان طالب صدقة أعطاه خازنه ما قدر له ، ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخارى فاذا صلى العشاء انصرف الناس عنه .

وهكذا نجد أن مجالس الوعظ قد أسهمت اسهاما كبيرا فى نشر الثقافة فقد كانت تسد فراغا روحيا كبيرا لدى الناس جميعا حكاما ومحكومين ، فى عصر غلبت عليه الأحداث الجسام ، وكثرت فيه الأزمات والمجاعات ، فكانت تلك المجالس تخلص الناس من همومهم أو تخففها عنهم .

مجـــــالس القصـــــص :

وارتبط بمجالس الوعظ نوع آخر من المجالس عرف بمجالس القصص ، حتى أن بعض الفقهاء والمتكلمين والأدباء والنحاة ، اعتبروا الوعاظ قصاصا ــ كما سبقت الاشارة ــ وتلك المجالس ــ حسب رواية أحد المؤرخين ــ نوعان ، قصص العامة ، وقصص الخاصة(١٧) ، وكان القاص يجلس عادة فى الطرقات ، أو فى المقابر أو فى الجوامع أو فى المدارس أو فى الخانقاوات ، أو يجلس فى الأسواق وقد أطلق على القصـــــاص أحيانا « قارىء الكرسى » وتذكر المصادر أنه « هو من يجلس على كرسى يقرأ على العامة شيئا من الرقائق والحديث والتفسير ، فيشترك هو والقاص فى ذلك ولكنهما يختلفان فى أن القاص يقرأ من صدره وحفظه ويقف وربما جلس ، ولكن وقوفه وجلوسه فى الطرقات ، أما قارىء الكرسى فيجلس على كرسى فى جامع أو مسجد أو مدرسة أو خانقاه ، ولا يقرأ الا من كتب .

وقد راج الأدب القصصى فى ذلك العصر ، ومن أشهر القصص ، كتاب الف ليلة وليلة ، الذى تصور قصصه عصر المماليك بطريقة جذابة ، وان انتحلت شخصيات من العصر العباسى الأول لأبطال تلك القصص كما ذكرت بغداد عوضا عن القاهرة ، ويضيف بعض المؤرخين أن ألف ليلة وليلة « كتبت للجمهور الذى كان يجتمع فى المقاهى يصغى الى ما يسرده القصاصون المحترفون للطبقة الوسطى غير المثقفة الكثيرة العدد فى القاهرة » ويرى أن هذا هو الذى جعل لهذه القصص قيمة خاصة فى نظر طلاب مصر فى العصور الوسطى . لأنها تجعلنا نصل الى حياة الشعب من خلال صفحاتها بصورة واضحة . كما كان القصاص يقصون الحكايات والسير على العامة .

ومن القصص المشهورة قصتا عنترة والظاهر بيبرس وتعتبران من القصص الشعبية التى أعجب بها الناس كثيرا ، وتعدان الى الآن سلوى الجماهير فى بعض مقاهى الشرق الاسلامى .. وعرف قصاصو سيرة الظاهر بيبرس باسم الظاهرية نسبة الى صاحبها ، كما عرف غيرهم بما كانوا يحكونه من قصص وملاحم كالهلالية والزناتية وهكذا .

وقصة الظاهر بيبرس قصة طويلة ، تمتاز بخيال خصب ، ووقائع طريفة فضلا عن أنها تصور حياة المجتمع المصرى تصويرا دقيقا . وكانت هناك قصص أخرى ، تروى بالمقاهى مثل قصة سيف بن ذى يزن ، والف ليلة وليلة وغيرهما كما سبقت الاشارة .

والحق أن لغة القصاص السهلة كانت تستهوى العامة أكثر من أسلوب العلماء الجامد فى كثير من الأحيان ، خاصة أن مجالس القصص كانت تعتمد على رواية القصص والأساطير التى ترضى

ميول الحاضرين ، كما كان لهؤلاء القصـــــاص مقدرة كبيرة على ارتجال الحكايات المطولة ، حكى بعضهم : أنه رأى درة(١٨) تقرأ سورة « يس » وقال آخر وكان غراب يقرأ سورة « السجدة » فاذا جاء عند آية السجدة ، سجد ويقول سجد لك سوادى واطمأن بك فؤادى .

وخلاصة القول أن تلك المجالس كان لها دور واســـــع فى الترفيه عن الناس وان كان أثرها محدودا بالنســـبة لغيرها من المجالس ، بالاضافة الى ضــــحالة موضــــوعاتها ، وثقافة أغلب القصاص المتواضعة أو القاصرة فى كثير من الأحيان ورغم ذلك فقد كانت وسيلة لكثير من الناس للاستمتاع بها وما يســــتمعون فيها .

هوامش الفصـــل الأول

(١)) هو محمد بن محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى الحنفى وكان اماما عالما فاضلا (ت ٨٧٩ هـ) .

(٢) ومما قاله :

يا عـين من اعيـان الزمـان ويا محيى بمصـر سـنة الشـرع

ما قرع البـاب عليـك امـرؤ الا وذاق حـلاوة الفـرع

(٣) حيث يقول :

« حضر فى مجلس قاضى القضاة ابن عين الدولة مع شيخه وجلس فى أواخر الناس » فقال له القاضى : اطلع ياقيم ، ورفعه فى المجلس واتفق من الحكايات أنه وجد كراسة فيها نكتة خلافية ، وكان يوم النيروز والطلبة يلعبون ، فأغلق بابه واشتغل بتلك الكراسة حتى أتقنها ، وبعد ايام ثلاثل حضر شـخص ومعه مراسيم ، وتجمع له الفقهاء يناظرهم ، فحضر الوالى والقاضى والشيخ والطلبة فاستفتح ذلك الشخص وتكلم فى تلك المسألة فقام الشيخ بهاد الدين وقبل يد شيخه وقال : أنا اناظره ، فاستفتح وأعاد المسألة والأجوبة الى آخرها ولم يتوقف ، الا أن ذلك المناظر قال له فى أثناء الكلام : يافقيه لله تعالى حكمان متوقف ، فقال شيخه ، أتم الكلام ، نعم لله حكمان : حكم عدل وحكم فضل ، وكمل المناظرة وقام فرفعه العوام » .

(انظر الطالع السعيد ، ترجمة هبة الله بن عبد الله بهاء الدين القفطى (ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م).

(٤) عقد هذا المجلس فى شوال سنة ٩١٩ هـ فى عهد السلطان الغورى ، فلما تكامل المجلس بدأ السلطان يتكلم مع العلماء وينكر عليهم اقرارهم للزانى بالرجوع وهو معترف ، فقال أحد العلماء وهو ابن ابى الشريف ، شرع الله هذا

وأرواه النقل فى هذه المسألة ، فلم يلتفت السلطان الى التعول فى ذلك وقال : أنا ولى الأمر ولى النظر العام فى ذلك . فقال له ابن أبى الشـــــريف : نعم ولكن بموافقة الشرع الشريف وان فعلتهما تلزمك وتتبين ثمنهما ، فحقق منه وكاد أن سطش به فى المجلس ثم السب الى آخر وسأله عن رأيه فقال : له الرجوع بعد الاعتراف فقال له السلطان هذا يكون فى ذمتك فقال « ايش كنت أنا هذا فى ذمة الامام الشافعى صاحب المذهب « مانهمه السلطان بقوله : « أنت جهلت ما بقى لك عقل » ثم التفت الى القضاة ووبخهم وقال : « إنتم الأربعة قوموا لا تروني وجوهكم قط » فقاموا من ذلك المجلس وهم يتعثرون فى أذيالهم ، وكان لهم يوم مهول ، فانفصل المجلس مانحا وحصل فيه كل سوء من مقت السلطان لهم » ثم انفض المجلس من غير طائل وحصل للعلماء فى ذلك المجلس غاية البهدلة » .

(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهرر ، ج ٤ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤) .

(٥) الحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبيه ، القاهرة ١٩٨٢ ، ج ٢ ص ١١٠ وعقد هذا المجلس فى ١٢ رجب سنة ٧٢٠ هـ وتوفى ابن تيمية سنة ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧ م .

(٦) ومما قيل شعرا فى هذا المعنى :

اذا كان انســـى فى التزامى خلونى وقلبى عن كل الـــبرية خــــال

فما ضــــرنى من كان لى الدهر قاليا ولا ســــرنى من كان فى مـــوال

(٧) عن تفاصيل هذا المجلس ، انظر ، ابن حجر ، انباء الغمر بانباء العمر تحقيق حسن حبشى القاهرة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م ، ج ٣ ، ص ٥٧ وما بعدها .

(٨) وقد نشر معظم هذا الكتاب ضمن « مجالس الســــلطان الغورى ، صفحات من تاريخ مصر فى القرن العاشر الهجرى » بمعرفة عبد الوهاب عزام ، ونشرته لجنة التاليف والنشر سنة ١٣٦٠ هـ/١٩٤١ م .

(٩) نشر هذا الكتاب أيضا ضمن « مجالس الســـلطان الغورى ، بمعرفة عبد الوهاب عزام السابق الاشارة اليه .

(١٠) هو محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر صلاح الدين المؤرخ الكتبى الدارانى ثم الدمشقى (انظر ترجمته فى الدرر الكامنة ، طبعة بيروت ، ج ٣ ، ص ٤٥١) .

(١١) هو قاضى القضاة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر بن أحمد بن على بن اسماعيل المعروف بابن الرسام ، ولى قضاء حماة ثم قضاء حلب وقدم الشام والقاهرة مرارا .

(١٢) يقصد بالمواعيد ، مجالس الوعظ والذكر تعقد فى مواعيد معينة من كل أسبوع (انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، القاهرة ١٩٥٦ ، جـ ١ ص ١٠٣ ، حاشية ٢) .

(١٣) وقيل أيضا أن يكون عالما بالعلوم الشرعية والأدب ، حافظا للكتاب العزيز ولاحاديث النبى (صلى الله عليه وسلم) وأخبار الصالحين ، وحكايات المتقدمين ، ويمتحن بمسائل يسأل عنها من هذه الفنون فان أجاب والا منع ، كما اختبر الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه الحسن البصرى رحمه الله وهو يتكلم على الناس فقال له : « ما عماد الدين ؟ فقال : الورع ، قال : فما آفته ؟ قال : الطمع ، قال : تكلم الآن ان شئت . فمن توفرت فيه تلك الشروط مكن من الجلوس على المنبر فى الجوامع والمساجد فى أى يوم أحب ، ومن كان جاهلا بذلك منع من الكلام فان لم يمنع وداوم على كلامه عذر .

(انظر ابن الاخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٧٣) .

(١٤) وقيل : « كان العصر الأول لا يصعد المنبر الا أحد رجلين ، خطيب فى جامع يوم الجمعة أو يوم العيد ، أو رجل عظيم الشأن يصعد المنبر يعظ الناس ويذكرهم بالآخرة » .

(انظر نفس المصدر ، ص ٢٧١) .

(١٥) وتشير المصادر كذلك أنه يجب منع النساء من حضور المساجد للصلاة ، وكذا مجالس الوعظ خوفا من الفتنة بهن ، فقد نعتهن عائشة رضى الله عنها قيل لها : ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما منعهن من الجماعات ، فقالت : لو علم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما أحدث النساء بعده لمنعهن .

(انظر ابن الاخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ٢٧٢) .

(١٦) وقد مدحه الشهاب المنصورى بقوله :

محيا على باى بن برقوق مشـــرق	كبـــدر سنى ليس بينهمـــا فـــرق
فان يك سباقا الى الفضـــل والندا	فلا تعجبـــوا منه فوالده برقـــوق

(١٧) وقد عرف عند العرب من القصص نوعان : قصص للعامة ، وقصص للخاصة فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية أمرا معترفا به ، اذ ولى رجلا على القصص للترويج لحزبه والدعوة له ، وقد أصبح عملا رسميا بعـــد الى رجال رسميين ينالون عليه أجرا .

(انظر ، محمد كمال الدين ، العرب والمسرح ، العدد ٢٩٣ من كتاب الهلال ص ٨٦) .

(١٨) قيل الدرة هى الببغاء وتطلق خاصة على الصغار منها (انظر ، الادفوى الطالع السعيد ، ص : ٦٢ / حاشية ٣) .



الفصل الثاني

مجالس الأدب والشعر

يكفى غاية للأدب أن ينمى موهبة الذوق وحاسة الجمال وأن يربى الشخصية القومية ويبصر بها فتضع بصماتها بعد هذا على سائر مايصدر عنها من وجوه النشاط فى المجالات الأخرى ·

والأدب بأشكاله المختلفة بالنسبة للفنون الأخرى يعتبر ركيزتها الثقافية ويمدها بأسباب التأثير والوان التعبير ·

ولاريب أن الأدب يكون دائما مرآة أى شعب فى كل عصر من العصور يلقى ضوءا ساطعا على أحوالهم العامة ، بل حياتهم اليومية ، ويجلى كثيرا من علاقة الحاكم بالمحكوم ·

هذا وقد تلهب الأزمات وقهر الحكام قريحة الأدباء والشعراء فيفسح بذلك مجالا كبيرا لأنواع كثيرة من الأدب · فكما ذكرنا فان الأدب الصادق هو الذى يكون مرآة صادقة لعصره ·

وفي عصر المماليك كان الأمراء والكبراء وذوو الجاه يرون تقريب العلماء والأدباء والشعراء حلية من حلى العراقة والفضل ، ومظهرا من مظاهر الشرف والنبل فكانوا يفسحون لهم فى جانبهم ويبذلون لهم من جاههم ، وكانت منازلهم وقصورهم موئلا لأولئك العلماء والأدباء والشعراء ، يجتمعون فيها كل ليلة أو كل أسبوع فيتباحثون ويتحاورون ويسمرون ويضحكون ، ويذهبون فى فنون القول مذاهب شتى ، فتلك حقيقة علمية خافية أو طرفة أدبية شاردة ، وتلك فكاهة حلوة ممتعة تروى وتحفظ ، فكانت هذه المجالس هى مجالس التفكير العلمى والأدبى ، والتدبير السياسى والاجتماعى ،

تلقى فيها الفكرة ويمحص الرأى ، وتتلاقح الافكار ، والخواطر فتاتى بالمعجب والمطرب •

وشجع سلاطين المماليك مجالس العلم والأدب حتى أصبح عصرهم زاهرا بالعلماء والأدباء ، فازدان بكثير من افذاذ الكتاب الذين ضربوا فى الأدب بسهم واتصل كثير منهم بديوان الانشاء فكانت لهم اليد العليا فى تحرير التفاويض والعهود(١) •

ومن أجناس الأدب فى هذا العصر النثر الفنى والنظم ، وقد تجلى الأول فى الرسائل الصادرة عن ديوان الانشاء باسم السلطان وترسل الى حلفائه من الملوك والأمراء ، والى الولاة والعمال فى الأقاليم ، وكان يعنى بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية •

وأبرز من برع فى هذا الفن هو الأديب ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) الذى امتازت رسائله بأسلوب جذاب ، فقربه السلطان الظاهر بيبرس وعينه كاتبا للسر بديوان الانشاء ، كما كان يختاره للقيام ببعض المهام الخطيرة •

وقد أولى المماليك ـ بصفتهم مسلمين ، وبرغم انهم لم يكونوا عربيا ـ اللغة العربية عناية كبيرة لأنها لغة الاسلام ، واذا لم يكن اهتمامهم ـ وهم الطبقة الحاكمة ـ بالأدب الخالص من نثر وشعر يصرفه أصحابه فى مدح أهل الدولة ، فان اهتمامهم باللغة العربية على انها لغة السياسة والادارة والعلم كان عظيما •

ولاريب فى أن فى عصر المماليك كله كان عصر الموسعات فى العلم والأدب والمعارف الانسانية •

ولعل من أبرز الخصائص الأدبية العامة فى عصر المماليك وضوح الاتجاه الدينى من الزهد والتصوف والبديعيات ، وهى

القصائد الطويلة فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف ٠

والى جانب هذا كله كان ثمة مظاهر من اللهو والمجون والفسق والنظم فى الخمر والحشيشة ، كما كثرت فى النثر والشعر المراسلات الاخوانية والمعارضات والمناقضات والألغاز والأحاجى والمحاورات والمطارحات ويقصد بها المناظرات والاطناب فى ألقاب المديح والاطالة فى الرسائل والقصائد مع بروز عنصر الوصف بروزا واضحا الى جانب أغراض تقليدية كثيرة للشعر سوف نعرض لها فى حينها ٠

وأما من الناحية اللفظية فان الاسلوب قد ضعف وأصبح التركيب ركيكا فى بعض الأحيان ودخلت عليه ألفاظ وتعابير عامية أو قريبة منها ، وتبع ذلك أوجه البلاغة وكان أكثر ماتعاطاه الأدباء فى ذلك نثرا ونظما هو وجوه التورية ٠

وتذكر المصادر ان نظم الشعر أيام المماليك كان من مستلزمات الأدباء والمتأدبين ودليلا على مبلغ ثقافتهم وتأدبهم حتى يقول واحد منهم عن نفسه : « وأما شعرى وان كان ركيكا فان له فى ضعفه شريكا » ويضيف أن شعره لايخلو من فائدة وموعظة ٠ وذكر بعضهم رأيه فى الشعر نظما(٢) ٠

وازدحمت مجالس الأدب فى العصر المملوكى ــ كما أشرنا ــ بكثير من المناظرات أو الموازنات القائمة على الحوار بين أمرين يحاول كل أمر أن يفضل نفسه على نظيره أو مفاخره ، ولعل من أشهر هذه المفاخرات : مفاخرة السيف والقلم ، ومفاخرة الورد والنرجس(٣) ، وأصبحت تلك المناظرات فى هذا العصر فنا متميزا اذ اتسع نطاقه وكثرت أغراضه وشاع عند الأدباء ٠

وكثيرا ما كان الشعر يرتجل حسب المواقف التى تعن للجالسين من الشعراء دون اعداد ، وانما يحاول كل منهم التعبير شعرا عما يراه فيحكى أن علاء الدين بن بنت الأعز أقام مأدبة دعا اليها بعض العلماء والأدباء ، منهم القاضى فخر الدين بن صدر الدين الماردانى ، وبينما هم مجتمعون رأوا شابا حسنا يسبح فيتلطخ بالتراب ، فطلب صاحب المأدبة أن ينظم بعض الحضور فى هذا الشاب شيئا ، فقام ثلاثة منهم الى ناحية وانفرد فكان الذى نظموه فى ذلك جيدا(٤) ٠

واستحسن الحاضرون قول ابن بنت الاعز ، فهو أحسن المقاطيع وأما مقاطيع فخر الدين ففى ثانيها فساد للمعنى ، لان الليل ما يطل على الصباح وانما الليل يطل على النهار ، والصباح يطل على الليل ، وان كان هذا الاعتراض لم يعجب بعضهم .

وهكذا نرى ان ذلك النظم ـ رغم اختلاف الناظمين ـ قريب الاتفاق ولم يطلع أحد منهم على ما نظم صاحبه الى ان اتم كل منهم ما نظمه ٠

وفى احدى مناظرات صدر الدين بن الوكيل المعروف بابن الخطيب والذى كان مناظرا مستحضرا ، لايقوم بمناظرة ابن تيمية أحد سواه ، تناظر يوما ، ولما حميت المناظرة استشهد ابن تيمية ببعض الحاضرين فأنكر مناظره عليه ذلك شعرا(٥) ٠

وحدث أن دس أعداء الصدر الى السلطان الناصر قصيدة ذكروا أنه هجاه بها ، فأحس الشر وهرب الى غزة « وعندما دخل على الناصر فقال له بكتمر الحاجب بس الأرض فامتنع وقال : مثلى لايبوس الأرض الا لله » ولما عاتبه السلطان على ما بلغه من خبر القصيدة أخبره ان أعداءه وحساده نظموا ما أرادوا على لسانه ، وأخرج قصيدة على وزن تلك القصيدة المنسوبة اليه فى مائتى بيت وأنشدها على السلطان فصفح عنه وعظم عنده ٠

وعرف كثير من الأدباء بطول النفس فى المناظرة ، وبالذهن الثاقب والذكاء المفرط ومنهم من وصف بالظرف حتى سمى «الروضة» لفرط ظرفه . كما عرف منهم الكثيرون بحب المطارحة والميـــل الى الدعابة والتظاهر بالهزل فينظمون بشكل تلقائى ما يعبرون به عن موقف عن لهم فى حياتهم اليومية ، ولم يسلم العلماء أنفسهم من مداعبة الشعراء والأدباء فقال أحدهم دعابة لطيفة فى الشيخ زين الدين عبد الباسط بن الغرس خليل بن شاهين وهو من العلمـــاء الفضلاء (ت ٩٢٠ هـ/١٥١٤م) بسبب أن كان له أنف كبير(٦) .

ويدل ذلك على كثرة الفكاهة فى الشعر ، فى ذلك العصر ، كثرة ظاهرة ، كما نرى فى شـعر أبى الحســين الجزار (ت ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠ م) وشعر سراج الدين الوراق (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٦م) وكذا شعر نصير بن أحمد بن على المناوى المصرى (ت ٧٠٨هـ/١٣٠٩م) الذى تعاطى نظـم الشـــعر مع عاميتـه ، وكان يرتـزق بضـــمان الحمامات(٧) .

وكان بينه وبين السراج الوراق وابن النقيب (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨ م) وابن دانيال وغيرهم من المصريين مداعبات كثيرة(٨) .

ومرة أصيب السراج برمد فى عينيه فأهدى الجزار اليه تفاحا وكمثرى وكتب مع ذلك بيتين من الشعر(٩) .

ومن المداعبات اللطيفة ايضا ما حدث عندما وقعت وحشة بين الشــهاب احمد بن الشــيخ على المقرى ، وعلى بـاى الذى سـماه الأول « زلابية » مضافا الى اسم شخص من الاتراك كان مضحكا يعبث عليه الناس وينادونه زلابية فيرجمهم فلما شاع ذلك بين الناس أخذ بعض الشعراء هذا وقال مداعبة شعرية لطيفة(١٠) .

وكثرت فى ذلك العصر النوادر المضحكة التى تنم عن ذهن صاف وميل لنيل السرور واشاعته بين الناس ، بحيث يمكن القول ان ما انتشر من نوادر فى ذلك العصر كان على نمط مايحكى عن جحا ، ويحكى عن أحمد بن محمد ابن عثمان صفى الدين بن القاضى شمس الدين بن الحريرى (ت ٧٥٧هـ/١٣٥٦م) انه كان كثير التندر وكان من نوادره انه «قال : لغلامه يوما وقد عثرت بغلته لاتعلق عليها ثلاثة أيام عقوبة لها ، فجاء اليه فى آخر النهار ، فقال اذا لم نعلق علبها تحمر فقال : علق عليها ولا تقل لها انى أذنت »(١١) .

وكان طبيعيا أن أصحاب تلك الطرائف والنوادر كانوا على جانب كبير من خفة الروح وسرعة البديهة ، مما يحدث تجاوبا كبيرا بينهم وبين سامعيهم . وهم فى الغالب يكونون من بين الأدباء والشعراء الذين لديهم استعداد فطرى لذلك(١٢) .

والواقع أن كتب التاريخ والأدب التى تتناول عصر سلاطين المماليك تذخر بالكثير الوافر من تلك النوادر والمداعبات التى سادت ذلك العصر والتى لا يتسع المجال هنا للاحاطة بها ، وانما اكتفى ببعض الأمثلة للدليل على انتشار الفكاهة فى الأدب نثرا وشعرا .

وانتشرت الفنون الشعرية المختلفة فى العصر المملوكى شأنه فى ذلك شأن كثير من العصور الاسلامية السابقة ، وان كان أكثر تلك الفنون انتشارا ورواجا هو الموشح والدوبيت والمواليا والزجل ، بالاضافة الى وجود غيرها من الفنون الشعرية الأخرى(١٣) .

وكما تنوعت فنون الشعر ، تنوعت أيضا أغراضه وموضوعاته فى عصر المماليك بحيث يصعب حصرها فى تلك الحقبة بالاضافة الي تلك الاغراض التقليدية من وصف ومدح وهجاء ورثاء

وغيرها · ومن الشعراء من كانوا يقترحون عليه الأشعار فى المهمات فيأتى بها على أحسن وجه · فقد نظم شعراء العصر المملوكى الشعر فى مناسبات لاحصر لها ـ وما اكثر مناسباتهم ـ بل كانوا يقرضون الشعر فى مواقف أخرى عديدة ، نعرض لها عند الحديث عن فنون الشعر التى كان أبرزها فى ذلك العصر :

الموشـــحات :

كان الموشح فى بادىء الأمر من القول الفصيح قريبا من نظم الشعر ، غير أنه تطور بعد ذلك حتى صارت العامية فى خرجاتـه تكاد تكون ضرورية فيه ، وقد أكثر شعراء العصر المملوكى من نظم الموشحات ولكن بلا اجادة ، كما أكثر الناثرون من وضع المقامات بلا براعة ·

ورغم أن الموشح كان موطنه الأول فى الاندلس فان المشـارقة « قد برعوا فيه » وأشهرهم فى العصر المملوكى ، الصلاح الصفدى الذى عارض موشحة ابن زهر (ت ٧٥٧هـ/١٣٥٦م)(١٤) ·

وبرع كذلك فى فن الموشح صدر الدين بن الوكيل (ت ٧١٦هـ/ ١٣١٦م) وقد جمع ابن الوكيل موشحاته وسماها « طراز الدار » وأشار بذلك الى ديوان ابن سناء الملك (ت ٦٠٨هـ/١٢١٢م) فى الموشحات فانه كان يسميها « دار الطراز » فقلبه ابن الوكيل ، كذلك فــان من أصــحاب دواوين الموشحات فى العصر المملوكى الأديب الشاعر عمر بن مسعود بن عمر سراج الدين (ت ٧١١ هـ/١٣١٢م) ومن الموشـحين أيضــا عيسى بن محمد بن محمد بن قراجا بــن سليمان بن مارق الســهروردى الواعظ شرف الدين أبو الرضى (ت ٧٢٩ هـ/١٣٢٩م)(١٥) ·

وقد تعددت أغراض الموشحات ، فتناولت كثيرا من جوانب حياة الناس فى العصر المملوكى ، وان مال أكثرها الى وصف مجالس الشراب والخمر والفتك وملذات الحياة(١٦) ٠

وواضح من ذلك ان الموشح يميل الى اللغة العامية ، ولعل هذا هو ماجعل الموشحات أكثر استهواء للناس ، لانها اقرب الى أذهانهم من نظم الشعر فلقيت اقبالا منهم وتفنن فيها الشعراء ٠

ولدينا موشحة طويلة من نظم الأديب الشاعر شهاب الدين أبو العباس العزازى التاجر بقيسارية جهاركس بالقاهرة(١٧) ٠ (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م) وكان له نظم فائق ولاسيما نظمه للموشحات وقد كتبها يعارض أحمد بن حسن الموصلى(١٨) ٠ وهى طويلة وكما نرى فانها تدعو الى اغتنام الملذات وتدعو الى الانهماك فى الشراب ، فتذكر الكئوس والعاملين على تقديمها ، وتشير الى أنواع من الشراب كالراح ، وتصفه بأنه حياة النفوس ، وان دل ذلك على شيء فانما يدل على ماكان سائدا فى ذلك العصر من اللهو والمجون حتى يدعو اليه الشعراء والأدباء دعوة صريحة دون مواربة ٠

الدوبيت(١٩) :

وشاع من أدب ذلك العصر ضرب آخر من ضروب الموشحات يصاغ فى بيتين على وزن «الدوبيت» الذى اشتهر عند الفرس ، وقد انتشر الدوبيت بين شعراء العصر المملوكى(٢٠) ٠ ومن أشهر من برع فى مجال الدوبيت الشاعر الزجال ابن سودون(٢١،٢٢) .

وله فى هذا المجال وصف خيالى يمثل حرمان الشاعر ومايعانيه من الفقر والعوز فهو لم يأت بهذه المشبهات من الرغيف والبيض

والجبن عبثا ولا قالها عفوا ، ولاشك ان هذا الاتجاه يصور لنـــا احوال المجتمع المصرى وماتعرض له كثيرا من معاناة فى عصـــر المماليك(٢٣) ٠

المواليا (الموال)

وهو ضرب آخر من الموشحات الا أنه أردأ أصـــنافه وهو لايلتزم فيه بشىء ، يسوده الجناس اللفظى ، قيل ان أول من قاله جوارى البرامكة ، وقيل انه جرى على ألسنة الاماء والعبيد فى ندب مواليهم والبكاء عليهم ٠ ويعتقد أن اسمه جاء من ان احدى الجوارى كانت تقول واموالياه فاشتق من ذلك ، ولكن يقول الأدباء ان الأقرب الى الصحيح أنه سمى بالموال لموالاة اشطره فى قوافيه وجناسه اللفظى ٠

وقد قيل الموال فى عصر المماليك فى أغراض متعددة فمنهـا ماقيل فى مدح الأمراء ، ففى عهد السلطان برقوق أظهر الأمير يلبغا الناصرى سيف الدين عصيانه للسلطان ـ الذى كان قد أمر بعزله ـ وحاصر القلعة وكان النائب بها ناصر الدين المهمندار الى أن أخذها بسهولة فحينئذ مدحه البهاء خضر بن سحلول فى مواليا(٢٤) ٠

وأحيانا كان الموال يتناول ذكر عدد من السلاطين المماليك مرتبا منذ قيام الدولة على غير توال مثال ذلك ماقاله جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن الأمير الكبير سيف الدين تغـرى بـــردى (ت ٨٧٤هـ/م)(٢٥) ٠

ولدينا مثل ذلك مما اورده ابن اياس وهو يتضمن ملوك الترك والجراكسة دون اسماء أولادهم على الترتيب واستمر حتى اوائل الدولة العثمانية حيث أشاد بسلاطينها الأوائل(٢٦) ٠ كمـــا أورد

المؤرخ ابن اياس موالبا من نظمه فى السلطان الغورى عندما خرج فى موكب حافل بعد أن عوفى من مرض فى عينيه ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٩١٩هـ(٢٧) ٠

ولدينا أيضا بعض المواليا لعز الدين بن السويدى (ت ٦٩٠هـ /١٣٩١م) يمدح فيها شخصا ويذكر محاسنه(٨) ٢٠

ويعتبر ابن سودون اشهر من قالوا المواليا فى اغـــراض متعددة ، اختلفت عن اغراض المواليا الأولى ، فقد ضمنت مواليه أغراضا هزلية نكشف لنا عن ظروفه القاسية ومعاناته الشخصية ، وبطبيعة الحال هو واحد من الشعب فهو يوضح لنا شريحة من المجتمع المصرى فى ذلك العصر(٢٩) ٠

ونرى ابن سودون فى هذا الهزل يعتمد على فن المفارقة وسرد البديهات على شاكلة أدعياء المعرفة سردا يلغى فيه المنطق المستقيم الغاء ويشبه البعض بأنه هو « جحا » مصر فى عصره ، فهو يدفع الناس بهزله دفعا الى الضحك كأنه مهرج من مهرجى التمثيـــــل الهزلى(٣٠) ٠

وهكذا ابتدع ابن سودون أغراضا جديدة للمواليا فقصد الى السخرية والاستهزاء من خلالها ، وانتقل بها من الغرض الخـــاص الى الغرض العام ، اذ عبر فى كثير من الأحيان عن حياة مجتمعه وما فيها من شكايات ورغبة فى التنفيس عن مآسيه ٠

وخلاصة القول فان هذا الضرب من ضروب الأدب وهـــو المواليا قد حقق أهدافه فى التخفيف من معاناة الناس فى العصر المملوكى ، فكان وسيلة من وسائل الترفيه عن فئــــات كثيرة من الشعب وجدت فيه متنفسا لها يعبر عن رغباتهم ويرفع شكواهم

بلغة عامية سهلة بعيدة عن فصاحة الشعر وتكلف الشراء حتى كان الناس يحفظونها شفاهة كما نرى البعض من الظرفاء يفعلون ذلك فى عصرنا ٠

والحق ان ابن سودون كان مبدعا فى مجال المواليا وان كان عرف أكثر ما عرف بأنه من أشهر الزجالين فى العصر المملوكى والزجل لون من فنون الكلام نعرض له فيما يأتى :

الزجــــل :

ويقصد به رفع الصوت والجلبة فيه ، وخص به التطريب ، وهو ضرب من الموشحات أقصر نظما وأردأ لفظا ، اذ يجنح به نحو العامية لزوما ، قيل انه نشأ بالاندلس فى أول القرن الســــادس للهجرة ثم انتقل الى المشرق وانتشر بين العامة ، اذ رأوا فيــه مايغنيهم فى التعبير عن احساساتهم بلغتهم الخاصة ـ شأنه فى ذلك شأن المواليا ـ عن مشقة الأخذ بالأدب الفصيح وتكلف عناء الشعر ، وذلك ما ساعد على انتشار الزجل وجعله مادة أساسية للغناء حتى كادت القصائد والموشحات باللغة الفصــــحى تتوارى بازائه ٠

ويكاد ينفرد العصر المملوكى بكثرة الزجل والزجالين ، بحيث كان ينظم فى اغراض عدة واوزان يصعب حصرها ، حيث كانت تختلف باختلاف الفاظه وطريقة نظمها ، وقد اشتهر بالزجــــل من المصريين فى عصر الملك الناصر ، أبو عبد الله الغبارى ٠

وغالبا ماكان الشعراء يجمعون بين نظم الشعر والزجــل والبليق والاخير عبارة عن مقطوعات شعرية قصيرة كالزجــل ، حتى اشتهر كثير منهم بالشــاعر الزجــــال(٣١) ، ومن هــــؤلاء

عبد الكريم على السهروردى القوصى الأديب الشاعر الزجـــال ويحكى انه طلب جوزة هدية من أحد التجار فلم يرسلها له ، فكتب اليه زجلا بهذه المناسبة(٣٢) ٠

ومن ذلك يمكن التعرف على الجانب الترفيهـى للناس فى عصر المماليك ، حتى الأدباء والشعراء الذين كانت لهم مجالس أنس وتعاطى المكيفات وما يصحب ذلك من جلسات الســـمر والا فلماذا يطلب ذلك الأديب أن تهدى اليـه الجـوزة التى لايحلـــو استخدامها الا مع جماعة حتى فى عصرنا الحاضر ٠

وبرع كذلك من الشعراء الزجالين ، على بن مقاتـــل بن عبد الخالق الحموى التاجر الزجـــال (ت ٧٦١ هـ/١٣٦٠م) وتعاطى الأدب ونظم الشعر وغلب عليه نظم الازجال وجمع أزجاله فى ديوان فى مجلدين وانتهت اليه الرياسة فى هذا الفن وأنشد زجلا جيدا فى المؤيد صاحب حماة فى حضرة ابن نباتة والصفى الحلى ٠

وممن برع كذلك فى هذا المجال ابراهيم المعمـــار الشـــاعر (ت ٧٤٩ هـ/١٣٤٨م) وهو أديب ظريـف عرف بغـــلام النورى المصرى ، وقد برع فى الأزجال والبلاليق بحيث كان غاية لاتدرك وله ميل للمجون ، مما ينعكس على كثير من ازجاله التى تعف النفس والقلم عن ذكرها ٠

وتعددت أغراض الزجل وتنوعت ـ كما سبقت الاشارة ـ حتى أنه وجد من نظم فى الرثاء زجلا طويلا ، وحتى الرثاء لم يخل من الفكاهة وبث الضحك ، فمن أطرف الازجال التى وصلتنا عن عصر المماليك زجل رثى فيه بعض الزجالين الفيل « مرزوق » الذى أهداه تيمور لنك الى سلطان مصر(٣٣) ٠ وهو ما يوضـح تلك الـروح

الفكهة لأدب العصر وكان من الزجل ماقيل فى وصف خروج السلطان الأشرف قايتباى الى الشام ثم عودته بعد غيبة دامت نحو أربعة أشهر(٣٤) من سنة ٨٨٢هـ/١٤٨٧م لتأمين أحوال البلاد هناك فقال الشيخ بدر الدين محمد بن الزيتونى قطعة زجلية اعتبرت من محاسن هذا الفن ، كلها غرر وجناس تام ، وهى طويلة جدا تدور كلها حول مدح السلطان قايتباى وذكر مناقبه ووصف ما ألم به من مرض أثناء تلك السفرة ، وأشاد بما حققه فيها من انجازات ٠

ولابن الزيتونى مرثية فى السلطان قايتباى وفيها يعتذر لسامعيه من أصدقائه وأقربائه الذين يغشون مجالسه ويطلبون منه أن ينظم الزجل وهو لا يستطيع أن يتأبى عليهم خوفا من أن يرموه بالعجز ، وهو يستحى أن يظهر الضعيف من نظمه وينسب جماله للقبه زيتونى ، ثم يطلب ممن يجد فيما يقول عيبا أن يستر ذلك العيب ويكسب ثواب ستره ، ملتمسا لنفسه العذر بأن العصمة لله تعالى(٣٥) ٠ ويبدو أن هذا الأديب الزجال كانت تسيطر عليه تلك الفكرة دائما وهى الاعتذار لسامعيه وتجاوزهم عن زلاته فى النظم فيقول فى قطعة زجلية أخرى مايفيد نفس المعنى(٣٦) ٠

وله مرثية زجلية كان يرثى بها أهل مصر عندما وقع فيها الطاعون سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ، وانتاجه من الزجل وفير ، لامجال للاستطراد معه ولكن أهمية زجله فى الغالب ترجع الى مايتضمنه من تصوير لحياة الناس فى عصر المماليك وتتبع سفرات السلاطين والأمراء وماكان يصدر عنهم من اجراءات تجاه الرعية فقد تناول بعض الأدباء تلك الاجراءات وتحدثوا عنها شعرا أو زجلا ٠

فمنهم من ذكر ماتم من توسيع الطرق الضيقة وكشف أبواب المساجد والمدارس وكذا الأمر باصلاح الأبواب ودهانها ، وفى ذلك

أيضا اشارة الى ان الناس كانوا يمتثلون لتلك الأوامر فلا يعصيها أحد ومنهم من أشار الى تزيين المدن والأسواق فى المناسبات - وهى كثيرة - واقامة الأسمطة ودق الكوسات عند دخول مواكب السلاطين .

وقبل أن نفرغ من الحديث عن الزجل كلون من ألوان الترفيه الأدبى فى عصر سلاطين المماليك لايفوتنا أن نسجل أن زجالى هذا العصر - كغيرهم من زجالى العصور السابقة - كانت لديهم روح فكهة خفيفة ، كما كانت لديهم لفتات ذهنية بديعة تجلت فى انتاجهم الذى انتشر فى ذلك العصر وقد عرضنا بعض الامثلة منها فيما سبق .

ونشير فى هذا المقام الى شخصيتين من أكبر زجالى العصر ، كان الزجل الفكاهى والهزلى قاسما مشتركا بينهما ، كما أن كليهما نجح فى رسم صورة واضحة لظروف عصره من خلال انتاجه الأدبى الذى حاز اعجاب الجمهور واستهوى أفئدة الناس وأولهما هو الشاعر الزجال ابن دانيال ، الذى صور فى مسرحيته « طيف الخيال » الحياة الاجتماعية والثقافية بمصر فى عصره تصويرا هزليا ساخرا وسوف نعرض لذلك بالتفصيل فيما بعد .

أما الثانى فهو ابن سودون الذى عرف أنه أكثر الشعراء الزجلين الذين غلب عليهم الزجل حتى ينسبه كثيرون اليه لا الى الشعر ، خاصة الزجل الهزلى الساخر الذى طبعت نفس ابن سودون عليه ، وله فيه باع طويل يكاد لايدانيه فيه أحد وله ديوان باسم « نزهة النفوس ومضحك العبوس » وقد تنافس الظرفاء فى الحصول على شعره الذى يذهب جميعه مذهب الضحك والفكاهة .

وعنى بجمع هذا الشعر فى ديوانه ، بل أضاف اليه طائفة من الحكايات الفكهة . والحق ان ابن سودون شخصية طريفة فى

تاريخ الأدب المصرى الشعبى ، لأنه يفصح عن مزاج المصريين فى هذا الجانب الفكاهى الذى اشتهرت بـه مصـر فى عصـورها المختلفة ٠

والواقع ان الشعر بصفة عامة كان بضاعة رائجة فى عصر سلاطين المماليك كان له أربابه الذين عج بهم ذلك العصر على اختلاف مستوياتهم الثقافية والعلمية وكان الناس يستحسنون من الشعر الحسن ويستهجنون منه ماكان غير ذلك بمقاييس عصرهم مدركين الغث من السمين ، مقدرين لكل شاعر منزلته واجتهاده فكانوا يفاضلون بين شاعر وآخر ويضعون الشاعر فى المرتبة التى يستحقها ٠

حقا لقد كانت مجالس الشعراء واجتماعاتهم ومناظراتهم ـ التى كانت تتم فى اطار مجالس أدبية عامة أو خاصة ـ تقدح أفكارهم وتشحذ هممهم نحو الاجادة مستلهمين من تشجيع الحكام المماليك وجمهور المشجعين دافعا لهم وحافزا ٠

وكما سبقت الاشارة فان شعراء العصر المملوكى قد نظموا الشعر فى أغراض تقليدية عديدة فشملت الوصف والمديح والهجاء والرثاء وغيرها وفى ظل هذا المفهوم للشعر وذلك الاطار لم يكن الشاعر يشكل الصورة وفق مايوافق هواه ، لأن ذلك يحتاج الى رؤية مغايرة ، وانما كان ينقل عناصرها ويقيسها على الصور السابقة ويقارن بها ، فليس للشاعر ـ بعد ذلك ـ فضل السبق والابتكار ، وانما له فضل التحوير والاضافة ٠

ويمكن أن نضيف انه فى عصر سلاطين المماليك قد تعددت أغراض الشعر بفنونه بتعدد واختلاف المواقف فى الحياة اليومية للناس ، فغالبا ماكان الشاعر يرتجل الشعر أو الزجل حسب المواقف التى قد يجد نفسه أمامها مهما كان موضوعها ومادتها ٠

وقبل أن نعرض لبعض أغراض الشعر فى عصر المماليك فان من الطريف أن نوضح رأيا من آراء بعض الشعراء المجيدين فى الشعر ، فقد كان بعضهم يترفع عن هذا الفن - رغم حبهم له - ولم يرضوه بضاعة ، ولا اتخذوه صناعة ، بل دعاهم اليه - فى رأيهم - محبة الأدب وسجية العرب ويدل على ذلك قول عمر بن عيسى مجير الدين بن اللمطى وهو أمير شاعر (ت ٧٢١ هـ/١٣٢١ م)(٣٧) ٠

وجدير بالذكر أن المصادر التاريخية والأدبية تذخر بأمثلة كثيرة ونماذج متعددة من انتاج هؤلاء الشعراء فى العصر المملوكى متناولين أغراضا شتى مما أدى الى امكانية الاختيار وهذا فى نفس الوقت أمر ليس سهلا فكما نرى أن الوفرة أحيانا تستلزم حذرا وجهدا كالذى تتطلبه الندرة ٠

لاريب أن الوصف فى شعر العصر المملوكى كان من أهم أغراض ذلك الفن انتشارا ، فقد كان الشعراء يصفون معظم ماتقع عليه أعينهم عن طريق الارتجال فشمل الوصف أشياء كثيرة حتى التافه منها كان مجالا لشعرهم(٣٨) ٠

وعبر بعض الشعراء عما يتمنون ويشتهون الحصول عليه حتى قال أحدهم وهو أبو الحزم القوصى شعرا يرجو فيه مروحة(٣٩) ٠

ووصف الشيخ بدر الدين الزيتونى ميدانا ومايجرى فيه من أسباب اللهو والسرور وصفا جميلا دقيقا يصور لنا مكانا من أماكن الفرجة والاستمتاع(٤٠) ٠

وتشير المصادر الى عادة تفشت فى العصور الوسطى وهى أن البعض من الناس على اختلاف مراكزهم كانوا يهوون غلمانا

ومردانا يشغفون بهم ويهيمون ، وكان ذلك مجـــالا يخوض فيــه الشعراء بلطف ودعابة ، ولدينا الكثير من الأمثلة نذكر بعضا منها مع الاكتفاء بما كان عفيفا يقتصر على التلميح ، ونغض الطرف عن القول الصريح حياء · ومن ذلك ماقاله الحسن بن هبة الله الادفوى (ت ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠م) وهو أديب شاعر(٤١) ·

وقال عبد الملك بن العجمى الحلبى (ت ٦٧٤ هـ/١٢٧٦م) يصف مليحا كان فى عنقه شامة اســـمه العز حيث يتغزل فيـــه شعرا(٤٣) ·

ومن قول الناصر محمد بن قرقمـــاس الحنفى (ت ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م) فى وصف مليح من هواة ركوب الخيل يصفه كأنـــه ظبى(٤٣) ·

واستغل أحدهم وهو فخر الدين ابراهيم بن لقمان (ت ٦٩٣هـ /١٢٩٤م) اسم مليح يدعى غلمش فقال فيه شعرا وقد باح باسمه لأول مرة حيث يبدو أنه كان يهواه(٤٤) ·

وقد دأب بعض الشعراء على أن يتبادلوا النظم مطارحة فيما بينهم حتى ان البدر يوسف بن لولو (ت ٦٨٠ هـ/١٢٨٢م) وهو شاعر مشهور من شعراء الدولة الناصرية يكتب الى آخر كان يهوى غلاما اسمه جارح مستعملا التورية فيما يكتب(٤٥) ·

وكان لبعض الشعراء تصانيف عديدة فى هذا المجال منها « حسن الاقتراح فى وصف الملاح » ذكر فيه مؤلفــه ألــف مليــح وصفاتهم وقد تناول الوصف كذلك مجالات أخرى تتسم بالجد ، كما تناول جوانب أخرى من حياة الناس ، والافتخار بالوطن ومما قيل فى ذلك مانظمه زين الدين عمر بن الـــوردى (ت ٧٩ هـ/٧٨٨م)

وهو يصف حسن مصر ، وكان بذلك يعارض ماقاله ابن زريــق الكاتب فى بغداد(٤٦) ٠

واجمالا يمكن القول بأن شعراء العصر المملوكى قد وصفوا حياة الناس فى عصرهم حيث كانت الأعياد والمناسبات المختلفة وكذا انواع الرياضات المختلفة كالفروسية والعاب الكرة والسـباحة وغيرها من وسائل الترفيه فى عصرهم كالنرد والشطرنج وكـذا الصيد ٠ وأماكن اللهو والمتنزهات وأماكن القصف والشـراب والولائم والأسمطة وسوف يحين تناول ذلك فى مواضع قادمة من هذا البحث ٠

كما كانت المجاعات والأزمات والأوبئة التى اجتاحت البـلاد فى بعض الاحيان مجالا للشعراء عبروا عنها بأشعارهم وبازجالهم ٠

وبالاضافة للوصف فقد برز المديح كغرض من أغراض الشعر فى العصر المملوكى فأفردت له القصائد الطويلة واسترزق بعض الشعراء من وراء ذلك ونالـوا الأعطيـات والهبـات فى أغلب الأحيان ٠

ونشير هنا الى نوع من المديح تناولته اقلام الشعراء تمشيا مع تلك النزعة الدينية التى سادت فى عصر المماليك ونعنى بهـا المدائح النبوية وهى قصائد طويلة عرفت بالبديعيات التى تناولت مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) منها مابلغ ذروة البراعة فى شعر البوصيرى (ت ٦٩٥ هـ/١٢٩٦م) الذى عـاش فى عصـر السلطان الظاهر بيبرس ، وامتاز شعره بالرصانة والجزالة ويكثر فيه مراعاة البديع ، ومن شعره قصيدة البرأة أو البردة وهى من أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم(٤٧) ٠

وقد نقشت البردة على جدران مسجده بالاسكندرية ، وللبوصيرى قصيدة أخرى همزية فى مدح الرسول ، لاتقل عن البردة فى نصاعتها وجودتها(٤٨) وقد توافقت نفس البوصيرى وطبائعه مع ماكان ينظم من قصائد فى المدائح النبوية حتى انه عندما نصرف فى مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم ، وباشر بلبيس قصبة الشرقية لم ترق فى نظره هذه الوظيفة لما رآه من خيانة بعض العمال وسلب أموال الدولة فقال فيهم قصيدة مشهورة(٤٩) .

ومن الشعراء من نظم مدائحه على حروف المعجم مثل قصيدة نظمها محمد احمد بن عبد الرحمن الكندى الدشناوى(٥٠) .

وهناك شعراء غلبت على شعرهم المدائح النبوية ، حتى ان بعضهم نظم منها مايزيد على الألفى بيت ، ومنهم من أوصى أن تدفن معه مدائحه وحرص البعض على جمع تلك المدائح فى مجلدات، حتى وجد فى تركته سبعون مجلدا وقيل خمسة وتسعون .

والى جانب تلك المدائح النبوية انتشر ايضا الشعر الوجدانى الصوفى الذى كان ينظم ارتجالا . على أن السلاطين والأمراء أنفسهم كانوا محل اطراء ومديح من جانب الشعراء ، ولدينا الكثير من الأمثلة على ذلك نسوق منها بعض ماقيل فى السلطان الظاهر بيبرس عندما عبر الفرات وهزم التتار سنة ٦٧١ هـ(٥١) .

وكذلك حظى السلطان الغورى بمدح كثير من الشعراء — كغيرة من السلاطين — وان كان هو ايضا اكثر السلاطين هجوا وسوف نوضح ذلك فيما بعد ، ومما قيل مدحا فى هذا السلطان قصيدة طويلة كلها مدح واطراء للسلطان الغورى ، وهو صاحب مجالس الأدب ، حيث واظب عليها وحضرها العلماء والأدباء(٥٢) .

وكثيرا ماكان الشعراء يمدحون السلاطين والأمراء كلما انتهى أحدهم من عمارة مسجد أو مدرسة أو خانقاه ، فقد نظم الشعراء شعرا أشادوا فيه بذكر السلطان بيبرس فى حفل افتتاح المدرسة الظاهرية ، منهم الأديب أبو الحسين الجزار والسراج الوراق ، والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب(٥٣) ٠

وقيل فى مناسبة مماثلة فى عهد السلطان الظاهر برقوق عندما افتتح مدرسة بناها بين القصرين(٥٤) ٠

ونرى ابن اياس لايفوته ان يثنى على السلطان الغورى بعد فراغه من بناء مصطبة بالحوش ليجلس فوقها للمحاكمات(٥٥) ٠

وان كان كثيرا مالا يخلو شعر ابن اياس فى السلطان الغورى من هجاء او تندر ٠ وعندما سقطت احدى منارات مسجد السلطان حسن سنة ٧٦٢ هـ/١٣٦١م) واعتبر الناس ذلك نذيرا بزوال الدولة ، سارع الشيخ بهاء الدين أبو حامد بن على بن محمد السبكى (ت ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢م) ليجعل من ذلك بشير سعد للسلطان والدولة(٥٦) ٠

وفى رمضان من سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م) عندما احترق المسجد النبوى الشريف بفعل صاعقة الحقت به خسائر كبيرة قال بعضهم فى ذلك شعرا(٥٧) ٠

ويقابل المدح فى الشعر الهجاء ، فقد هجا كثير من شعراء العصر السلاطين والأمراء ، بل هجا الشعراء بعضهم بعضا فى كثير من الأحيان وكثيرا ماتعرض الشعراء لسخط السلاطين أو الأمراء نتيجة لما نالهم من هجاء ، حتى ان الشاعر جمال الدين

السلمونى قد دخل السجن عندما هجا قاضى القضاة عبد البر بـن الشحنة ثم أفرج عنه السلطان الغورى فى رمضان سنة ٩١٣ هـ / ١٥٠٨ م .

واشتهر كثير من الشعراء بالهجاء حتى أصبح أحدهم يلقب بالحطيئة لكثرة هجائه وأدبه السلطان لذلك ونفاه .

وقد ورد فى بعض الأخبار أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من عاقب على الهجاء ، وكان بعض الشعراء ينكرون الهجاء ويلومون أصحابه شعرا كما حدث للشاعر جمال الدين السلامونى عندما هجا القاضى معين الدين بن شمس وكيل بيت المـال(٥٨) .

وكان القاضى معين الدين قد شكا السلمونى الى السـلطان الغورى لهجوه اياه فأمر السلطان بتأديبه فوضع فى الحديد وسيق الى بيت قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة « وادعى عليه » فضربه عبد البر وعزره وشهره على حمار وهو مكشوف الرأس .

ومع ذلك لانتصور أن كل من هجا عوقب فكم من هجاء مقذع دون أن ينال صاحبه أدنى عقاب ، ويستبين لنا أنه فى هذا العصر قد أصبح القضاء بالقضاة حينذاك محلا للتندر والنكتة ، بل لقد اتهم القضاة فى ذمتهم وقبول الرشوة اتهاما صريحا(٥٩) .

والواقع ان واقعة الشاعر السلمونى مع القاضى ابن الوكيل ما كانت لتستوجب ما ناله من عقاب بتلك الصورة المشينة من ضرب وتعزير وتشهير ، الا لأنه كما يفهم من المصادر كان كثير الهجاء حتى هجا القاضى عبد البر بن الشحنة نفسـه واتهمـه بكيل كبيرة علانية دون مواربة ، وكانت بينهما خصومة استغلها ابن الشحنة فى الانتقام منه ، وان كان السـلطان الغورى له ميـل وعنايـة بالسلمونى فى الباطن(٦٠) .

والمعروف أن السلطان الغورى كان عليلا بعينه ، فلما اشتد عليه المرض « سامح أرباب المصادرات بما عليهم من الأموال » ولم يتم ذلك بل عاد يطالبهم بها ، فكان ذلك محل تندر وهجاء(٦١) .

وقد تعرض الأمير طشتمر المعروف بحمص أخضر لما أشيع قتله سنة ٧٤٣ هـ/١٣٤٣م للسخرية والتهكم من جانب الشعراء الذين استغلوا هذا النبذ أو هذا اللقب(٦٢) .

ولايخفى ما فى تلك الأبيات من تورية ، وان كنا لنعجب ان معظم ماقيل من هجاء كان بعد موت من تعرضوا له ، خاصة اذا كانوا من السلاطين والأمراء .

ويبدو ان تلك هى طبيعة بعض الشعراء والأدباء وأرباب القلم فى كثير من العصور الذين ينأون بأنفسهم خوفا من تعرضهم للبطش والعقاب فيلجأون الى التورية فى كثير من الأحيان ، مستغلين مهارتهم فى اللعب بالألفاظ ، وقد أكثر شعراء العصر المملوكى من استخدام التوريات اللفظية واشتهر كثير منهم بذلك .

وقد ساعدتهم صناعتهم وألقابهم كثيرا فى ذلك كالسراج الوراق والحمامى (ت ٧٦٢ هـ/١٣٦١م) وأغلبهم كما نرى من أصحاب الحرف الذين يميلون للنكتة ، وبدخولهم فى آفاق الشعر قد مزجوه بروحهم الخفيفة .

وكتب نصير الدين بن الحمامى الى السراج الوراق ، وكان السراج مقيما بالروضة يتنزه شيئا من ذلك(٦٣) .

واتسعت التوريات فيما عرف بالألغاز والأحاجى التى انتشرت فى ذلك العصر ، وهى « باب من أبواب الصناعة المعنوية (الاستعارة) والصناعة اللفظية (التورية) مع شىء من التعمية فى سياق المعنى » .

ومن طريف ماجاء فى ذلك قول ابن الصائغ فى الشيخ علاء الدين بن دقيق العيد مستغلا اسمه ، متندرا على ذقنه(٦٤) . ويدل ذلك من بعض الوجوه على أن تلك الروح الفكهة الخفيفة كانت منتشرة بين الناس فى العصر المملوكى ، وكل شىء تقع عليه أعين الشعراء والأدباء كان مجالا لتورياتهم والغازهم ، فمن ذلك ماقاله نور الدولة على بن أبى المكارم المصرى الشاعر (ت ٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م) وهو يلغز فى كوز الزير(٦٥) .

وهذا اللغز من نظم محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهو يستغل ماتعطيه كلمات (الأذن ، والحب ، والصب) من معان متباينة . وكثيرا مايدور الملغز حول صفات الشىء آتيا بدلالات غير ما تعارف عليه الناس(٦٦) .

ولكن برغم هذه التعمية ، فان الشاعر قد يضع بعض المفاتيح تعين على فهم اللغز حتى لا يصبح حله مستحيلا أو يخضع للتخمين . ومن هذا النوع أيضا ماقاله أيمن أبو البركات محمد ملغزا فى مقص(٦٧) .

وهو يقصد بذلك جزأى المقص ويورى فى بعض كلمات ، وهى لاشك صورة تدعو الى التفكير واعمال العقل وهذا ماوجد الناس فيه تسلية ومتعة .

والغز على بن محمد بن جعفر القنائى (ت ٧٠٨ هـ/١٣٠٩م) حتى فى الكمون(٦٨) حتى اعضاء جسم الانسان كانت محلا لبث الألغاز والأحاجى من جانب الشعراء فقال أحدهم وهو محمد بن جعفر القنائى (ت ٧٢٧ هـ/١٣٢٧م) ملغزا فى العين متضمنا تورية بعيدة بحيث يستشكل حله الا على من فطن(٦٩) .

وامتدت الالغاز الى المسائل العلمية من نحو وفقه الى آخر ذلك من معارف العصر ، كما حملت الرسائل بين الأدباء وأهـــل الظرف كثيرا من هذه الألغاز ولاظهار المقدرة والبراعة كان بعض الادباء يجيب على اللغز شعرا ٠

ونورد هنا طرفا من هذه الألغاز والأحاجى لأنها بلا شـــك توضح جانبا من جوانب الترفيه التى سادت العصر المملوكى(٧٠) ٠

وبشىء من التأمل يمكن ادراك مايقصده الشاعر من اختلاف حركات الكلمة وقراءتها طردا وعكسا ٠ ولدينا نمـــاذج من تلــك المحاورات الشعرية نظمها أصحابها فى شكل الغاز ، منها ما أنشده شمس الدين محمد بن الخضــــر الحلبى بالقاهـــرة لابن حجــر العسقلانى منسوبا الى على بن عيسى بن محمد بن أبى المهـــدى الفهدى اذ يقول ملغزا فى « مسك »(٧١) ٠

فرد ابن حجر بالجواب شعرا أيضا بذلك(٧٢) ٠

ولدينا نموذج آخر كتبه احمد بن نصر الله بن باتكين القاهرى محيى الدين (ت ٧١٠ هـ) ردا على ماكتبه اليه الحســـين الجزار ملغزا فى الشطرنج(٧٣) ٠

وألغز الشيخ عبد القادر الدماصى (ت ٩١٥ هـ) فى غزال وبعث به الى الشهاب المنصورى(٧٤) ٠

وكان ابن الدماميني (ت ٨٢٧ هـ) قد ساق لغزا فى الغزال أيضا(٧٥) ٠

وبمقارنة هذا بقول الدماصى ندرك مدى التوافق بين أفكار الشاعرين واتفاق لغزيهما نصا ومعنى الى حد كبير ٠

بتلك الطائف الأدبية سار هذا اللون من الوان الترفيه الذهني. الذى رأى فيه الناس شحذا لملكاتهم الفكرية ، وتدريبا لهـــم على ارتياد غوامض الأمور وفك رموزها ، فضلا عما يتيحه لهم ذلك من قتل الفراغ وامتاع النفس فالألغاز والأحاجى قد مثلت فى العصر المملوكى لونا ترفيهيا مهما شغف به عامة النس وخاصتهم ولا سيما المتأدبون منهم ، ونادرا ما نجد شاعرا أو اديبا لم يضرب فى هذا اللون بسهم ٠

ولاشك أن ذلك لقى رواجا ـ كما قلنا ـ بين طبقات الشعب ، وقد يكون شغف الناس بالالغاز لمجرد التلهية وقتل الفراغ ، وقــد يكون الانسان مدفوعا بأسباب وجدانية فى نفسه تتمثل فى الرغبة فى الانتصار على المجهول واستجلاء الغامض ٠

ولا ريب ان تلك الوسيلة من وسائل الترفيه قد اسهمت فى نشر بعض معارف ذلك العصر بين جماهير الناس ٠

ولدينا أروع ما انتــج شــعرا فى مجال الألغاز والمعميات فى العصر المملوكى ، وهو ماقصد اليه ابن سودون من نظم القصيدة الشعرية بشىء كبير من الطرافة ، معبرا عن ذلك برسم دوائــر تحوى أبيات القصيدة مقطعة ويحتاج الأمر من القارىء الى كثير من الدقة والتركيز والتتبع ، حتى تتم قراءتها ، ويحصـــل بذلك الاستمتاع والترفيه مع شحذ الذهن واعمال العقل ٠

والواقع أن عصر المماليك كان فيه مما يشجع على هذا اللون من المعميات التى يمكن أن نشبهها اليوم بما تطالعنا به الصحف والمجلات من ذلك الذى نسميه الحروف المتقاطعـــة التى تجىء فى جداول وتعبر عن كلمات ، وعلى القارىء أن يتتبعها ليعرف من أين يبدأ والى اين ينتهى ٠

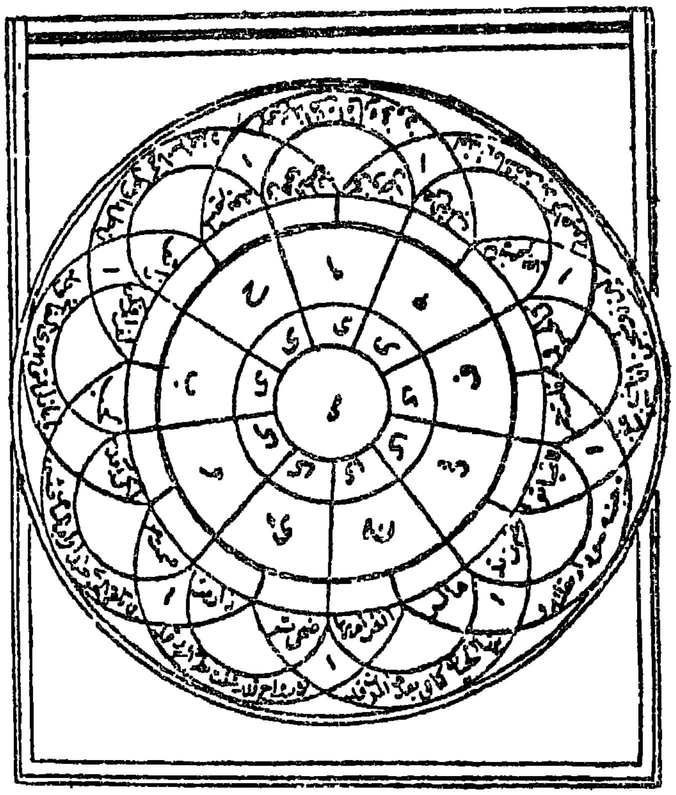
وقديما حاول بعض الشــعراء الاتيان بشىء من هذا فنظموا قصائد على الوان من الطرافة فمنها ما يقرأ طردا وعكسا ، والمعنى هو هو لم يتغير وما من شك فى أن هذا ليس من اليسير بمكان ، فمن الصعب أن يكون البيت أو القصيدة كلها تقرأ طردا كما تقرأ عكسا والكلمات هى هى ، وكذلك المعنى هو هو ٠

ومن هؤلاء الشعراء من لجأ الى طريقة مثـــل طريقة ابــن سودون غير انها كانت أيسر من طريقة ابن سودون ، فقد حاول بعض الشعراء القدامى فى هذه المعميات أن يجعلوا الأبيات على شكل مربعات أو مثلثات أو متقاطعات من حيث تبدأ يستقيم لك الكلام والمعنى وهذا ان بدا صعبا غير ميسور فانه بالقياس الى ما اتبعه ابن سودون بعد هينا يسيرا ٠

فقد نظم ابن سودون قصيدة على نمط يخالف تلك الانمــاط جميعا فجعل أبيات القصيدة تبدأ بحرف الهاء التى جعلها مركز الدائرة الكبرى وأحاط المركز بدوائر متشعبة تتبع كل دائرة دوائر أخرى وجعل فى الدائرة التالية للمركز مباشرة ــ الذى فيه حرف الهاء ــ مقسمة الى اقسام يشمل كل قسم حرف الياء وهو الحرف الثانى من الكلمة ، ثم جعل الدائرة التى تلى الدائرة الثانية مقسمة كذلك الى اقسام يحوى كل قسم حرفا وهذه الحروف مختلفـة ، وهى تمثل الحرف الثالث من الكلمة ، وهكذا اتبع تلك الدوائر بدوائر اخرى متوالية مقسمة هى الأخرى اقساما يحوى كل قســم منها كلمة أو عبارة ، وبقراءة مافى هذه الدوائر نخرج منها آخر الأمر بتلك الأبيات التى تنتظمها ٠

ويبدأ القارىء بالمركز ثم يمضى صاعدا فى أى جدول شاء الى نهايته ثم يعود من الجدول التالى الى ان ينتهى الى المركز ثــم يصعد ثانية من المركز الى الجدول التالى الى ان ينتهى الى نهايته حتى اذا ما بلغ نهاية الجدول رجع فى الجدول الذى يليه الى المركز

ثم يصعد من المركز الى الجدول التالى ، وهكذا الى ان ينتهى من جميع الجداول فاذا هو قد استوت بين يديه القصيدة بأبياتها كلها وهذا رسم ذلك :



وعلى النحو السابق يمكن قراءتها ٠ ولا شك بعد القراءة فى التوصل الى تلك الأبيات التى تتضمنها تلك الدوائر وهى :

هيجـاء الغـرام بهـا الارواح قـد رشـقت
يطـرف احـور قـد اصـمت مراميـه

هيمـا لكى تعـذر أيـا عاذلى فتى
يهـوى التفـانى وجـــدا فـى تواليـــه

هيـل المتيـم بعـد الأمـــن مـــذ اقلـــت
اقمـاره فهـــو داهـــى القلـب واهيـــه

هيهـات ينعـم بعـد البيـن ذو شـــجن
ان لـــم تكـن سـاعة اللقيـا تواسـيه

هـى ساعـة فـى تدانيهـا الحيـاة كمـا
فـى بعدهـــا المـوت قـد اضـحى ترائيـه

هـى اذا رمـت أن تلقـى الهـوى جلـــدا
وأب المنـــام فبئـس الحـب أبيـــــه

هيـب الغـرام فكـن أن حـل ذا وجـــل
كـم باسـل منـه داهـى الطـرف داميـه

هيـــم أخـــى وخـل العـذل ذا شـغف
بـذكر أهيـف زاكـى الحسـن وافيـــه

هيفـــاء قامتـــه حمـــراء وجنتـــه
ســوداء مقلتـــه واهـــا اراجيـــه

ولعله بعد هذا يلمس جهد ابن سودون وكيف عنى نفسه فى حبكها وكيف عنى القراء المجيدين فى حل هذه الاحجية • وترى كم من الوقت بذل ابن سودون فى تكوين هذه الدائرة على هذا النحو لتستقيم له الأبيات التسعة ؟ لاشك انه بذل وقتا طويلا وجهدا كبيرا •

وما من شك فى أن الأبيات التى تنظم بهذه الطريقة لا يكـون المعنى فيها جد مقصود ولا تكون ذات غرض متكامل فى الغالب ، ولكن

تجىء ابياتا شبه مستقلة ، كل بيت مستقل بمعناه ، بحيث يمكن أن يعاد ترتيبها حسبما تكون المشيئة فلا يتأثر المعنى،وأبيات ابن سودون التسعة وان كانت قليلة فانها تساوى ديوانا بأكمله من حيث الجهد المبذول فيها والعناء الذى تحمله صاحبها والوقت الذى بذله ، ولكنها على ايه حال متعة من المتع كان ذلك العصر الذى عاش فيه ابن سودون يتطلبها وينشد مثلها » ٠

مع أن ابن سودون لم يكن ليجهد نفسه فى كل مايقول دائما على نحو ما فعل فى القطعة السابقة ، فقد نظم شعرا سهلا ساذجا يعتمد على ضروب من المفارقة والتباله بذكر بديهات لا عمق فيها ولا معنى فكل ما يقوله قريب الى الحس ويجعل القارىء يشعر بما يشبه الصدمة بعد كل بيت لأنه يكاد لايجد فيه معنى جديدا ، ولكن تلك الصدمة تدفعه للضحك دفعا أو على الأقل تجعل الابتسام يلم به على نحو ما نجد فى قوله(٧٦) ٠

ولدينا بعض محاولات الشعراء فى عصر المماليك حاولوا فيها نظم الشعر بحيث اذا صحف أعطى معنى مخالفا فى غرض يختلف عما قيل فيه اولا ، نسوق منها ما قاله شمس الدين محمد بن على المعروف بابن خطيب زرع (ت ٨١٠ هـ) الذى قال شعرا يقرأ مدحا فاذا صحف كان هجوا(٧٧) ٠

ومنهم من نظم شعرا ليس فيه نقط كما فعل على بن عمر الهاشمى القوصى يقول فيها(٧٨) ٠

ولا يخفى ما يتطلبه ذلك من عناء وجهد لكى ينظم الشاعر نظما ليس به كلمة واحدة بها نقط ، وذلك بلا شك يدل على البراعة وامتلاك ناصية الكلام حتى يستوى النص والمعنى معا ٠

والحق أن أدباء وشعراء العصر المملوكى قد شرحوا المجتمع المصرى حينذاك وعبرت أشعارهم وأزجالهم عن كل فئات المجتمع ونالت كل ظاهرة اجتماعية أو غيرها قسطا من اهتمامهم ، فكثيرا ما تهكموا على طبائع الناس وفئات الشعب الذين هم فى الغالب قد نبتوا منه ، وعايشوا الناس فى افراحهم واتراحهم ، ولعل ذلك هو ماجعل قولهم صورة واضحة الى حد كبير للمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك(٧٩) ٠

ومن المعروف أن البخل والبخلاء على مر العصور كانا مادة للظرفاء فى كل عصر ، يهتبلون الفرصة دائما لاضحاك الناس على البخلاء ، ويشيع ذلك جوا من السرور والمرح بين الناس وكان ذلك ما حرص عليه شعراء العصر المملوكى ٠

ولا شك فى أن نهر النيل وما ارتبط به من فيضان أو نقص ، كان محلا للشعراء فافردت فيه للقصائد الطويلة وما عرف عند الشعراء بمقطعات النيل فكانوا يتتبعون حال النيل زيادة أو نقصا ، وعبروا عن ذلك فى اشعارهم أحسن تعبير ، وارتبط بنهر النيل احتفال مهم ، يجرى كل عام يحضره السلطان أو من ينوب عنه والأمراء ، وأصبح ذلك مجالا واسعا للادباء والشعراء ، وقد ازدحمت المصادر المملوكية بامثلة عديدة مما قيل فى النيل وتعلق الناس به (٨٠) ٠

وكان الناس يفرحون بوفاء النيل وتعم الفرحة أرجاء البلاد وتكتب بذلك البشائر الى الأقاليم ويبيت الناس أحيانا والسلطان بالمقياس ، وتقام هناك مباهج وأسمطة ، وكان حد الوفاء للنيل ست عشرة ذراعا يخشاه الناس ان تعداها كثيرا .أو نقص عنها(٨١) ٠

وقال أحد الشعراء فى النيل طرفة ، تخيل النيل فيها شخصا يتحدث الى الناس ومن يستغل ماينجم عن نقصانه من غلاء ورفع الأسعار ، وفيها نقد وتهكم لهذه الشريحة من الناس(٨٢) ٠

ولم يتوقف الأمر ببعض الشعراء عند نظم الشعر فحسب ، بل كان منهم من ينشده «بنغمة طيبة ، وصوت شجى » ٠ وبرغم أن كثيرا من الشعراء قد عاش على مدح الأمراء يكسبون بذلك حياتهم ووجودهم فانهم ربما كانوا مأخوذين الى حد ما بما حمل لواءه هؤلاء الأمراء من كفاح وجهاد ٠

وتشير المصادر الى أنه كان من الشعراء من لايقول الشعر « الا لصلة أسباب المودات ، لا لمواصلة الافادات » ، كما جاء على لسان بعضهم ، كما ترفع البعض منهم عن وظائف الدولة فى ديوان الانشاء ٠

وكان منهم من عرف بحامل لواء الشعر فى عصره ، — ابن نباتة — وأطلق على آخر وهو تقى الدين بن حجة (ت ٨٣٧ هـ / ١٤٣٤م) شاعر العصر ، وقد أصبح من ندماء السلطان المؤيد شيخ المحمّودى وشاعره ، ومنهم من برع نظما ونثرا فى أن واحد فكان يملى على جماعة « يملى على هذا نصف بيت ، وعلى آخر وثالث ثم يكمل للأول ثم الثانى ثم للثالث ، بحيث يسبق بنظمه كتابة المستملى » كما حظى الشعراء بحب السلاطين وتقديرهم ، فقد كان السلطان الظاهر ططر (٢٨٤ هـ/١٤٢١ م) « يحب انشاد الشعر بين يديه لا سيما باللغة التركية » ٠

ولم يقف الأمر عند تقدير السلاطين والأمراء للشعراء ، والافساح لهم فى مجالسهم ، بل نظم بعض السلاطين والأمراء

الشعر ، فنجد أحد الامراء وهو أحمد بن موسى بن يغمور السمهودى (ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥م) ينشد لنفسه ويدعو الى الفضيلة ومحاسن الخلق ، فتدور فكرة ابياته حول الكرم وغض الطرف عن كل معيب وصون العرض وستر ما يكون من نقصان عند الناس(٨٣) ·

وحدث أن مدح شهاب الدين أبو العباس الشهير بابن الفرفور (ت ٩١١ هـ/١٥٠٦م) السلطان قنصوه الغورى بقصيدة طويلة فلما سمعها السلطان ابتهج وقرأها بنفسه علي من حضر وكافأه عنها بقصيدة من نظمه وجهزها اليه(٨٤) ·

وهكذا كان بعض السلاطين ينظمون شعرا بالعربية وكذا الامراء مايدل على حبهم للشعر وتقديرهم للشعراء فى عصرهم ·

وظهر فى العصر المملوكى الى جانب الشعراء شاعرات أديبات أجدن الشعر ونظمه نذكر منهن مؤنسة بنت الشيخ محمد بن على ابن البيطار المقرى(٨٥) ·

ومنهن كذلك عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر ، وهى بنت الباعونى المعروفة بالباعونية (ت ٩٢٢ هـ/١٥١٦م) وقد برعت علما وشعرا ·

ويبدو أنه كان لدى الناس فى عصر المماليك اعتقاد فى منفعة الشعر فى درء الأمراض وحفظ النفس والدين والمال · وان كان ذلك لايرجع للشعر فى حد ذاته انما يرجع فى تصور أهل العصر الى محتوياته(٨٦) ·

هذا ويقول أبو الفدا المؤرخ المعروف أنه لما سمع هذا أنشد مثله ينفع – حسب قوله – لحفظ النفس والدين والأهل والمال(٨٧) ·

وهذا الاعتقاد لايصح أن نحكم عليه بمقاييس عصرنا نحن فانه غير مقبول ولا مستساغ ولكن يبدو أنه بمقاييس عصره كان متصورا

ومقبولا حتى من جانب المتنورين ولا أدل على ذلك من أن الراوى هو رجل مؤرخ له مكانته وسعة أفقه التى لا ينكرها أحد وهو أبو الفدا صاحب المختصر فى أخبار البشر .

ومع ذلك فان هناك من يعظم الشعر ويصف شعراء العصر بانهم متشاعرون أى من مدعى الشعر وهم ليسوا أهلا له ، كما يصف شعرهم بالجنون(٨٨) .

وأنشد محمد بن محمد بن الجبلى الفرجوطى (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧م) شعرا يسخر فيه من أحد الشعراء ويصفه بالجهل وسوء النظم(٨٩) .

ومع ان هذا القول قد ينم على تعال وظلم لكثير من الشعراء فانه يبدو أن صاحبه كان مدفوعا بما يلمسه من ركاكة وضعف فى المعانى فى انتاج الشعراء ، خاصة أن بعض الشعراء كانوا أميين ـ وان أجادوا ـ ومنهم ابراهيم بن على بن خليل الأديب الشاعر أبو اسحاق الحرانى المعروف بعين يصل (ت ٧٠٩ هـ/ ١٣١٠م) .

وقد قيل مثل ذلك فى بعض الفقهاء مثل شمس الدين بن عوض (ت ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) وكان له طبع الفلاحين يتحدث بلهجتهم ويرتدى زيهم(٩٠) .

والقائل هنا استخدم التورية فى كلمتى « الدرس والدراية » وكل منهما من أعمال الفلاحة المعروفة .

وعلى النقيض من ذلك فان بعض الشعراء قد رثى أحد العلماء واشار الى خلو مكانه فى المجالس والمدارس ويشيد بخدمته للعلم(٩١) .

ولعل ذلك يدلل على أن الشعر بكل فنونه لم يكن متخلفا فى عصر سلاطين المماليك ، ولا جامدا ، ذلك لأن انتاج الشعراء فى ذلك العصر كان يتمتع بشكل عام بروح شعرية عالية وكثير من المعانى المبتكرة ٠

وهكذا أدت مجالس الشعر والأدب فى عصر المماليك وظيفتها فى نشر الثقافة والترفيه على الناس فى ذلك العصر الذى كان الناس فيه فى أشد الحاجة لمثل هذه الوسائل الترفيهية نظرا لظروف المجتمع فى ظل ذلك العصر ٠

أما مجالس الشراب والطرب وما تعلق بها من أمور اللهو والمجون فقد استحوذت على اهتمام الأدباء والشعراء فى العصر المملوكى ، وهذا هو ماسوف نتحدث عنه فى الفصل التالى ٠

هوامش الفصل الثانى

(١) على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية القاهرة ١٩٤٨ ، ص٢٤٢ ومن هؤلاء القاضى شمس الدين ابراهيم بن القيسرانى الذى كتب تفويض الخليفة الحاكم بأمر الله أمور البلاد للسلطان الناصر محمد سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣م ، وشهاب الدين محمود الحلبى الذى كتب تفويض الملك المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ وكذا القاضى علاء الدين بن عبد الظاهر الذى كتب نص تفويض الخليفة المستكفى بالله أمور البلاد للسلطان بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٨ هـ ·

(٢) هو القاضى مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم بن محمد بن على بن موسى قاضى القضاة ، وكان فكه المحاضرة له يدنو النظم والنثر وله ديوان شعر فى مجلد ومنه ·

ان كنت يوما كاتبا رقعة تبغى بها وصول الطلب
اياك ان تغرب الفاظها فتكتسى حرفة أهل الادب

(انظر ، ابن العماد ، شذرات ، ج٧ ، ص ١٦) ·

ويقول :

لاتحسبن الشعر فضلا بارعا ما الشعر الا محنة وخيال
فالهجو قذف والرثاء نياحة والعتب ضعف والمديح سؤال

(٣) موضوع المناظرات قديم فقد رأينا فيه شيئا عند الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فى وصف الكتاب وفى الموازنة بين الربيع والخريف وبين الديك والكلب (فى كتاب الحيوان) ·

(٤) وما نظمه القاضى علاء الدين :

يترب لولا التراب بجسمه لم تبصر الابصار منه منظرا
فكأنه بدر عليه سحابة والترب ليل من سناه قمرا

وكان الذى نظمه فخر الدين :

ومترب تربت يدا من هازه ... كقضيب تبر ضمخوه بعنبر
فكأن طرته ونور جبينه ... ليل أطل على صباح أنور

وكان الذى نظمه الثالث .

ومترب قد ظن ان جماله ... سيصونه منا بترب اعفر
فغدا يضخمه فزاد ملاحة ... اذ قد حوى ليلا يصبح النور
وكأنما الجسم الصقيل وتربة ... كافورة لطخت بمسك اذفر

(٥) ويقول :

ان انتصارك بالاخوان من عجب ... وهل رأى الناس منصورا بمنكسر

(٦)

أدخلت فى منخره اصبعى ... وقلت : ماذا العضو سميه
فقال لى مستعجلا : منخرى ... قلت : انا ياسيدى فيه

(٧) وانشد لنفسه ..

ومذ لزمت الحمام صرت فى ... خلا يد أرى من لايداريه
أعرف حر الاشياء وباردها ... واخذ الماء من مجاريه

(٨) ويقول :

رب راو عن النبى حديثا ... سند ثابتا كاملا فصيحا
قال قال النبى قولا صحيحا ... قلت قال النبى قولا صحيحا
ففهمت الذى النار اليه ... وسمعت الذى رواه صريحا
قال لى يا اديب أنت فقيه ... قلت لا قال حزت ذهنا مليحا

فأجابه الوراق :

ان فعلا جعلته انت قولا ... لبس فيه يحتاج منك وضوحا
فابن منه مضارعا يظهر الخا ... فى ويبدو الذى كتبت صريحا
وتراه يبدو لعينك مقبلا ... وقد قلت فيه قولا صحيحا
وهو فعل لم تأته انت ياشيطان ... فافهم مقالتى تلويحا

(٩) حيث قال :

أكافيك عن بعض الذى فعلته ... لان لولانا على حقوقا
بعثت خدودا مع نهود واعينا ... ولا غرو أن يجرى الصديق صديقا

) يقول :

هوه لمن يدعى زلابية	وصح تشبيههم والاب برقوق
ناتهم للوز نسبته	فان اسم أبيه نصفه قوق

) منها أيضا : انه دخل الى المدرسة فرأى الشيخ نجم الدين ، خارجا من الطهارة فقال يامولانا آنستم محلكم فقال له الشيخ ن قبحك الله » .

١) فيحكى عن أحدهم وهو الشاعر الحسين بن محمد بن هبة الله ، المعروف بقطينة الاسفونى « انه طلع الى المصلى يوم عيد الاضحى نبه شخص فلما ذكر الخطيب قصة الذبيح ، بكى ذلك الشخص فالتفت اليه قطينة فقال له : ماهذا البكاء الطويل ؟ اما سمعت فى ضى أنه سلم وما اصابه شىء ؟ » .

١) من المعروف ان فنون الشعر كما يحددها اهل الادب : هى الموشح ، والسلسلة والمواليا والزجل ، وكان وكان ، والقوما .

١) منها :

الصب المعنى هل لكا	فى تلاقيه بوعد مطمع

١) يقول :

ى فى هواه ولا أبالى	ملاما
ـت فى طلب الوصال	غراما

١) قال احدهم وهو محمد بن فضل الله بن ابى المرضى ابن الكاتب لاديب الشاعر فى موشح اوله :

، بنا فى السقم	زالوسم كل فتاك
كالعندم	أو مرشف ابن تركى
ا لون السيدم	والريح ريح المسك
ـبرت ذا الـم	من كدر وضنك
منه يصفو	والطيش يستخف
رور زحف	منه الهموم تهرب

ولو اتت فى الصف

انظر ، الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٦٠٩) .

(١٧) قيسارية جهاركس . بناها الامير فخر الدين جهاركس الناصرى الصلاحى سنة ٥٩٢ هـ وكان اكبر امراء الدولة الايوبية ، وموضعها الآن مشغول بالمبانى المشرفة على شارع المعز لدين الله

(انظار ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج١ ، ص ٣٤٤ ، حاشية ٢) .

(١٨) حيث يقول .

ياليلة الوصل وكاس العقار . دون استار ، علمانى كيف خلع العذار

اغتنم اللذات قبل الذهاب

وجر أذيال الصبا والشباب

واشرب فقد طابت كؤوس الشراب

على خدود سبت الجلفار ، ذات أحوار ، طرزها الحسن بآس العذار

الراح لا شك حياة النفوس

نجل منها عاطلات الكؤوس

واستجلها بين الندامى عروس

تجلى على خطابها فى ازار ، من النضار ، حبابها قام مقام النثار

(انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج١ ص ٣٤٠ ـ ٣٤٥) .

(١٩) الدوبيت مأخوذ من الفارسية والكلمة فارسية مركبة من مقطعين ، المقطع الاول « دو » ويعنى اثنين ، والمقطع الثانى وهو « بيت » ويعنى هذا الشطر من الشعر فالكلمة تعنى فى الفارسية المزدوج أو بمعنى آخر الشعر الثنائى .

(انظر . محمد البقلى ، الاوزان الموسيقية فى ازجال ابن سودون ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٨٢) . ، وقيل الدوبيت نوع من المواليا ، وقال ابن خلدون « كان لعامة بغداد أيضا فن من الشعر يسدونه المواليا ، وتحته فنون كثيرة ، يسمون منها . القوما ، وكان ماكان) ومنه مفرد ، ومنه فى بيتين ويسمونه : دوبيت .

(انظر ، الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٦٢٣ ، حاشية ٢) .

(٢٠) يقول :

من بعد فراقكم جرت لى أشـــياء لا يمكـن شـرحها ليـوم اللقيـا
كـم قلت لقلبـى بـدلا نـال بمن والله ولا بكـل من فـى الدنيـا

هو محمد بن جعفر بن حجون القنائى ، وهو فقيه شاعر توفى ســنة ٧٢٨ هـ .

(انظر الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٥٠٥ ، ٥٠٦) .

وقال آخر فى دوبيت :

ياغايـة منيـتى ويا مقصـــودى قـد صـرت مـن السـقام كالمفقود
ان كـان بـدت منى ذنـوب زلفـت هبهـا لكريـم عفـوك المعهـود

(انظر ، الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٦٢٣) .

(٢١ ، ٢٢) ابن سودون : هو نور الدين ابو الحسن على بن سودون العلائى البشبغاوى ولد بالقاهرة سنة ٨١٠ هـ ، وكان أبوه قاضيا بمصر ، اشتهر بالزجل والشعر توفى بدمشق سنة ٨٦٨ هـ .

(٢٣)

الشـمس والنجـوم والقمـر ان لاح خيالهـا بمـاء النهـر
فالشمس رغيف والنجيمات بيوض والبـدر كقرص جبن جاموسى طرى

(٢٤) حيث يقول :

ياناصـرى سـهم عـزك فـى العـدى مرشـوق
وانـت منصـور ومـن حنـت اليـه النـوق
اصـبر فمـا دامـت الشـدة علـى مخلـوق
غـدا يجـىء الخـوخ تذهـب دولـة البرقـوق

(٢٥) يقول :

أيبـك قطـز يعقبـو بيبـرس ذو الاكمـال
بعـدو قـلاوون بعـدو كتبغـا المفضـال
لا جيـن بيبـرس برقـوق شـيخ ذو الافضـال
طـطر برسبـاى جقمـق ذو العـلا اينـال

(٢٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص٢٩٦ .

يقول :

وخشقدم عنـه قـل	يلبـاى ذو الاحـوال
تمـر بغـا قيتبيـ	ـه الفحـل ذو الاقبـال
وقنصـوه جنبـلا	ط خـذ عنهمـا الاقوال
وبعـده جـاء طـو	مـان بـاى بالاذبـال
وبعـده قانصـوه	الغـورى ابـو الاهـوال
وبعـده صـار طومان	بـاى فـى جـل جـال
وأما سـليم شـاه	خـادم سـعده عمـال
ومـذ ولـى الملـى	أعـى امـره الابطـال
وانـه بسـعده فـى	غايـة الاكمـال
وبعده احمد الباشـا	بسـيفو جـال

(٢٧) يقول :

سلطاننا لو محاسن فيه موصوفة	ولو مواكب لها أوقات معروفـة
مذ خف عنو الرمد بألطاف محفوفة	أوكب لها اوقات مصـر مصـفوفة

(٢٨) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج١ ، ص١٢٤ ، ١٢٧ .

يقول :

البـدر والسـعد ذا شـبهك وذا نجمـك
والقـد واللحـظ ذا رمحـك وذا سـهمك
والبغـض والحـب ذا قسـمى
والمسـك والحسـن ذا خـالك وذا عمـك

(٢٩) يقول :

رأيـت فـى النـوم عسـل والموز فيـه قـد عام
كانو سمك فـى بـرك والقلـب لوقد هـام
طلبـت حا أمسـكو استنبهـت اه مـادام
ضـحكت علـى بقيـت أبكـى عنيه مالـسام

(٣٠) ومنها :

انا احـب الكنافـة فـى شـراب نوفـر
ولـو رمـوا فوقهـا فستق علـى سكـر

ألا تكـن فـى طبـق والصـحن ان فشـر
وقـال انـا لـك مليـح قـل ذا مليـح واكبر

وقال ايضا :
التـور والبقـرة دى العـام ومـن قبلـه
فـى مصـر والشام وفـى غـزة مـع الرملـه
هـذيك تحبـل وتولـد عجـل او عجلـة
ودك فـى السـقيا ياكـل بفرقلـه

(٣١) يقول :
جـار حبيبى فقلت : ذا الحجـاج
جـا يجـور أو يزيـد
لـو عـدل عشـت يـوم مسـرور
ويكـون الرشـيد

(٣٢) حيث يقول :
طلبـت منـك جـوزة
منعتنـى مـن قربهـا
وكـم طلبـت زوجـة
منك فلـم تبخـل بهـا

(٣٣) وقيل
وقالت الفيلـة امراتـو
سهم الفراق قد اصاب قلبى
ونـا غريبـة هنديـة
وكان هذا الفيـل زوجـى
واليـوم كان آخـر عمـرو
مـن لـى معـين
يـا مسـلمين
قلبـى حزيـن
لا معـيره
فـى القنطـره

(٣٤)
سلطاننا الاشرف خرج فى أربعين
من العساكر حين سافر حمساه
ومن حلب عدى يروم الفـرات
فاسقى الخيول ماه وريـو حماه
فى مصر فرسان أربعين بالعـدد
لدورة المحمـل يسـوقوا الحيـا
ورعبهـم سـاكن قلوب الملـوك
يردوا الخـارج وأهـل العنـاد

(٣٥)
اعتذارى للـى سـمع قولـى
ان صـحبى والقـرب ياتونـى
يقصـدونى ويطلـوا فـى
ان تابيـت بالعجـز يرمونـى

أستحى أن اظهر ضعيف نظمى ... وجمالى نسب لزيتونى
واننى ابو النجا العوفى ... ان تجد عيبا فيما اقول حاضر
استر العيب واريح ثواب سترى ... جل من لا فيه عيب وهو الغافر

(٣٦)

اهل فنى تجاوزوا ... واسروا العيب والزلل
تغنموا الاجر والثواب ... والحسود عقلو فى خيل
الحسود قط ما يسود ... والحسد ان عدل قتل
وعليش يحسدوا اديب ... ناسب النظم فانتسب
يابن زيتونى مشتهر ... نجل عوفى اذا انتسب

(٣٧)

وما الشعر مما أرتضى كنيتى به ... لعمرى ولا وصفى به فى المحافل
ولا قلته كى ابتغى بمقاله ... هنالك أن اجزى عليه بنائل
ولكن دعتنى شيمة مضرية ... الى قوله معروفة فى القبائل

(٣٨)

فقد اهدى شخص الى أحدهم وهو الشاعر الفقيه محمد بن على بن عبد الوهاب الادفوى بطيخة فنظم يقول :

اهدى لنا من نحبه كرما ... بطيخة جل قدر باريها
كأن من سكر حلاوتها ... او عسل أو رضاب مهديها

وقال آخر فيما يكتب على السيف :

أنا ابيض كم جئت يوما اسودا ... فاعدته بالنصر يوما أبيضا
ذكر اذا ما انسل يوم كريهة ... جعل الذكور من الاعادى حيضا

(٣٩) حيث يقول :

مامنية النفس غير مرجوة ... توصل للقلب غاية الراحة
تجور ولكن بمسعد ولقد ... تبخل ان لم تساعد الراحة

(٤٠)

ياحبذا الميدان من جنة ... مساكن الولدان والحور
اغصانه هب عليها الهوى ... من كل محدود ومقصور
أطياره فى دوحها غردت ... من كل مسموع وعصفور
وكل من ضاحك مطرب ... وكل حسويه وزرزور

(٤١)

ان المليحة والمليح كلاهما — حضرا ومزمار هناك وعود
والروض فتحت الصبا اكمامه — فكانه مسك يفوح وعود
ومدامة تجلى الهموم فبادروا — واستغنموا فرص الزمان وعودوا

(٤٢) ومنه :

العز يدر ولكن ان شامته — مسروقة من دجى صدغيه والغسق
وانما حبة القلب التى احترقت — فى حبه علقت للظلم فى العنق

(٤٣)

وغلبى من العرب الكرام سألته — لمن فى الورى تغرى فقال مؤنبى
انا ابن الذى تمشى الملوك أمامه — اذا مارأوه راكبا يوم موكب

(٤٤)

لو وشى فيه من وشى — ما تسليت غلمشا
انا قد بحت باسمه — يفعل الله ما يشا

(٤٥)

قلبك اليوم طائر — عنك ام فى الجوانح
كيف يرجى خلاصه — وهو فى كف جارح

ولما بلغه أنه تركه كتب يقول :

خلصت طائر قلبك العانى الذى — من جارح يغدو به ويروح
ولقد يسر خلاصه ان كنت قد — خلصته منه وفيه بروح

وقال أحدهم فى مليح اسمه مالك :

ومليح قلت ما لـ — ك حبيبى قال مالك
قلت صف لى وجهك اليـ — زا هى وصف حسن اعتدالك
قال كالبدر وكالغصـ — ن وما اشبه ذلك

(انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج١ ، ص ٣٩) .

(٤٦)

ديار مصر هى الدنيا وساكنها — هم الانام فقابلها بتقبيل
يامن يباهى ببغداد ودجلتها — مصر مقدمة والشرح للنيل

(٤٧) يقول :

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من اضم

(٤٨) وأولها :

كيف ترقى رقيك الانبياء ... يا سماء ماطاولتها سماء
لم يدانوك فى علاك وقدحا ... ل سنا منك دونهم وسناء
انما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء
انت مصباح كل ضوء فما تصـ ... ـدر الا عن ضوئك الاضواء

(انظر ، جمال سرور ، دولة الظاهر بيبرس . ص ١٥٩) .

(٤٩) واولها :

نقدت طوائف المستخدمينا ... فلم أر فيهم رجلا امينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم ... مع التجريب من عمرى سنينا

(٥٠)

أبيت سوى مدح خير الورى ... فأصبح نظمى وثيق العرا
بروحى صفات تحلى القريض ... وتسبكه ذهبا أحمرا
تعين القريحة أنى ونت ... وتبرز الفاظها جوهرا
شعراء الغيد امتداح البشير ... فهمها اطرا المدح فيه طرا
جمعت السرور لسرى به ... فأضحى به العيش لى أخضرا

(٥١) وهو :

الملك الظاهر سلطاننا ... نفديه بالاموال والاهل
اقتحم الماء ليطفى به ... حرارة القلب من الغل

(انظر ، ابن العماد ، شذرات ، ج٥ ، ص ٣٣٣)

كما مدحه محيى الدين بن عبد الظاهر ، عندما استولى على حصن عكار بقوله :

ياملك الارض بشرا ... ك قد نلت الارادة
ان عكار يقينا هى ... عكار وزيادة

(٥٢) ويقول ابن اياس

بالاشرف الغورى المفدا ... أصبح ثغر الزمان باسم

ياقانصــوه العلـــى قـــدرا فقــت على مــن مضــى وقـــادم
فكـل يـــوم تــراه عيـــدا بـــه فاوقاتنــا مواســـم

ومما قيل فى مدح الملك الاشرف برسباى بعد فتح قبرص :

بشـراك ياملـك الملوك الاشـــرف بفتـح قبـرص بالحسـام المشرفى
فتـح بشـهد الصـوم ثـم قتالـه من اشرف فى اشرف فى اشرفى
قالت وما تلك البلاد وقد عفـــا انجيلهم اهلا باهـل المصـــحف

واستمر حتى قال ·

لـم تخلـف الايام مثلك فاتكـــا ملكـا ومثلى شاعرا لـم تخلـــف

(انظر ، ابن العماد ، شذرات ، ج٧ ، ص ١٨٧) ·

(٥٣)

ويقول ابو الحسين الجزار فى هذا المقام :

الا هكذا يبنى المدارس من بنـــى ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرت للظاهـر الملك همـــة بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنا
تجمـع فيهـا كل حسن مفـــرق فراقـت قلوبـا للانام وأعينـــا

وقال الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب فى ذات المناسبة :

قصـد الملـوك حماك والخلفـــاء فافخـــر بـان محـــل الجـــوزاء
انـت الـذى أمراؤه بيـن الورى مثـل الملـــوك وجنـــده أمـــراء
ملـك تزينـت الممالـــك باســـمه وتجملـت بمديحـــه العصـــماء
وترفعـت لعـــلاه خيـر مـــدارس حلـت بهـــا العلمـــاء والفضلاء

(٥٤) ويقول :

قد انشأ الظاهر السلطان مدرسـة فاقت على ارم مـع سرعة العمـل
يكفى الخليلى ان جاءت لخدمتـه صـم الجبال لـه تسعى على عجل

والخليلى هذا هو الذى كان يباشر عمارتها ·

وقال السراج الوراق ايضا :

مليك لـه فى العلم حـب وأهلـه فلــه حــب ليـــس فيــه مــلام
فشـــيدها للعلـم مدرســة غـــدا عــراق اليهـا شــيق وشـــام

(انظر الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٤٩٩) ·

(٥٥) يقول :

قد جـــدد الاشـــرف سلطاننــا ... مصنـــطبة أوصـــافها تحكـــــه
رخامهـــــا شـــبهت الـــوانـــه ... جـواهر فـــى عقـــد مشتبكـه
يجلـس للمـــوكب مـــن فوقهـــا ... يظهـر فـــى احكـــامه فتكــــــه
فـــاق ملـــوك الترك فيمـــا مضى ... ولـــم يضـــاه ملكهـــم ملكــــه

(٥٦) يقول :

أبشر فســعدك ياسلطان مصر التى ... بشيره بمقـــال ســـــار كالمثــــــل
ان المنارة لـــم تســقط لمنقصـــــة ... ولكـــن لســـر خفـــى قد تبين لـــى
من تحتها قـــرىء القرآن فاستمعت ... فالوجـــد فى الحال اداها الى الميل

(٥٧) منه :

لـــم يحترق حـــرم النبـــى لريبـــة ... تخشـــى عليـــه وما بـــه مـــن عار
لكنما أيـــدى الروافض لامســـــت ... تلك الرســـوم فطهـــرت بالنـــــار

(٥٨)

وشاعر قد هجا شخصا فحل بـــه ... من حـــــاكم الشـــرع توبيخ وتعزير
فاشـــهروه وجـــازوه بفعلتـــــــه ... تبالـــة شـــاعر بالهجـــو مشـــهور

(٥٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٩٢ ، محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والادبى ، القاهرة ١٩٤٧ ، ج١ ق٢ ، ص ٨٥ ٠

قاض اذا انفصل الخصمان ردهما ... الى جدال بحكـم غير منفصـــل
يبدى الزهادة فى الدنيا وزخرفها ... جهـرا ويقبـل ســـرا بعرة الجمل

وقال اخـــر :

يأيهـــا الناس قفوا واســــمعوا ... صفات قاضـــينا التى تطـــــرب
يلـــوط يزنى ينتـــشى يرتشـــــى ... ينـــم يقضى بالهـــوى يكـــــذب

(انظر ابن اياس بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٩٢ ٠

(٦٠) ومما قاله :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ... ولـــم لا وعبد البـــر قاضى قضاتها
اذا جاءه الدينار من وجه رشـــوة ... يـــرى انه حـــل على شبهاتهـــــا
اجـــاز أمورا لاتحـــل بملـــــــة ... بخـــل وبرم مظهرا منكراتهـــــا

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١١٣ ، ١١٤ ، محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ، ص ٨٥) ٠

(٦١) قال ابن اياس :

سلطاننا مذ كان فى ضعفه ... يمنحنا عدلا واحسانا
فمذ شفاه الله من دائه ... أحدث ظلما فوق ما كانا

(٦٢) قال :

أوردت نفسك ذلا ... ورد النفوس المهانة
وبالرشا حزت حالا ... ملات منه الخزانة
وكم عليك قلوب ... ياحمص خضر ملانه

وقال فيه ايضا :

جننت بالملك لما ... اتاك بالبسط ماجن
وقد أمنت الليالى ... ياحمص أخضر وداجن

وفيه يقول بعضهم مداعبا وقد رجع من سفرة :

لما رجعت الينا ... من بعد ذا البعد والبين
خلناك تحنو علينا ... ياحمص أخضر بقلبين

ويقول آخر :

طوى الردى طشتمر بعد ما ... بالغ فى دفع الاذى واحترس
عهدى بدكان شديد القوى ... اشجع من يركب ظهر فرس
ألم تقولوا حمصا أخضرا ... تعجبوا بالله كيف اندرس

(٦٣) قيل :

وكم ترودت للباب الكريم لكى ... ابل شوقى واجبى مبت اشعارى
وأنثنى خائبا فيما اؤمله ... فانت فى روضة والقلب فى نار

(٦٤) قال :

لعلاء الدين ذقن ... تملا الكف وتفضل
فاعمل المنخل منها ... (لدقيق العيد) وانخل

وقال أحدهم موريا :

واختم احاديث الهوى بيننا ... ففى خلال الروض نمام !

والتورية هنا فى لفظ « نمام » أى الذى ينقل الحديث الى من لا يجوز نقله اليهم كما يعنى نوعا من الازهار ، كما نلاحظ التورية ايضا فى كلمة « من » فيما يأتى :

ياعاذلي فيه ، قل لي عن حبه كيف أسلو ؟
يمر بي كل حين وكلما مر يحلو
(انظر ، عمر فروخ ، تاريخ الادب العربى ، ج٣ ، ص ٦٢١) .

(٦٥) حيث يقول :
وذى اذن بلا سمع له جسم بلا قلب .
اذا استوى على صب فقل ماشئت فى الصب

(٦٦) قال فى رمح :
ماعجوز كبيرة بلغت عمرا طويلا وتبتغيها الرجال
قد علا جسمها صفار ولم تشك سقاما ولو عراها هزال
ولها فى البنين قدر وسهم وبنوها كبار قدر نبال

(٦٧)
نحن محبان ما رأينا فى الحب أشفى من العناق
فمن يحل بيننا نبادر بقطعه خشية الفراق

(٦٨)
يا أيها العطار اعرب لنا عن اسم شىء قل فى سومك
تبصره بالعين فى يقظه كما ترى بالقلب فى نومك

(٦٩)
ومحبوبة عند المنام ضممتها احس بها لكننى ما نظرتها
لذيذة ضم لا اطيق فراقها ورب ليال فى هواها سهرتها

(٧٠) يقول ابن الشقيقة المحدث نجيب الدين ابو الفتح نصر الله (ت ٦٥٦ هـ) ملغزا فى الواو والميم والنون :

أوله أخره وبعضه جميعه
ثلاثة حروفه وواحد مجموعه
ان شئت ان تعكسه فانت تستطيعه

وقال : علاء الدين ابو الحسن (ت ٩٢٥ هـ) ملغزا فى النحو :
يا اماما فى النحو شرقا وغربا من له باب سره المكنون
ايما اسم قد جاء ممنوع صرف واتى الجر فيه والتنوين

وأجاب هو عنه بقوله :

علـــم كـــان للمؤنث جمعـــا ... سالما جمع زيـــن فيه يكـــون

وقال فى اجابة على بعض فضلاء النحو :

سلم على شيخ النحـاة وقـل له ... عندى سؤال من يجبه يعظـــم
أنا ان شككت وجدتمونى جازمـا ... واذا جزمت فاننـى لـــم أجـزم
قل فى الجواب بان ان فى شرطها ... جزمـت ومعناهـا التـردد فاعلم
واذا بحزم الحكم ان شرطيـــة ... وقعت ولكن شرطها لـــم يجـزم

(انظر ، ابن العماد ، شذرات ، ج٥ ، ص ١٣٧) .

كذلك يقول سيف الدين المشد ملغزا فى كلمة « فرح » :

ما اســم اذا مافتحــت آخــره ... أصبح فعـلا مقلوبـــه حـــرف
وهـــو حبيـب لمـــن تأملـــه ... وليس فيمـــا شـــرحته خلـــف

(انظر : فوزى أمين ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى ، ص ٢٣٠ .

(٧١) يقول :

كتبتـم رمـوزا ولـــم تكتبـــوا ... لهذا (كهذا) الذى سبله واضحة
فما اســم جـرى ذكره فى الكتاب ... فـان شـئتم فاقـرأوا الفاتحـــة
ففيهـــا مصـحف مقلوبـــة ... يجبـــر عـــن حـــالة صالحـــة
وليســـت بغاديـــة فافهمـــوا ... ولكنهـــا أبـــدا رائحـــة

(٧٢) حيث يقول :

قرأنـــا الكتـــاب جهارا وقـــد ... تبدى لـــه السـر فى الفاتحـــة
وجدنـــاه مـــن قبـــل تصحيفه ... ســـهل لـــه سبله الواضـــحة
وسـل قبل تسـع قبيـل البـروج ... يـرى ثـــم كالانجـم اللائحـــة
بتغيير ثانيـــه مـــع قلبـــه ... ومـع حذفـــه ثـــم بالرائحـــة

(انظر ، ابن حجر : الدرر ، ج ٣ ، ص ٩٣) .

(٧٣) هو يقول :

ومـــاشىء لـــه نفـس ونفـــس ... ويؤكـل عظمـــه ويحـك جلـــده
يـــود بـــه الفتى ادراك ســـؤال ... وقـــد يلقى بـــه مـــالا يـــوده

وهى طويلة فاجاب محيى الدين بابيات منها :

لقـد اهديت لـــى لغـزا بديعـــا ... يضـل عـن اللبيب لديـــه رشده
واحكمتـــه دراً نضـــيرا ... يشـــنف مســـمعى بالدر عقـده
فشـطر اللغـز خمسـاس ثــلاث ... للغـزك ان تـــرد الــى احـــده

(٧٤) يقول :

مولاى ما اسم لوحش نافر انسى ... فى ماربى منه أشياء جمعت فيه

حروفه أربع لكنها عجب ... ان زال أول حرف زال باقيه

فاجابه الشهاب المنصورى :

مولاى الغزت فيما ناب عن قمرى ... جيدا أو حاكى سوادا فى أماقيه

فالبعض لام حكت لامات سالفه ... وبعضه قد غزا فى الله باقيه

(٧٥) حيث يقول :

ان من قد هويته . ... محبتى فى وقوفه

فاذا زال ربعه ... زال باقى حروفه

(٧٦) حيث يقول :

البحر بحر والنخيل نخيل ... والفيل فيل والزراف طويل

والارض أرض والسماء خلافها ... والطير فيما بينهن يجول

واذا تعاصفت الرياح بروضة ... فالارض تثبت والغصون تميل

والماء يمشى فوق رمل قاعد ... ويرى له مهما مشى سيلول

(انظر (شوقى ضيف ، الفاكهة فى مصر ، ص ٩٤) .

(٧٧) حيث يقول :

التاج بالحق فوق الراس يرفعه ... اذا كان فردا حوى وصفا مجالسه

فضلا وبذلا وصنعا فاخرا وسخا ... واسال الله يبقيه ويحرسه

وتصديفه يكون هجوا كما قال :

الباخ بالخف فوق الرأس يرقعه ... اذا كان قردا حضوىوضعامخالبه

فصلا ونذلا وضيعا فاجرا وسخا ... فاسال الله ينفيه ويخرسه

(انظر ، ابن العماد ، شذرات ، ج٧ ، ص ٩٤) .

(٧٨) منها :

أطاع مسمعه الاصم ملامسا ... أم هل نراه اعاره المامسا

كلا واحور كالمهاة مصارم ... كل أطاع له هواه وهامسا

واعد غام وصالة لك ساعة ... واعد ساعة صده لك عاما

امحرما وصلا اراه محللا ... ومحللا صدا إراه حراما

(٧٩) ففى البخل قال بعضهم :

يفنى البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والايام ما تدع
كدودة القز ما تبنيه تهدمه ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

وعرف السلطان الغورى بالبخل حتى قال فيه البعض :

لا تعجبوا ان سعى كريم ... لحاجة فى يدى بخيل
فانه كالخلاء حتما ... لا بد فيه من الدخول

ومن اطرف ما قيل فى البخل والشح ·

ورب جار لنا شحيح ... ليس له بالجميل عادة
أعظم شىء تراه منه ... مساكم الله بالسعادة

(انظر ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١٩٨) ·

(٨٠) ومما قيل فى وفاء النيل :

قد وفا النيل رابعا عشر مسرى ... فملأ بشره قلوب العباد
جاء فى وقته اذا قلت اهلا ... بحبيب قد جاء فى الميعاد

قال بعض الشعراء فى ذلك ·

قد قلت لما تزايد نيلنا ... أو كاد ينزل ذروة المقياس
يا نيل يا ملك المياه باسرها ... ما فى وقوفك ساعة من باس

وقيل فى نقصانه :

تقاصر النيل عنا ... تقاصر المتتابع
حتى قنعنا اضطرارا ... منه بمص الاصابع

(٨٢)

النيل قال وقوله ... اذا قال ملء مسامعى
فى غيض من طلب الغلا ... عم البلاد منافعى
وعيونهم بعد الوفا ... قلعتها باصابعى

وقال بعضهم :

كان النيل ذرفهم ولب ... لما يبدو ولعين الناس منه
فياتى عند حاجتهم اليه ... ويمضى حين يستغنون عنه

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٣٦) ·

(٨٣) يقول :

اذا حللت ديار قـوم فاكسها ... حلـلا مـن الاكرام والاحسـان

واغضض وصن طرفاوفرجاواحترز ... لتطـا وزد فـى كثـرة الكتمـان

تكـن السـعيد مبجــلا ومعظما ... متحليـا بمحاسـن الايمـان

(٨٤) يقول مطلعها

اجاد لنا القاضى ابن فرفور احمد ... مديحـا بـه اثنى عليـه واحمـد

وقاضى قضاة الشام جاء يزورنـا ... ويثبـت دعـوى حبنـا ويؤكـد

وهى طويلة ايضا ووصفت بانها احسن من الاولى ٠

(٨٥) ومما قالته :

مودة شـراب السلاف ددامـة ... تبيـد بهـم عند انقضـاء المجالس

اذا جئتهم يومـا ارفـع ملمـة ... رجعت بمامـول من الفضل ايـس

لهـم صحبة لاروح فيهـا كانهـا ... شبيهة التصاوير التى فى الكنائس

(٨٦) هذان البيتان منسوبان للامام الشافعى (انظر ، ابو الفدا ، المختصر فى اخبار البشر ، ج٤ . ص ١٤٠) ٠

ومن ذلك ماقيل لحفظ البصر :

يا ناظرى بيعقـوب أعيذكمـا ... بما استعاذ بـه اذ خانـه البصر

قميص يوسـف الـداد علـى بصرى ... بشير يوسف فاذهب ايها الضرر

(٨٧) يقول ابو الفدا :

امروت كنا سبحت فيها الحصـى ... ورويت الركـب بسـاء طاهـر

على معاشى ومعـادى وعلـى ... ذريـتى وباطنـى وظاهـرى

(٨٨) ابن حجر ، الدرر ، ج١ ، ص ١٢٢ . ١٢٣ . وقائل البيتين هو احمد بن الحسن بن الدمشقى مجد الدين بن الخياط ، له ديوان شعر فى عدة مجلدات (ت ٧٣٥ هـ) ٠

فيقول ٠

وفى متشاعرى عصـرى انـاس ... أقـل صـفات شـعرهم بالجنـون

يظنـون القريض قيـام وزن ... وقافيـة ومـا شـاءت تكـون

(٨٩) فيقول :

وشاعر يزعم من غرة وفرط جهل أنه يشعر
يصنف الشعر ولكنه يحدث من فيه ولا يشعر

(٩٠)

ورب قحف قد أتى لنا به الدهر غلط
سالت عنه قيل لى هذا من النخل سقط

وقال آخر فى المعنى :

فقيه ريف يقول : انى برعت فى العلم والرواية
فقلت : لاشك انت عندى تصلح للدرس والدراية

(٩١) يقول ابو الفدا فى هذا المعنى وهو يرثى ابن جملة :

بكت المجالس والمدارس جملة لك يا ابن جملة حين فاجاك الردى
فاصعد الى درج العلا واسعد فمن خدم العلوم جزاؤه أن يصعدا

* * *

الفصـــل الثــالث

مجــالس الشراب والطرب

غنــاء •• موســيقى •• رقــص

مجـالس الشـراب

الواقع أنه مع تطور فنون الطرب ووسائله وانغماس الناس فيه من ذوى الجاه والشأن فان ذلك أدى الى الامعان فى الاستزاده من المتعة والتلذذ ، فارتبط الطرب بمظاهر ترفيهية أخرى مصـاحبة كالشراب وغيرها ، فأصبحت تقام مجالس للشراب والطرب ، تـدار فيها الكئوس بالخمر ، ومايصحبها من لهو ومجون ٠

وتشير المصادر الى اهتمام حكام المسلمين على مر العصور بعقد مجالس الشراب والطرب وأسرفوا فى ذلك حتى جاهر النـاس بالشراب ، وقيل ان أحدهم اتخذ بركة فى قصره كان يملؤها خمرا ثم ينزع ثيابه ويغتسل فيها ويشرب منها ، ويظل هكذا حتى يظهر النقص فى البركة ٠

وعلى الرغم من ذلك فان نفس المصادر تشير الى أن بعض خلفاء المسلمين لم يشربوا الخمر ، ولم توضع على موائدهم ٠

وأصبحت مجالس الشراب والطرب من الأمـور المألوفة فى العصور الوسطى ، فقد شغف بها كثير من حكام مصر ، حتى عصر المماليك الذين اظهروا بذخا كبيرا فى هذه المجالس ، فقد اعتادوا أن يكون لكل سلطان أو ملك جوقة من المغانى فى داره ٠

وأدى ذلك ببعض سلاطين المماليك الى تقريب أرباب الموسيقى والغناء الى مجالسهم ، وكانوا اذا سمع أحدهم بمغن ، أرسل فى طلبه ، وكلفه بتعليم جواريه الغناء ، كما فعل الناصر بن قلاوون مع المغنى كتيلة بن قرانغان ، الذى تخرج على يده كثير منهن ، وكان حسن الطرب بالجنك العجمى ٠

وكذا فان الأمير تنكز قرب اليه المغنى عمر بن خضر بن جعفر بن زاده الدشتى جمال الدين ابو سعيد ، وجعله يعلـــم الجوارى عنده ٠ وعندما علم الناصر بخبره استدعاه اليه ورتب له راتبا ٠

ورغم هذا التلازم بين الشراب والطرب فقد عولنا على أن يظهر كل منهما على حدة ، حتى يكون ذلك أدعى للتركيز ، ولأن كلا منهما يستحق أن يفرد له مكان بمفرده ، وهو ما سار عليه البحث فى هذا الفصل ٠

وعرف عن المماليك اقبالهم على اللهو والطرب ، فهذا الملك السعيد محمد بن الملك الظاهر بيبرس (٦٧٧ ــ ٦٧٨ هـ /١٢٧٨ ــ ١٢٧٩ م) ــ بعد أن أرسل جيشا الى سيس ــ أخلد الى الراحـة «وأخذ فى اللهو واللعب » ومايجرى فيهما من مسرة وشرب وغناء مما يدل على انتشار تلك المجالس حتى اصبحت مجـــالا للشعراء وظاهرة لا يمكن تجاهلها(١) ٠

وقد دعا الأمير سيف الدين على بن سابق الدين قزل المعروف بالمشد (ت ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م) الى معاقرة الشراب وحضور مجلس شرابه وطربه ، واصفا اياها بأنها تخفف الهمـــوم ، مؤكدا ذلك بتجربته الخاصة ، وهذا هو يصف الساقى فى هذه المجالس بمـا يتفق مع الموقف(٢) ٠ وله كذلك نظم فيمن يشربون الخمر وقد سماهم أهل الهوى يصفهم وهم ساهرون(٣) ٠

وانتشر هذا اللون من الشعر وصفا لمجالس الشراب والطرب واللهو حتى بلغ الأمر بأحد الشعراء أن يجمع كتابا ضمنه شعرا ونثرا فى الخلاعة والمجون سماه « الزرجون فى الخلاعة والمجون »(٤) ·

وكان المماليك بطبيعتهم يقبلون على الشراب ، حتى أصبح ذلك من عاداتهم المرعية حتى السلاطين كانوا يشربون الخمر مع أمرائهم وعرف من أنواع المشروبات ، شراب القمز أو القراقمز ، وهو عبارة عن لبن الفرس المحمض وقد عرف المماليك شربه فى موطنهم الأصلى ويعتقد أنه كان غير معروف فى مصر قبلهم والبوظة أو البوزة ، وهى تصنع من الدقيق أو التمر أو غيرهما ، وتلك قد عرفوا شربها من مصر ·

كما شربوا أيضا المزر ، وهو شراب يتخذ من الذرة ، ويبدو أنه كان منه نوعان ، فقد وجد نوع منه يصنع من القمح عرف بالمزر الأبيض ، وكان العامة يشربونه ، حتى ان اثمان القمح كانت ترتفع أحيانا بسبب ذلك مما دفع بعض الولاة الى كسر أوانى الشراب ·

ويبدو أن شراب المزر هذا هو (البوظة) فقيل ان أهل السودان بمصر كانوا يصنعونه ، ويعرف عندهم بالمريس ، حيث ان المنطقة التى كانوا يسكنون بها ـ بين القاهرة ومصر ـ كانت تعرف بهذا الاسم ··

ومنع النساء من أن تتعمم وتتزيى بزى الرجال ، وحبس المفسدات حتى يتزوجن وعم المنع مصر والشام ، فظهرت جميع البقاع ، وعندما وصل المرسوم بذلك الى الاسكندرية ، قال القاضى ناصر الدين بن المنير قاضى الاسكندرية فى ذلك شعرا به تورية لطيفة(٥) ·

وقد وصل الأمر بالسلطان الظاهر بيبرس الى أن يصلب أحد شاربى الخمر يدعى بابن الكازرونى ، ليكون عبرة لغيره ، وكان ذلك التشدد مثارا لتعليقات الشعراء ، فكان منهم المستحسن ومنهم المتهكم فى خبث ٠

هذا وان كان الظاهر بيبرس قد استدعى الأمير عز الدين الدمياطى فى جمادى الآخرة سنة ٦٧١ هـ/١٢٧٣م – بعد أن أفرج عنه – وشرب معه القمز وحضر ذلك أكابر الأمراء ٠

ويبدو أن شرب الخمر كان منتشرا حتى بين المسنين ، فهذا قطب الدين عبد الحق بن سبعين المرسى الصوفى وكان فيلسوفا (ت ٦٦٩ هـ/١٢٧١م) كان يشرب الراح يستر شيبته بخضاب رأسه ولحيته ٠

وتشير المصادر الى أن السلطان الظاهر بيبرس كان قبل موته قد عقد مجلسا لشرب القمز فى المحرم من سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧١ م وعظم سروره وفرحه ، فأكثر من الشرب ، وبعد انقضاء المجلس ، توعك وظل حتى مات ٠

ولعل السلطان بيبرس كان يرى أن شراب القمز ليس خمرا – مع انه مسكر – بدليل انه كان يواظب على شربه هو والأمراء ، حتى فى أيام منع المنكرات ٠

وكما قال الشعراء فى الخمر ، قالوا فى الحشيش ، فمنهم من ينكر تحريمه ومنهم من يذمها(٦) ٠

وكان السلطان الأشرف خليل (٦٨٩ – ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ – ١٢٩٣ م) يميل الى شرب الراح وحب الملاح ٠

والسلطان المنصور لاجين الحسامى (٦٩٧ – ٦٩٨ هـ / ١٢٩٧ – ١٢٩٨ م) عرف عنه فى صباه أنه انهمك فى الشرب « حتى

صار وهو بدمشق يعاقر أعيان أهلها وينعم فى مجالس اللهو عليهم ٠ وكان من عاداته أن يصطحب معه فى سرحات الصيد أرباب الملاهى ، هذا وان كان لاجين قد شدد فيما بعد فى منع المحرمات وحد فى الخمر بعض أولاد الأمراء ، حتى أصبح يصوم رجب وشعبان ، ويقوم الليل ويكثر من الصدقات .

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فقد أمر فى جمادى الآخرة سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م بادارة الخمارة بدار ابن جرادة ، ويقصد بها حانة الخمر والفسوق فظهرت الخمور والفواحش « وضمنت فى كل يوم بألف درهم » ٠

ويبدو أن الحشيشة كانت منتشرة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون حتى ان احد الشعراء ، وهو احمد بن الثقفى (ت ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م) يسوق شعرا موضحا مضارها وأثرها السيىء على متعاطيها(٧) ٠

هذا وقد أبطل فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الاحتفال بعيد الشهيد(٨) ، عند النصارى ، حيث أقام الأمير بيبرس الجاشنكير فى ابطاله ، وكان يباع فى ذلك اليوم من الخمر « بنحو مائة ألف درهم ، حتى انه فى سنة باع رجل نصرانى بمائتين وعشرين ألف درهم خمرا ، فكان أهل شبرا يوفون الخراج من ثمن الخمر ٠

وكان من عادة المماليك كذلك أن يقدموا فى بعض المناسبات مشروبات بريئة الى الناس عبارة عن شراب السكر والليمون الذى يجهز فى أحواض لهذا الغرض ، كما حدث عند قدوم السلطان من الشام بعد هزيمة التتار فى شوال سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م وزينت القاهرة ، كما كان يقدم مثل هذا عادة بعد الأسمطة ٠

ويبدو أن السلطان الناصر محمد هو أول من رتب المواكب بالقصر الكبير وشرب السكر بعد السماط ، وسار على ذلك من جاء بعده من السلاطين ٠

وتشير المصادر الى أن أهل الأدب كانوا أكثر الناس ميــلا للشراب والطرب فقيل أن عبد الرحيم بن محمد بن يوسف السمهودى (ت ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م) وكان ظريفا خفيف الروح « جاريا على مذهب أهل الأدب فى حب الشراب والشباب والطرب » ٠

ولعل كثرة ماقيل من نظم فى الخمر يدل على ذلك ، حتى قال أحدهم وهو الأديب ابن بيليك المحسنى (ت ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م ــ فى الخمر أبيات ماجنة يصف فيها الساقى والخمر(٩) ٠

ولعل ذلك يدل على أن شرب الخمر كان منتشــرا ليس فى القاهرة وحدها بل كان كذلك فى الاقاليم ٠

وكان بعضهم يفاضل بين الخمر والحشيش ويفضل الخمــر على الحشيشة(١٠) ٠

وفى فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثــة ، حدث فى بغداد مثلما حدث فى القاهرة فى عهد الظاهر بيبرس ، من تتويب الخواطى وتزويجهن « حتى لم يبق فى البلد خاطئة » ، وأريق الشراب « حتى لو صب فى دجله لغرق بغداد كثرة » ، كما منــع الناس من عصر العنب ، ونودى « أن من تخلف عنده شىء من الشراب يكون ماله ودمه للسلطان » وقيل قتل بسبب ذلك جماعة ٠

ويبدو أن هذا المنع لم يكن ليستمر طويلا ، فســرعان ماكان الناس يعودون الى ســابق عهدهــم فى الشــرب ، حتى انه فى عصر السلطان الكامل شعبان (ت ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م) اضطر الأمير

سيف الدين أرقطاى الذى عين نائبا فى حلب أن يبطـل الخمور والفجور « بعد اشتهارها » ٠

أما السلطان أبو بكر بن الناصر محمد ، فلم يبق فى الحكم الا شهرين الا يوما (٧٤١ ـ ٧٤٢ هـ / ١٣٤٠ ـ ١٣٤١ م) حيث خلعه الأمير الكبير قوصون نائب السلطنة لفساده وشربه الخمـر ونفى هو واخوته الى قوص ، وتولى أخوه احمد بن الناصر محمد الذى خلع هو الآخر لاشتغاله بملذاته وانعـــكافه على اللهو وبقى بقلعة الكرك حتى قتل سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م ليتولى أخوه الصالح اسماعيل ورغم انه قد سار من قبل على صراط مستقيم ، فانـــه افتتن بالملك وشغف بحب الجوارى ٠

وفى عهد الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد الذى تولى الحكـــم ســنة (٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م) ٠ فقد خربت بــلاد كثيــرة على الرغم من قصر فترة حكمه ، ويرجع ذلك « لشغفه باللهو ، وعكوفه على معاقرة الخمور وسماع الأغانى » ٠

والسلطان المظفر حاجى بن الناصر محمد فقد « انعكس مزاج الناس عليه بلعبه واقباله على اللهو والشغف بالنساء » ٠

وكان السلطان الناصر حسن يحب اللهو والطرب ، ويميل الى شرب الراح وحب القيان من النساء الملاح ٠

هذا وذكر أن الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى قد « انهمك على شرب الخمور ، وسماع الآلات والزمور ، واشتغل بذلك عن أمور المملكة ؛ فخلعه الأمير يلبغا العمرى وسجنه بدور الحريم بالقلعة واستمر فى لذاته فكان فى مدة سجنه بالقلعة « يسلى نفسه عن الملك بشرب الراح وسماع المغانى ومشاهدة المــلاح ، فكان لا يصحو من السكر ليلا ونهارا » ٠

والسلطان الظاهر برقوق الذى عرف عنه عدم رغبته فى اللهو والطرب كان « بعض الأوقات يوم الأحد والأربعاء ، يشرب القمز مع بعض خواصه من الأمراء ، لاجل انشراح صدره واذهاب غمه »

وفى سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٥ م من عهد السلطان الظاهر برقوق ، أحدث الأمير تمربغا المنجلى شرابا من الزبيب ، يعمل لكل عشرة أرطال من الزبيب أربعون رطلا من الماء ، ويدفن فى جرار بزبل الخيل أياما ، ثم يشرب فيسكر ·

« وصار يقال له التمربغاوى » واقبل السلطان على الشرب منه والامراء ولم يعرف عنه أنه يتعاطى المسكر قبل ذلك ·

وفى عهد المنصور عبد العزيز ، تولى الاتابك بيبرس أمور السلطنة مع عدم أهليته لتصريف أمور الدولة « لانهماكه فى اللذات ولا نعكافه على اللهو والطرب عمره كله ، لا يميل لغير ذلك ، ومنذ مات خاله الملك الظاهر برقوق لم يدخل بنفسه فى أمر غير هذا المعنى المذكور(١١) ·

وكان السلطان الناصر فرج مسرفا على نفسه منهمكا على شرب الخمور وسماع الزمور · ففى سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م عاد السلطان فرج الى قصورد بعد أن ركب للعب الكرة « فعكف على شرب الخمر » ، وكان يخرج للتنزه الى بر الجيزة ويطلع الى القلعة » كل ذلك وهو لا يملك نفسه على فرسه ، من شدة السكر وكان يستقبل زواره وهو فى مجلس شرابه ويشربون معه ·

ومن أن لآخر درج شعراء العصر أن يصفوا لنا مجالس الشراب ، والقائمين عليها ، فهذا أحدهم وهو على بن أيبك بن عبد الله الدمشقى الشاعر (٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م) يسوق لنا نظما فى هذا المجال(١٢) ·

هذا وقد أقبل العامة على شرب الخمر ، لذا فقد ارتبط بذلك انتشار بعض الخرافات ، والاعتقادات المتعلقة بها ، كما هى عادة العوام فى سرعة انتشار مثل ذلك ، فقد قيل انه اجتمع رجلان من العوام بدمشق فشربا الخمر ، فأصبحا محروقين دون أثر للنار فى غير بدنهما ، وبعض ثيابهما ، وانتشر ذلك بين الناس فاقبلوا افواجا لرؤيتهما للاعتبار •

ومهما يبدو فى مثل هذه الروايات من سذاجة ، وبعد عن الواقع فانها توضح لنا جانبا مهما من حياة الناس فى ذلك العصر ، فبرغم الاقبال على شرب المنكرات وتفشيها ، فان الناس لم ينسوا ذلك الوازع الدينى والضمير الحى الذى ينكر ذلك •

ويستمر الشعراء فى وصف الخمر وشاربها والقائمين على سقايتها فهذا محب الدين أبو الوليد محمد (ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢م) ابن الشحنة يتغزل فى الساقى غزلا مكشوفا ، ويبدو ان ذلك كان من طبيعة العصر ، حيث كان الساقى يتمتع بشغف الشاربين ورواد المجالس ، ويظهر أن السقاة كانوا يختارون من ذوى الجمال وحسن السمت(١٣) •

وأدى انتشار الخمر بهذه الصورة الى ان بعض القضاة(١٤) اثناء مباشرتهم أعمالهم لم يتورعوا عن اراقة الخمور وازالة المنكرات ، وقد يتعرضون نتيجة لذلك لتعصب البعض عليهم ، وقد يصل الأمر الى عزلهم •

والغالب أن منع الخمور والمنكرات كان مرتبطا بما يحدث من ازمات كانت البلاد تتعرض لها ، فكان المعاصرون يفسرون تلك الأزمات والاوبئة التى تحل بهم فى ضوء فساد الناس وخروجهم

عن طاعة الله واسرافهم فى المعاصى مثل شرب الخمر وغير ذلك لذا نجد أن الدعوة الى التوبة الى الله تعلو فى أوقات تلك الازمات فيسارع الناس الى اراقة الخمور ، والبعد عن السيئات ، عسى أن يكشف الله عنهم الغمة ، وذلك مثلما حدث سنى ٧٠٩ و ٧٨١ ، ٨٣١ و ٩٢٢ فقد منعت الخمور وحرم تعاطيها فى انحاء البلاد ٠

ولكن كما سبقت الاشارة فان تلك الأوامر لم تكن ليستمر مفعولها طويلا ، اذ لا يلبث أن يعود الناس الى سابق عهدهم .

وقيل انه فى عصر الأشرف قايتباى قبض على شخص وهو سكران فى رمضان فضرب بالمقارع وشهر به فى القاهرة ٠ كما أخذ رجل آخر سكران وهو يشرب الخمر فى النهار « فضرب الحد وطيف به ، فثار به عامة الصليبية فقتلوه ثم أججوا نارا فألقوه فيها » ٠

وفى عهد الأشرف قايتباى ايضا قبض الوالى على جماعة من المماليك الأروام وهم يشربون الخمر فى نهار رمضان فضربهم وأشهرهم فى القاهرة ثم سجنهم ٠

أما السلطان المؤيد شيخ المحمودى فكان يميل الى شرب الراح ، ففى عهده « الزم التاج الوالى بالقاهرة اليهود والنصارى بحمل الخمور فوزعت على الأسارى وغيرهم » ٠

وعرف عن السلطان الظاهر ططر عفته عن سائر المنكرات ٠ وكذا السلطان الظاهر جقمق ، فقد كان على خلاف من سبقوه من السلاطين ينفر بطبعه من اللهو والمجون والطرب ٠

وتشير المصادر كذلك الى ان السلطان الناصر محمد بن قايتباى « وكان متقيا فى نفسه ، لم يشرب قط خمرا ، ولا كان

يستعمل شيئا من الأشياء المخدرة » . وله اشتغال بالعلم كثير المطالعة في الكتب .

أما السلطان قنصوه الغورى ، فلم تشر المصادر انه شرب خمرا - برغم كثرة متنزهاته ومجالسه - بل نودى فى عهده « بقنع النبيذ والحشيش والبوزة ومنع النساء الخواطى من عمل الفاحشة واستمر يشهر المناداة بذلك ثلاثة أيام متوالية » . بل لقد أمر السلطان الوالى بما فحواه « كل من وجدته من الفقهاء وهو سكران فاقبض عليه .. » .

ويبدو ان ذلك كان أيام تزايد الطاعون ، وكان ذلك مما تعارف عليه الناس فى ذلك العصر كما سبقت الاشارة .

وحكى أن أحد الشعراء مر على قوم جلوس للشرب ، وكان معروفا لهم ، فدعوه عندهم يذاكرهم ، وبينما هم كذلك اذ جاء جماعة الوالى فأخذوهم وأخذوه معهم ، فلما عرضوا على القاضى عرفه فوجه اليه اللوم(١٥) .

وكان السلطان الغورى مغرما بتقديم الفاكهة والحلوى لمجالسيه وكذا شراب السكر والليمون مع انه كان مغرما بالطرب والغناء وهذا ما سوف نوضحه فيما بعد .

واعتاد المماليك بعد رمى القبق ان يدعى الأمراء والمشتركون لشرب سكر مذاب وهم جالسون فى خيمة تقام خصيصا لهذا الغرض ، فيمر السقاة على الأمراء بالأوانى المصنوعة من الذهب والفضة والبلور . أما الاجناد فتشرب من أحواض قد يبلغ عددها المائة حوض .

وقد كان لبعض السلاطين مضحكون ، يضحكونهم فى مجالسهم ومحافلهم فكان للسلطان الغورى نديم يضحكه يدعى

« الشنقجى العجمى » يلعب بالصدون النحاسية والجريد ، كما ان الناصر محمد بن قلاوون كان له مضحك يسليه فى مجالسه .

ويبدو ان هذا التقليد قد استمر بعد عصر المماليك حتى العصر العثمانى بدليل انه وصلتنا تصويرة من مخطوط المهرجان « سور نامه » محفوظة بمتحف طوبقا بسراى ، تمثل السلطان أحمد الثالث فى مجلس طرب وأنس يحضره بعض المضحكين يبدون فى أسفل الصورة ، وهم يقومون ببعض الحركات المضحكة .

وبلغ من اهتمام سلاطين المماليك بمجالس الشراب ومستلزماتها الى أن أنشأوا دارا ضمن الدور السلطانية تعرف بالشراب خاناه « يعين لها موظف من الامراء يدير شئونها من يعرف بشاد الشراب خاناه يختار عادة من بين أمراء المئين أى أمراء الطبلخاناه ، وهو المسئول عن الأصناف الواردة الى خزانة الشراب من السكر والفواكه والحلوى والشراب ونحوها .

وبلغ من أهمية هذا الموظف ما يوضحه قول ابن اياس عن متولى هذه الوظيفة فى عهد الناصر محمد فيقول « فلما بقى شاد الشراب خاناه اجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار السعى لأرباب الوظائف من بابه ، وعولت الناس على اشغالها فى رد جوابه .

وقد نال هذا الموظف رعاية السلاطين ، فحظى بانعاماتهم ، فالسلطان الأشرف قايتباى « قد أنعم على برقوق شد الشراب خاناه بتقديمه ألف » ثم كان هناك موظف آخر يختص بالشراب خاناه وهو مهتار الشراب خاناه(١٦) ، وهو يرأس طائفة الشراب دارية وهم الغلمان المكلفون بالخدمة فى تلك الدار .

هذا وقد ورد فى المصادر المعاصرة أن السقاة الذين يوكل اليهم أمر المشروب ، عليهم النصح حسبما تقتضيه وظائفهم ، وعلى الساقى أن يراعى أمرين :

الأول : الا يحضر لمخدومه منكرا يشربه ، وعليه أعمال الفكر والحيلة فى سد هذا الباب وابعاده عن الأمير بقدر طاقته ، ولـه فى ذلك أن يكذب أما اذا كان الأمير جبارا فعليه التوسط ودفـع المنكر ما أمكنه خاصة فى الأوقات التى يجلس فيها الأمير للحكـم بين الناس خشية ان يحكم وهو سكران ·

الأمر الثانى : هو ان يحفظ حقوق مخدومه والخشية عليه من أن يدس له فى المشروب ما يهلكه من سم ونحوه · ويقال ان جماعة من المماليك السقاه قتلوا مخدوميهم لأغراض الدنيا ، فلـم يحصلوا على شىء مما أملوه ·

ومع ذلك فان لدينا خبرا مؤداه ان السلطان الناصر قتـــل الأمير بكتمر بالسم والمعروف أن بكتمر كان هو ساقى الملك الناصر ·

وتجدر الاشارة الى ان مجالس الشراب ـ كما اشرنا فى البداية ـ كانت مرتبطة فى غالب الأمر باسباب الطرب من غنـــاء وموسيقى ورقص أحيانا فقديما قيل : ان « غناء بلا شراب كنحلة بلا عطية ، وهدية بلا نية ، ورعى بلا مطر ، وشجر بلا ثمر ، وحداء بلا بعير ، وروضة بلا غدير . قال الرشيد : النكس الذى يشرب على غير سماع ·

ذلك ما كان يجرى زمن سلاطين المماليك ، فكثيرا ماصحب الشرب غناء ، ولهو ومجون فى بعض الأحيـان ، وان كان بعض السلاطين قد عقدوا مجالس للطرب خالية من الشـــراب الا غير

مسكر ، كما وجد من السلاطين من لم يعاقر الخمر ، ومع ذلك كان مولعا بمجالس الطرب غناء وموسيقى ·

ولوحظ كذلك ــ من خلال المصادر ــ اقتران اسماء كثير من الشخصيات فى العصر المملوكى بمجالس الطرب أكثر من اقترانها بمجالس الشراب ·

ولعل ذلك هو ما أوجب أن يفرد للطرب حديث يتناول مجالسه وهو ما نعرض له فيما يلى ·

مجالس الطــرب :

قيل فى الطرب والأسباب الباعثة عليه انه ما استفز الانسان من الفرح والحزن ، وليس يختص بالغناء وحده ولا بالملاهى ، بل يستفز الانسان للشعر والحديث ولذكر الجود وللمواضع الحسنة ، ولكل منظر رايق وحديقة مونقة · ومنه ما يعرض عند الخوف ، وذكر الموت ، والفجيعة ، والنعى والفراق ، والصلة السيئة ، ولقاء المحبوب ·

فلكل حاسة من حواس الانسان ادراك ، وان فى مدركات كل حاسة ما يستلذ ويكره ، فلذة حاسة البصر ــ مثلا ــ « فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن ، وسائر الألوان الجميلة وهى فى مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة والقبيحة » ·

الغنــاء :

أما الطرب للغناء ، فطرب كل انسان على مايوافقه ، ويأتى على ما فى نفسه « وكلما علت معرفة الانسان بالغناء قل طربه ، لقلة ما يعجبه واطلاعه على الخلل والزلل والنقص والتبديل » ·

وقيل : فضل الغناء على الكلام كفضل الكلام على الخرس ٠

ويرى البعض أن الالحان ، والموسيقى ، ـ وهى مصاحبة للغناء ـ ليس الهدف من وضعها الالتذاذ بسماعها فحسب ، وانما قصد بها ضروب من المداواة والسياسة والتخيل « لاحالة البخيل الى السخاء والساخط الى الرضا والقاسى الى الرقة ، والجبان الى الشجاعة ونقل النفس من حال الى حال ٠

وقال حجة الاسلام ابو حامد الغزالى (رضى الله عنه) الطرب يسوق النفوس الى موطنها الاصلى ، فاذا انساقت النفوس الى موطنها طلبت عنصرها ، فيعقبها عن ذلك البدن الكثيف فتهوى راجعة ، وهو غناء الأرواح وله أثر فى البدن ٠٠ »

وحدث أن أحد المطربين مر على جماعة من مثله ولما غنى عليهم أطربهم وتغيرت أحوالهم بتغييره عليهم حتى ضحكوا ضحكا شديدا ثم غير عليهم فبكوا بكاء شديدا واستمر بغير عليهم حتى ناموا جميعا ٠

وتلك الرواية تشير الى استخدام آلات الطرب مع الغناء ، وأن من تلك الآلات ماكان معقدا ، كما توضح أثر الطرب فى النفوس فمنه المضحك ومنه المبكى ، والمنوم ، ويتوقف ذلك على مهارة العازف والمطرب ، وتهيئة نفوس السامعين ، وقيل الرقص (سبب فى تحريك السرور والنشاط) واظهار « السرور بالنغمات والشعر والرقص والحركات محمود » ٠

وما من شك فى أن وسائل الطرب ومجالسه ، قد حظيت باهتمام الناس على مر العصور ، فلكل عصر وسائله فى تحقيق الطرب وان تشابهت فى معظم العصور ، مع اختلاف اقتضته سنة التطور ، وأفرزته المدينة والتحضر ٠

وكان المماليك يقبلون على الاستمتاع بالحياة ، وخصوصا ان مصر بغناها وثروتها جعلت نفوسهم تميل نحو الابتهاج بالحياة لذلك اقبلوا على الملاهى وأحاطوا أنفسهم بأربابهـا • فكان بعض السلاطين يميلون الى سماع الموسيقى والغناء ، وأقاموا لذلـك المجالس الحافلة والليالى الملوكية النادرة •

وقد ذكر ان أصول الملاذ (اللذات) فى الدنيا ثلاثة ، وقيل أربعة وهى « المأكول والمشروب ، والنكاح (المنكوح) والمسموع الطيب ، والمنظر الحسن ، وهى بمصر أكمل من غيرها » •

وكما شغف السلاطين المماليك ، شغف ايضا الناس فى ذلك العصر بسماع الموسيقى والغناء ، ومما جعل للموسيقى والغناء اهمية كبيرة فى ذلك العصر ، تشجيع السلاطين واغداقهم على المغنين والمغنيات ، ثم انتقال الأغانى الى الناس عن طريق السماع ومع ذلك كان هناك من ينفر من الغناء ولا يحضر مجلسه(١٧) •

وتطالعنا المصادر المعاصرة بأخبار بعض السلاطين والأمراء الذين اضـــطهدوا المغنين والمغنيـــات ، كالملك الظاهر بيبرس الذى أمر سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م باغلاق الحانات ، ولاسيما ماكان منتشرا منها بالاسكندرية ، وكذا أرباب الملاهى والخلاعة والمجون ، حتى ضاقت بهؤلاء سبل العيش ، فى عهده وقل عددهم ، واستراحت البلاد من مفاسدهم •

وقد ضرب هذا السلطان المثل فى السلوك والقدوة ، حتى انه فى حفل ختان ابنه الامير نجم الدين خضر سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٥ م لم يقبل من أحد هدية ، ولا تقدمة ، ولم يبق من يشمله احسانه من سائر الطوائف الا المغانى وأرباب الملاهى ، فانه لم تنفق لهم فى طول أيامه سلعه ولا نالهم منه رزق ألبتة » •

ولا شك فى ان الألحان تكسب النشاط والحركة ، وانجـــاز الاعمال فى أيسر مدة ، وأدرك سلاطين المماليك ذلك فحدث انه عندما خرج السلطان المنصور قلاوون الى جهة البحيرة ، لحفر البحـــر المعروف بالطيرية من أجل منفعة البلاد ، وباشر العمل بنفسه هو وأولاده ومماليكه واستأجروا جماعة ممن أظهروا الهمة ، وحضر اليه جمع غفير من الناس بالطبلخانات « وحضرت مغانى العرب وغيرهم من كل جهة ، فنجز العمل فى أيسر مدة » ٠

وبرغـم اظهار بعض الســلاطين الاضطهاد للغناء وأربابه ، فان الناس ظلوا على شغفهم بالطرب والغناء ، حتى بعض الفقهاء ورجال العلم لم يتورعوا أن يظهروا ميلهم لتلك الفنون فان أحـد الصوفية وهو الشيخ عبد الله بن كتيلـة وهو من شـــيوخ العراق (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) كان ـ مع علو قدره ـ « يترنم ويغنى لنفسه فى بعض الأوقات » ٠

وبلغ الأمر أن بعضهم(١٨) وكان « مرتاضا محبا للسماع ، أوصى أن تخرج جنازته بالدفوف والشــبابة ، وتمنع النائحات والباكيات عليه » ٠

وكان بعض الوعاظ يحضرون السماع وهو حلقات الذكـر التى تقيمها الصوفية يتناشدون فيها الأشعار بانتظـــام وحركات خاصة ، ويتظاهر فيها البعض بالتواجد ٠

وشارك العوام فى الغناء فى مناسبات كثيرة ، منها ماحدث عندما رسم السلطان المظفر بيبرس الى شنكير سنة ٧٠٩ هـ بفتح السد من غير وفاء ، وقد نقص عن الوفاء ثلاث أصابع « فصنف أهل مصر كلاما ولحنوه وصاروا يغنون به ، فى اماكن المفترجات وغيرها وهم يسخرون من السلطان »(١٩) ٠

ولما سمع السلطان بذلك أمر الوالى بالقبض على جماعة من العوام فضرب بعضهم بالمقارع واشهرهم فى القاهرة على جمال ، كما رسم بقطع ألسنة بعضهم .

ويدل ذلك على أن العوام فى العصر المملوكى ، عبروا عن سخريتهم وسخطهم عن طريق الغناء التلقائى الذى ينقدون فيه أوضاع الدولة كما تظهر جانب الشدة فى معاملة الناس عند بعض السلاطين .

وحدث أن استأذنت احدى المغنيات تدعى النصيفة للدخول على جماعة كان معهم الأديب حجازى بن أحمد صفى الدين (ت ٧٠١ هـ) ، وكانت تغنى شعره فأجابها على الفور شعرا وطلب منها الغناء(٢٠) .

وكان السلطان المنصور لاجين « يصحب معه فى متصيداته أرباب الملاهى » ، وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون كذلك شغوفا بحب الجوارى والمولدات والسود بحيث بلغت عدتهن عنده ما يزيد على ألفين ومائتى وصيفة ، وكان يستدعى من يعلمهن الغناء كما سبقت الاشارة وعندما سمع عن المغنى على بن عبد الله الماردينى ـ وكان من مماليك صاحب ماردين ، واشتهر بضرب العود ـ استهداه من صاحبه ، فأرسله اليه وحظى عنده الى الغاية « فلما مات الناصر تاب من ضرب العود وكسر آلاته مع انه كان لا نظير له فيه » .

كما اشتهر من مغنى مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون المغنى عبد العزيز المعروف بابن الفصيح (ت ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م) الذى « كان اعجوبة زمانه فى صناعة الغناء »(٢١) .

ولما عاد السلطان الناصر محمد من الشام بعد عودته من الحج « فزينت له القاهرة ولاقته القضاة الأربعة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، ولاقته المغانى » .

وعندما اتم الناصر محمد عمارة القصر الكبير المعروف بالقصر الأبلق جمع القضاه الأربعة والأمراء ، وقرأ ختمة ، ومد سماطا حافلا وملأ الفسقية التى بالقصر سكرا وليمونا ، وشرب الناس بالطاسات ، كما أخلع السلطان على جميع الطوائف الذين اشتركوا فى البناء ، وفرق على الفقراء فى ذلك اليوم نحو خمسين ألف دينار « ثم أحضر آخر الليل المغانى وأرباب الآلات ، ووقد بها وقدة عظيمة ، وبات بالقصر تلك الليلة ، وكانت ليلة ملوكية » .

وقد فرضت الدولة على المغنين والمغنيات فى ذلك العصر ضريبة عرفت باسم « ضمان المغانى » ويذكر ابن اياس أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أبطل ضمان المغانى وكان « عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا ، وذلك لو خرجت أجل امرأة من نساء القاهرة تقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة ، وقامت بما يلزمها من القدر الذى يتعين عليها ، فما قدر أكبر من فى الحكام يمنعها عن البغاء وعمل الفاحشة ، وكان يحصل من ذلك لنساء أعيان مصر ، وبناتهم ، غاية الفساد » . وكان ضمان المغانى يمثل مصدرا كبيرا للاموال بالنسبة للدولة .

ويبدو أن ابطال ضمان المغانى فى عهد هذا السلطان قد ارتبط بابطال البغاء فيقول ابن اياس « فابطل هذه الفاحشة العظيمة من مصر » .

وحديث ابن اياس عن البغاء يدل على ما كانت عليـه بعض النسوة فى مصر ، وما كانت تتمتع به المرأة المصرية فى ذلك العصر من حرية خارج المنزل فى شوارع القاهرة وأسواقها ومتنزهاتها ، وبطبيعة الحال لم تكن كلهن يسئن استغلال تلك الحرية انما هى على أكبر الظن فئة محدودة عرفها التاريخ فى كل العصور وكل الأمـم ٠

هذا ويذكر بعض المـــؤرخين أن ســـانوتو (Sanuto)، وهو رحالة أجنبى زار القاهرة فى عصر المماليك ، لاحظ هو وغيره ما كان بعض النسوة عليه فكن يتغيبن عن منازلهن فى أوقات كثيرة من النهار ورغم ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن وان كان هذا القول فيه ظلم كبير لكثير من النسوة فى ذلك العصر ٠

هذا وقد حظى المغنون والمغنيات وأيضا العازفون على الآلات الموسيقية باهتمـام الشـعراء فى عصـرهم فنظموا فيهم كثيرا من اشـعارهم(٢٢) ٠

وكانت طوائف كثيرة من الشعب لها المام بالموسيقى ، حتى الوعاظ ، كان لبعضهم ميل نحو الموسيقى ، كما كان الشيخ شرف الدين عيسى بن محمد بن محمد السهرودى (ت ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩م) يعرف الموسيقى وسوف نشير الى امثله اخرى عند الحديث عن الموسيقى فى هذا الفصل ٠

أما السلطان ابو بكر بن الناصر محمد فكان منكبا على اللهو ومعاقرة الخمر بشكل بخس حرمة الملك ، بحيث صـار « يطلـب الغلمان فى الليل ويبعثهم لاحضار المغانى » فيطلعون اليه رجـالا ونسـاء ٠

واعتاد المماليك فى المناسبات أن يضربوا الكوسات(٢٣) وطبلخانات الأمراء فى مناسبات كثيرة مع اقامة الزينة فى مصر والقاهرة ، مثلما حدث بعد أن عوفى السلطان أبو بكر من مرض ألم به حيث « ضربت الكوسات وطبلخانات الأمراء يومين » واقيمت الزينة عشرة أيام ٠

ولاشك أن تلك المناسبات كانت مجالا رحبا للناس فى عصر المماليك للفرجة يجدون فيها متنفسا لهم وترفيها ، بما يعزف من موسيقى وما يقام من زينة وان كانت تلك الزينة قد مثلت عبئا على الناس لكثرتها كما سبقت الاشارة ٠

وعرف عن السلطان الصالح اسماعيل شغفه بحب الجوارى السود « وأفرط فى محبة اتفاق العوادة ، وفى العطاء لها ، وقرب أرباب الملاهى وأعرض عن تدبير الملك باقباله على النساء والمطربين » ٠

هذا وقد أعيد فى أيام الملك الكامل شعبان بن الناصر « ضمان أرباب الملاعيب وعدة مكوس » كما شاعت محبته الزائدة لاتفاق العوادة التى قيل أن قيمة عصبتها التى على راسها بلغت مائة الف دينار ٠

والسلطان المظفر حاجى قد شغف أيضا بمحبة اتفاق العوادة المذكورة وصارت محظيته ، وسمع المغنى اسكندر بن كتيلة الجنكى وكذا دبيقة مغنية عرب الجيزة ، وكانت من المخايلين بالقلعة ٠

ومن محظياته أيضا : سلمى والكركية وكيدا ، وقيل انه كان لا يفارق كيدا هذه ٠

كذلك كان السلطان الناصر حسن « كان يحب اللهو والطرب» ويميل الى شرب الراح ، وحب القيان من النساء الملاح ، وكان

يميل الى سماع الآلات ، ويقرب المغاني ، ويحب أربـــاب الفن من المغانى قاطبة ٠

كما كان يتخذ من مغن اســـمه « عطعط » نديما لـــه ، والى جانب نديم آخر يدعى « الدخان » المشبب وكان يحضر فى مجلسه ٠

وفى عهد الناصر حسن كثر اقتناء الجـوارى لـدى الأمـراء ورجال الدولة حتى أن الوزير فخر الدين ماجد بن خصيب كان لديه « سبعمائه جارية » ، وكان عنده جاريتان برســم المطبخ ، تحسن كل واحدة منهما ثمانين لونا من التقالى سوى بقية الوان الطعام ٠

ويحكى أن محمد بن عيسى حسن بن كر البغدادى الذى ولى مشيخة الزاوية التى بجوار المشـــهد الحســـينى (ت ٧٦٣ هـ / ١٣٦٢ م) قد أخذ علم الموسيقى عن غير واحد ، وفاق الأقران ، وصنف فيه تصنيفا بديعا « وصار فى فنه لا يلحق ونقل مذاهـب القدماء وحررها ، وأخذ نفسه بألا يمر به صوت مما ذكره أبـو الفرج الاصفهانى الا يجىء به على وجه » : وقيل انه لم يتكسب بصناعة الموسيقى » وكان يغنى فأضحك ثم غنى فأبكى فنوم « وقال ابن الصائغ الحنفى : « مر بن كر على قوم يغنون فدرك بغلته حتى مشت على ايقاعهم » ٠

وحدث عند دخول الملك الصالح صلاح الدين الى القاهـــرة عائدا من دمشق سنة (٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م) اقيمت الزينة فى موكب حافل « واصطفت له المغانى ، من الرجال والنساء على الدكاكين وكذلك الطبول والزمور » ٠

والسلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى عزل بسبب انشغاله عن أمور المملكة بشرب الخمور وسماع الآلات والزمور ، « وكان

عنـده جوقـــة مغان نحو عشـــر جـوار ، يزفون بالطارات عند الصباح وعند المساء » . ويبدو أن ذلك كان من عادات الاكابر من أهل مصر ، حيث تقف عندهم الجوارى المغانى ولكن ذلك أبطل .

وقيل « لما مات الملك المنصور ، اســتمرت جواريه المغانــى يعملن الأفراح للناس وكن يعرفن بجوقة المنصور »(٢٤) . ى

وفى عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ، أسقط ضمان المغانى ، وذلك بعد أن اجتمع به قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة والشيخ سراج الدين عمر البلقينى » وعرفاه ما فى ضمان المغانى من المفاسد والقبايح » فأمر السلطان بابطال ضمان المغانى والأفراح بجميع اعمال مصر من أسوان الى العريش ويذكر المقريزى أن وزراء السوء كانوا قد أعادوه « لكثرة ما يتحصل منه » .

وكان يدفع للضامنة من أهل العرس ــ حسب حالهم ــ مبلغ خمسمائة درهم أو يزيد ، وكان على كل مغنية قطيعة تحملها الى الضامنة ، « فان باتت فى بيتها قامت بمال للضامنة » وكانت تراقب المغنيات بواسطة جماعة خصصوا لذلك « فتدور فى كل ليلة على بيوت المغانى جماعة من جهة الضامنة لمعرفة من باتت منهن خارج بيتها » ، كما كان يفرض على البغايا ضرائب مقررة .

ويبدو أن ذلك لم يكن مقصورا على القاهرة وحدها ، بل انه امتد الى بلاد الصعيد والوجه القبلى ، حيث كانت تفــرد حارات للمغانى والبغايا « تقوم كل واحدة منهن بمال مقرر » .

وبطبيعة الحال أدى ذلك التساهل من جانب الحكومة ، مع هؤلاء البغايا الى التجاهر بالزنا وشرب الخمر ، حتى انه « لو مر غريب بتلك المواضع ــ دون أن يقصد الزنا ــ لألزم بان يأتى بغيا

من تلك البغايا ويكره على ذلك ، أو يفتدى بمال يدفعه اليها » حتى تقوم بما عليها من الضريبة •

هذا وقد أهدى الى السلطان الأشرف شعبان من صاحب استانبول هدية فيها « صندوق عمل بمحركات هندسية ، فاذا مضت ساعة من الليل والنهار اخرجت تماثيل بنى آدم ، وضربت بصنوج فى أيديها ، وأنواع من آلات الملاهى معها ، واذا مضت درجة سقطت بندقة » •

ويبدو أن تلك الهدية كانت عبارة عن ساعة كبيرة شبيهه بما تراه اليوم على أشكال مختلفة وحيل متابينة •

هذا وقد كان لبعض المغنيات دور كبير فى حياة بعض السلاطين فالسلطان الأشرف شعبان ابان صراعه مع كبار الأمراء قد اختفى فى بيت احدى المغنيات وهى المغنية آمنة بنت عبد الله امرأة ابن المتولى ، بحارة الجودية وكان يعرفها قبل ذلك .

ويبدو انه فى عصر المماليك كان هناك لون من الغناء الجماعى الذى تمثل فى أغانى العمل • وقد سبقت الاشارة الى بعضها عند حفر البحر المعروف بالطيرية فى عهد السلطان المنصور قلاوون ••

وهذا نموذج آخر من عهد الملك الأشرف شعبان ، عندما حاول السلطان جر عمودين عظيمين الى عمارته تحت القلعة وعجز الناس عن جرهما ، ولكن استطاعوا بعد جهد تحقيق ذلك فى عدة أيام « وكان للعامة فيها اجتماعات بطبولهم وزمورهم وقالوا من نزهاتهم فى جر العمود غناء تداولته ألسنتهم عدة سنين » •

ويبدو أنهم اهتموا بتسجيل تلك الواقعة ، فظهر بالاسكندرية قماش سمى « جر العمود » وهو من حرير خصص للبس النساء •

وذكر انه فى عهد السلطان المنصور على أعيد جمال الدين محمود العجمى الى حسبة القاهرة ، ففرح العامة بذلك كثيرا » وكادوا يحملون بغلته وهو عليها بالخلعة ·· وبالغوا فى اشعال الشموع والقناديل بالقاهرة ، ووقفت له المغانى تزفه اذا مر بها فى مواضع عديدة » ·

وحدث ايضا ان الأمير الكبير برقوق قد أمر بابطال ضمان المغانى فى نواح عديدة من مصر والشام ، كمدن حماة والكـــرك والشوبك ، ويبدو أنها كانت قد عادت فى مصر فى بعض النواحى حتى أمر بابطالها كذلك فى ناحية منية ابن خصـــيب من أراضى مصر ، وفى ناحية زفتا(٢٥) ·

وكان المحتسب يراعى تنفيذ تلك الأوامر بمنع المغانى والمنكرات حتى ان المحتسب الأمير جمال الدين محمود قبض على جماعـــة وقدمهم الى والى القاهرة الذى فرض عليهـــم غرامة مالية كبيرة وصلت الى مائة ألف درهم « وذلك أنهم ضربوا خيمه على جانب البحر يتفرجون فيها وعندهم مغان » ·

مع انه عندما حدثت واقعة سرقة ابن القماح وهو أحد التجار بقيسارية جهاركس لحوانيت القيسارية ، محتالا على الحارس ، قبض عليه وعلى ولده وحمل المال المسروق على عدة حمالين « وسار بهم والمغانى تزفهم الى الامير الكبير ، والعمله من ورائهـــم على رؤوس الحمالين والمغانى تزفهم فى شوارع القاهرة ·

وأحيانا يكون التشهير على جمل والمغانى تزفه ويطوفون به البلد كما حدث لشخص فى ولاية دمياط فى عهد المؤيد شيخ ·

ولعل ذلك يوضح استخدام المغانى فى غير غرضـــها وهو الطرب وانما استخدمت فى التشـــهير أو التجريس بمفهوم ذلك العصر ·

أما فى عهد السلطان الظاهر برقوق فقد تعرض بعض المغنين المشهورين لحادث لقوا فيه مصرعهم ، فتشير المصادر المعاصرة الى ان السلطان برقوق أقام احتفالا بمناسبة المولد النبوى عام (٧٩٠ هـ / ١٣٩٠ م) وحضره ابراهيم ابن الجمال رئيس المغنين وشقيقه خليل رئيس المشببين وعملا السماع بحضرة السلطان ـ كما جرت العادة ـ وبعدها حضرا حفلا آخر دعيا اليه بطبقة فى رحبة الخروب ، وبعد فراغ المولد وعمل السماع طلع الناس الى ايوان الطبقة ، وغنوا ورقصوا ، وبينما هم كذلك ، سقط سقف القاعة ، ومات ابن الجمال وشقيقه « وهما رئيسا صناعتهما » • ومعهم ستة غيرهم •

وتوفى ـ بغير ذلك السبب ـ سليمان القرافى المصرى الملقب بعلم الدين المادح وكان « رئيس أهل صناعته فى المدح والغناء » • وكذا المعلم اسماعيل الدجيجانى(٢٦) •

وعندما طالب الناس السلطان باعادة الأمير حسام الدين حسين ابن الكورانى (ت ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م) الى ولاية القاهرة ، فاعادة « ففرح الناس به فرحا شديدا ، وتلقوه المغانى بالقاهرة » وأوقد أصحاب الحوانيت القناديل ، كما أوقد اليهود النصارى الشموع •

أما السلطان المؤيد شيخ فكان يحب التنزه والمفترجات ، فكثيرا ما كان يخرج الى مواضع متعددة كسرياقوس والجيزة والريدانية ويقيم هناك مدة طويلة ، ويعمل أوقاتا بالقراء والمغنين ، والسماعات ويفرق على أهل الخانقاوات ، وعرف عنه ايضا معرفته الفن الموسيقى ونظم الشعر(٢٧) •

وركب مرة الى خانقاه سرياقوس ، وعمـل هنـــاك مجتمعا حضره « عشر جوق من قراء القرآن ، وعدة من المنشدين » • ومدت لهم اسمطة جليلة وبعد فراغ القراء والمنشدين اقيم السماع طول الليل ، وانعم على المنشدين وصوفية الخانقاه بمائة الف درهم •

واشتهر من المغنين فى عهده ، صارم الدين بن بابای العواد وصار من ندماء الملك المؤيد شيخ ومغنيه « وكان أعجوبة زمانه فى ضرب العود والغناء » رغم أنه لم يكن جيد الصوت » ولكن فاقت شهرته فى آلة العود وفى فن الموسيقى ، وانتهت اليه الرئاسة فى ذلك ، ولم يخلف بعده مثله •

ويبدو أن مثل هؤلاء المغنين من ذوى الحظوة عند السلاطين قد حصلوا ثروات طائلة من وراء فنهم ، حتى انهم كانوا دائمـــا عرضة للمصادرات من جانب بعض السلاطين والأمراء فى حالة نقمتهم عليهم ، وذكر أن بابای هذا « جدد عمارة بستان المحلـى المطل على النيل ، وخلف مالا جزيلا » •

وقد ركب السلطان المؤيد من قلعة الجبل بأمرائه ومماليكه ، ووجوه دولته ، وسار الى حيث العمل فى حفر البحر تجاه منشأة المهرانى(٢٨) « ونزل فى خيم نصبت له هناك ونودى بخروج الناس للحفير ، فخرج الناس طوائــف ، ومع كل طائفــة الطبـــول والزمور ، وهم فى لهو ولعب » •

وركب السلطان بعد العصر وقدمت اسمطة جليلة « فكـــان يوما بالهزل واللهو اشبه منه بالجد » • وكان على الأمراء مقطوعية يحفرها كل منهم واستمر ذلك كل يوم •

وكان بعض الأمراء يصطحبون معهم ـ الى جانب مماليكهم بعض الحيوانات كالفيل والزرافة بعدة طبول وزمور ، « واجتمع

هناك معظم الناس من الرجال والنساء للفرجة ، فكثرت سخريتهم وتضاحك بعضهم على بعض » ٠

أما السلطان الظاهر ططر ، فكان « يحب انشاد الشعر بين يديه لا سيما باللغة التركية ويميل الى الصوت الحسن ، ولسماع الوتر ، مع عفته عن سائر المنكرات » وسبقت الاشارة الى ذلك ٠

هذا وقد كسدت فى ايام السلطان الظاهر جقمق احوال أرباب الملاهى والمغانى لكونه كان يكرهه وينفر منه بطبعه ، ومن كل الوان اللهو والمجون والطرب كما سبقت الاشارة ٠

والسلطان الأشرف قايتباى كان كثير الخروج والتنزه ، تصحبه المغانى من رجال ونساء ، وكذا الأوزان والشعراء والشبابة السلطانية ، وتصطف له جوق المغانى من النساء ٠

فتشير المصادر الى انه ركب لصلاة الجمعة - وكان له مدة لم يركب بسبب كسر ساقه - « فلما ركب لاقته المغانى من باب الجامع وكان يوما مشهودا بالقلعة » ونودى بالزينة من أجل ذلك ٠

وبلغ من شغفه للتنزه « ان توجه الى الأهرام وهو ماش وحوله الأمراء وعملت هناك اسمطة حافلة ، وصار ابن رحاب المغنى عمال فى كل ليلة وبقية مغانى البلدى » ٠

وكثيرا ما كان يخرج السلطان الى قبة الأمير يشبك بالمطرية فى موكب حافل ، فتلاقيه الأوزان والشعراء والشبابة السلطانية وابن رحاب المغنى » وتصطف له جوق المغانى من النساء ٠

. . . .

وشارك الأمراء سلطانهم فى ذلك فاظهروا التجمل والبهجة فى مواكبهم فقد شق الأمير يشبك من القاهرة ، وهو فى موكب حافل وقدامه الأمراء ، وسارت الأطلاب امامه شيئا فشيئا » وبقيته المغاني من رجال ونساء من باب النصر الى سلم المدرج ، والكوسات عمالة بالقلعة والطبل والزمر مصفوف على الدكاكين » ٠

وثمة مظهر آخر من مظاهر الغناء الدينى ، كان شائعا ايام المماليك عند الخروج للحج أو العودة منه ، فعندما خرجت خوند فاطمة ـ زوجه السلطان الأشرف قايتباى ـ وهى ابنة العلاى على بن خاص بك ، عندما خرجت للحج سنة (٨٧٩ هـ / ١٤٧٥ م) وأمامها جميع ارباب الدولة وغيرهم من المباشرين ، وأعيان الخدام « بايدهم العصى وقدامهم من الحداة أربعة منهم : ابراهيم بن الجندى المغنى وابو الفوز الواعظ » ٠

وعند رجوعها من الحج فى المحرم من سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٦ م ، لاقاها الأمراء والقضاة وهى فى تجمل زائد فى المحفة « ولاقاها المغانى بالطارات » ٠ ثم طلعت الى القلعة ٠

وفى عهد السلطان قايتباى كان كل من المغنى الموسيقى محمد المعروف ببرقوق التونسى (ت ٨٧٥ هـ / ١٤٧١ م) « وكان بارعا فى الغناء والانشاد وله شهرة طائلة » ٠ وابو المواهب محمد بن أحمد ويعرف بابن زغدان البرلسى (ت ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م) « وله مؤلفات فى حل سماع العود » ٠

كذا ابو الفدا ، الواعظ الناشد المادح (ت ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣م) « وكان من أعيان دواخل مصر فى حسن الصوت وجودة الغناء » ٠

وكذا المنشد المطرب الواعظ المادح ، شمس الدين محمد بن حلة (ت ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م) « وكان من مشاهير الوعاظ وله نظم جيد » ٠ والمغنية خديجة الرحابية (ت ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م) ٠

ويبدو أن الأمراء المماليك كانوا يستكثرون على عامة الناس أن تستمتع بما يجرى حولهم من فنون وطرب ، حتى أصبح مما يؤخذ على المغنى أن يقصد الى ترفيه الشعب ، وكأن هؤلاء المطربين والمطربات متاعا لهؤلاء الحكام وأشياعهم ، دون غيرهم .

ففى عهد السلطان قايتباى قبض الأمير يشبك بن حيدر والى القاهرة على « خديجة الرحابية » وهى تغنى فى بعض الافراح بتهمة افساد عقول الناس ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٨٨٦ هـ ١٤٨١ م . وأمر بضربها بين يديه نحو خمسين عصا ، وقررت عليها غرامة مالية ، كما كتب عليها تعهدا بعدم مزاولة مهنتها . وقد لبثت بعد هذه الحادثة مريضة حتى ماتت ولم تتجاوز من العمر ثلاثين عاما .

وخديجة الرحابية هذه ، كانت من اعيان مغانى مصر وكان أصلها من مغانى العرب ، عظم امرها « وحظيت عند ارباب الدولة ورؤساء مصر ، وكانت جميلة الشكل ، حسنة الغناء فافتتن بها الكثير من الناس(٢٩) .

أما السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، فقد توجه الى قبة يشبك بالمطرية ـ السابق الاشارة اليها ـ وبات بها ، ثم شق من القاهرة فى موكب حافل « وجعل قدامه طبلين وزمرين ، وعبيدا سودا ترمى بالنقوط قدامه » .

أما السلطان قانصوه الغورى ، فقد افاضت المصادر المعاصرة فى ذكر صفاته وما انطوى عليه من ميل للتنزه ، كما كان له نظم باللغة التركية ، وعرف بولعه بسماع الموسيقى والغناء ومعرفته بهما ، حتى « كثرت المغانى فى أيامه لكثرة ما يصغى اليهم » .

وكثير ماتوجه السلطان الى الفيوم والأهـــرام ، ويقيم فى الوطاق(٣٠) الذى ينصب له هناك عدة ايام ، وكان من عادته ان يأخذ معه جماعة من المغانى وأرباب الآلات ، منهم محمد بن عوينة العواد وجلال السنطيرى والبوالقة وابن الليمون وغير ذلك من المغانى ، وكان ينعم على من يصطحبه فى رحلته من المغانى لكـل واحد منهم بعشرين دينارا وحنين صوف بسنجاب ، كما حدث فى رحلة الفيوم فى ذى الحجة سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م) ٠

وكان غالبا ما ينزل ويتوجه نحو المقياس ويجلس فى قصره هناك ثم يعود من يومه ، ومعه جماعة من الامراء « وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ومد هناك اسمطة حافلة ، واحضر بين يديه المغانى وأرباب الآلات ٠ كما تسلى بمشاهدة مضحك يقال له على باى الذى كان يعمل عفريتا فى المحمل ٠

وكانت جزيرة الروضة من المواضع المفضلة عند السلاطين المماليك خاصة السلطان الغورى ، حيث كان ينصب له خيام على خرطوم الروضة ويبيت هناك ويمد له الأمراء اسمطه حافلة « وطاب له ذلك المكان وانشرح به وكان صحبته المغانى وأرباب الآلات » ٠

وكانت قبة الأمير يشبك التى بالمطرية مقصـــدا لكثير من السلاطين قبل السلطان الغورى ، الذى كان يتوجه اليها ويبيـت بها خاصة فى الليالى المقمرة « وحضر عند السلطان مغانى وأرباب آلات وانشرح هناك الى الغاية واقام فى القبة يومين » ٠

كما حظيت الاسكندرية بزيارة السلاطين على امتداد العصر ، فقد توجه اليها السلطان الغورى سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) وصحبته جماعة من المغانى وأرباب الآلات من دواخل البلد فى الغناء ٠

وكان السلطان قد انشأ بستانا بميدان القلعة ويذهب اليه ويطلق ماء البحرة وينثر فيها الورود والياسمين ، ويضاء البستان بمصابيح من اشكال متنوعة ، وتحضر اليه مغانى البلد وأرباب الآلات الدواخل ويحيى بذلك ليالى حافلة عرفت بالليالى الملوكية(٣١) وقال فيها بعض الشعراء يصف ليلة من تلك الليالى ٠

ويدل هذا النظم على ان مجلس طرب السلطان الغورى كان يصحبه شراب ، فيذكر الساقى والندامى ، كل ذلك يدور فى جو عبق بالزهور والرياحين ٠

وتشير المصادر أن السلطان كان له عادة فى الخروج عند ابتداء موسم ضرب الكرة فى الميدان وأن يجتمع له سائر الأمراء المقدمين وهم بالشاش والقماش ـ أى بملابسهم الرسمية ٠ « والأوزان عمال والمغانى على جارى العادة » ٠

وكان بعض الأمراء والقضاة يضيفون السلطان الغورى عندهم ، كما فعل القاضى كاتب السر محمود بن آجا ، حيث يقيم ببولاق ، واصطحب السلطان ابنه معه « وانشرح السلطان هناك للغاية واحضر بين يديه المغانى وأرباب الآلات ، واظهر القاضى كاتب السر انواع العظمة من الفرش الفاخرة والأوانى الصينى والنحاس المكفت » ٠

وثمة ملاحظة وهى أن السلطان الغورى كان يصطحب معه جماعات من المغانى وأرباب الآلات ، اينما توجه فى متنزهاته ، التى كانت كثيرة ومتقاربة ، وبدل ذلك على شدة حبه للغناء والموسيقى ٠

وفى عهد هذا السلطان انتشرت مظاهر الطرب الى حد كبير حتى شارك فيه الشعب بفئاته ، فبرغم استحواذ المماليك على كبار

المغنين والمغنيات وأرباب الآلات ، فان الشـــعب لـم يكن محروما من تلك المتعة ، حيث كان لديه ـ بلا شك ـ المنشدون والمغنون والمغنيات من طبقات الشعب القريبة من عامة النـــاس من حيث المســتوى الاجتماعى فالمغنون كانوا من طبقات شتى ، ويختلف منبع غنائهم ، فبعضهم من طبقة راقية مثقفة ، وبعضهم من طبقة شعبية ٠

ويدو انه كانت هناك جماعات للانشاد الجماعى ، يقود كل جماعة منها شيخ له دراية بهذا الفن ، فقيل ان الشيخ صالح محمد بن الخياط المدنى المؤذن وجماعته كانوا ينشدون ، فاطرب الحاضرين وتباكى غالبهم ٠

كما كان السلطان يصطحب معه فى الغالب صبيانا ينشدون حتى انه بعد صلاة احدى الجمع فى الجامع الاموى ، ولما فـرغ الناس من التسبيح عقيب الصلاة « انشد الصبيان الذين كانوا مع السلطان ، واجتمع الناس حولهم حتى كادوا يقتتلون » ٠

وفى عهد السلطان الغورى كان عدد من مشـــاهير المغنين والمغنيات وعازفى الآلات ، والريسات ممن كان لهم شأن كبير فى مجال الطرب فى تلك الحقبه الأخيرة من عصر المـــاليك ٠ كان اشهرهم الريس نور الدين على بن رحاب (٩٠٥ هـ / ١٥٠٠ م) « المغنى المنشد المادح ، فريد عصره ، ووحيد دهــره ، وكان من نوادر الزمان ، ينظم الشعر ، ويركز الخفائف بالالحان الغريبـــة وكان آخر مغانى الدكة فى الدخول والطرب ، ولم يجىء بعده أحد مثله فى الدخول »(٣٢) ٠

وكان الأمير طومان باى قد سبق له ان قبض على ابن رحاب فى شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ / ١٤٩٩ م ، وضربه بالمقـــارع

وشهر به فى القاهرة وهو عريان ، مكشوف الرأس على حمار ، وكان ذلك على أثر وشاية اتصلت بالأمير عنه ·

وكذا الأستاذ على بن غانم الذى كان عـلامة فى ضـرب الطنبورة ، ومعرفة الأنغام « وهو الذى أظهر الخفائف النجدية بمصر ولحنها فى التلاحين الغريبة حتى ابطل بهـا فن الموسيقى » ·

وفى عهده سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م توفى الناصرى محمد بن قجق نديم السلطان « وكان علامة فى ضـرب الطنبورة ، عارفا بصنعة الانغام ، ومشى فى جنازته أعيان الناس حتى أعيان مغانى البلد والآلاتية ، فانه كان شيخهم » ·

ومن المغنيات والريسات عزيزة بنت السطحى (ت ٩٠٦ هـ / ١٥٠١م) وهى من أعيان مغانى مصر « فريدة عصرها فى النشيد ، مع حسن الصوت وفصاحة باعراب الشعر ، فلم يخلفها من بعد أحد من النساء المغانى » ورأت من العز والعظمة مالم يره غيرها من أرباب هذا الفن(٣٣) ·

وفى ربيع الآخر سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م توفيت الريسـة انعام ، ريسة خوند الخاصكية « وكانت من أعيان مغانى البلد » ، وكذا الريسة خديجة أم خوخة (ت ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م) « وكانت من اعيان مغانى الدكة ، ولها فى هذا الفن اليد الطويلة « والريسة بدرية بنت جريعة » وكانت من أعيان المغانى ايضا ولها شهرة بين المغانى بذلك » ·

وكمـا سـبقت الاشـارة فـان كثيرا من المغنين والمغنيـات تعرضوا للاضطهاد من جانب بعض السلاطين والامراء ، فهذا هو السلطان الغورى يامر بالقبض على المغنية « هيفـة اللذيذة » فى رمضان من سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م وكانت رئيسة المغانى ، وذلك

بسبب وشاية بعض أعدائها والكيد لها عند السلطان بان لها دائرة كبيرة من المال ، ولها حلة للكرى ، فتعرضت للضرب ، وقرر عليها خمسة آلاف دينار ، فباعت كل ما تملك فما حصلت غير ألف دينار ، وسعى لها القاضى بركات بن موسى بأنها لا تملك غير ذلك ، فقرر عليها خمسمائة دينار تورد كل شهر مائة دينار على كل جامكية ٠

على ان سلاطين المماليك وأمراءهم لم يتركوا مناسبة من المناسبات الا استمتعوا فيها بالطرب فى مجالسهم غناء وموسيقى ورقصا ، بيد أنهم اختلقوا مناسبات كثيرة ، ليفسح لهم مجال اللهو والطرب الى أبعد حد حتى فى المناسبات الدينية التى أصبحت فى عرف الناس من المناسبات المهمة والتى كان أهمها : الاحتفال بالمولد النبوى ، وموالد الأولياء ، ورحلات الحج ذهابا وعودة ، واحياء ليالى رمضان ، والاحتفال برؤية الهلال ، ورأس السنة الهجرية وصعود القضاة والعلماء لتهنئة السلطان بهذه المناسبة ٠

وعنى المماليك كذلك بكثير من الحفلات الخاصة التى اقيمت فى مناسبات عديدة ، كحفلات قدوم مولود ، وحفلات السبوع أو العقيقة ، وحفلات الختان وحفلات الزواج ، ورغم ان هذه كانت حفلات خاصة بالسلاطين والأمراء فانها لم تخل من المشاركة الشعبية فيها بصورة أو بأخرى ٠

هذا علاوة على الاحتفالات التى ترتبط بمواكب السلاطين والأمراء كالخروج للعب الكرة أو لكسر الخليج عند وفاء النيل ومثل ذلك من المناسبات التى حرص المماليك على ان تبدو ابهة الملك واضحة من خلالها ٠

فبرغم ان شهر رمضان كان شهر عبادة وطرب طـول ايامـه فان احتفال المماليك برؤية الهلال فى أوله ، واحتفالهم بانتهائه وحلول عيد الفطر قد نالت اهتماما كبيرا وعبرت عن مظـاهر البهجـة والسرور ٠

وهذا ما كان عليه الحال ايام الفاطميين ٠ ففى عيد الفطر يقام احتفال فخم ضخم ، وينزل السلطان بأبهته وعظمتـه ، ومن حوله الأمراء والعظماء الى المسجد ، وبين يديه اللاعبون والزامرون والمنشدون ، حتى يصلى العيد ٠ وهكذا كان يحدث فى عيد الاضحى وان اختلف الأمر فيما يقدم مـن أسـباب اللهو والطرب ٠ وكان السلطان فى الغالب يخرج فى العيد من باب القصر الوسطانى ٠

واعتاد الناس يوم العيد ومابعده الخروج الى القرافة خارج القاهرة وخرطوم الجزيرة ببولاق ، ويقبلون على اللهو والمسرات ويتفننون فى أنواع الملذات ٠

أما الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، فقد صار فى عصر المماليك من الأمور التى ألفها الناس كل عام ، بحيث لا يمكن التخلى عنها ، لذلك فقد كان الشعب يصرف عنايته الى الاحتفال بهـذه المناسبة من تلقاء نفسه ٠

ولم يقتصر هذا الاحتفال على ليلة واحدة كمـا كان فى أيام الفاطميين بل أصبحت ايام المماليك تستوعب أيام الشهر كله ٠

وكان من عادة السلاطين المشاركة فى هذا الاحتفال ، فتنصب خيمة كبيرة فى الحوش ، يتصدر السلطان المجلس ثـم أربـاب الدولة ، ويقرأ القرآن ثم يعظ الوعاظ ، وتمد الأسمطة « ويقـام السماع من بعد ثلث الليل الى قريب الفجر » ٠

واعتاد المماليك ايضا الاحتفال بموالد الاولياء والصالحين ، ولعلهم هم الذين ابتدعوا الاحتفال بمولد السيدة نفيسة ، حيث كان من فعل ذلك من المماليك هو السلطان قيتباى فى ربيع الأول سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م بالمشهد النفيسى « وصار يقال له مولد الخليفة » وكان يقام فى نفس موعد الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ·

كما احتفل المماليك بمولد سيدى اسماعيل يوسف الانبابى فى زاويته بناحية امبابة تجاه بولاق ، فكانت تضرب الخيام فى الجزيرة التى ببولاق ، بلغ عددها خمسمائة خيمة ، وقد عنى السلطان الغورى على الأخص بهذا الولى ، وبمولده ·

وكانت هذه الاحتفالات مجالا للفرجة والقصف لعامة الناس ، كما تدل على أمان الناس ورخائهم ، وكانت تقع مفاسد كثيرة فى هذه الموالد « من كثرة النساء والفساق » حتى أشيع انهم وجدوا فى الزرع مائة وخمسين فارغة من جرار الخمر فى ليلة مولد الشيخ الانبابى ·

كما كانت هذه المناسبات مجالا لرواج فن الغناء والموسيقى ، خاصة الانشاد الدينى وغناء الشعر الوجدانى ·

أما الاحتفال بعقد القرآن أو الزواج فكان من الاحتفالات المهمة عند المماليك ، وعند الأهالى ، حيث تدعى المغانى وأرباب الآلات ، لاحياء هذه الحفلات ، ويبدو فيها الاسراف بلا حدود ، خاصة إذا كان صاحب الحفل من السلاطين أو الامراء أو أبنائهم أو من يدور فى فلكهم ·

ففى ربيع الآخر سنة ٨١٢ هـ / ١٤١٠ م ، عقد قران الأمير بكتمر فزفته المغانى حتى دخل دار السعادة « ثم عقد العقد بحضرة السلطان المؤيد الذى تولى العقد بنفسه ·

ففى المحرم سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ، أقيم الاحتفال بعرس الأمير فخر الدين باحدى جوارى السلطان « وعمل فرح جليل ذبح فيه ثمانية وعشرين فرسا ، وأغناما بلغ زنة لحمها عشـــرة آلاف رطل ومن الدجاج ألفين ومائة طائر ومن الأوز ثلاثة آلاف طائر ، ومن الدقيق ستة وخمسين قنطارا ، ومن الزبيب خمسين قنطارا عملت مشروبا » .

ولم يدع المماليك مناسبة مولد طفل لسلطان أو لأميـــر الا احتفلوا بهذه المناسبة ، فعندما يولد للسلطان ولد تدق له البشائر ثلاثة أيام وتزين القاهرة لولادته ، وعلى سبيل المثال ، حدث ذلك عندما ولد للسلطان الأشرف شعبان مولود أسماه أحمد وآخـر أسماه رمضان .

حتى حفلات السبوع أو العقيقة كان يهتم بها المماليك ، مثلما حدث فى عقيقة الأمير ابى المعالى محمد بن السلطان المؤيد شيخ ، وطلع على الامراء وأركبوا الخيل بالقمـــاش الذهب « فتجـــاوز المصروف عليها خمسة عشر الف دينار » .

حتى الختان كان يحتفل به فى العصر المملوكى ، احتفـــالا يتناسب مع حال صاحبه ، فقد أقيم مهم حافل بمناسبة ختان أولاد الملك المنصور عثمان ابن الظاهر جقمق سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٦ م ، وكان الختان بثغر دمياط « فبعث السلطان اليه بألفى دينار احتياج المهم ، وتوجه اليه ابن رحاب المغنى ومشى فى الزفة » .

هذا ولدينا وصف لابن اياس لحفل ختان أولاد القاضى كاتب السر ابن مزهر سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م الذى أقامـــــه فى بركـة الرطلى(٣٤) .

ويبدو أن الناس كانوا يستغلون هذه المناسبات فى التنزه واللهو والفرجة الى ابعد حد ، فقد بلغ كرى كل مركب « أربعة اشرفية » واستمر ذلك الحفل ثلاث ليال متوالية(٣٥) ٠

ثم كان ختان ولد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال بثغر الاسكندرية « فأرسل يطلب على بن رحاب المغنى بسبب الزفة » ٠

واحتفل ايضا بختان ولد السلطان المقر الناصرى محمد الذى تسلطن بعده وعمره نحو من سبع سنين واشهر « وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية وكان من نوادر المهمات فاجتمع سائر مغانى البلد ورسم السلطان بان تزين القاهرة ، فزينت زينة حافلة ، حتى زينوا داخل الأسواق ٠٠ »

وقبلها ركب ابن السلطان فى موكب من قاعة البحرة الى باب الستارة والسلطان جالس فى المقعد ينظر اليه « ولاقاه المغانى ودخل قاعة البيسرية فكان الختان بها ، وتختن معه كثير من أولاد الأمراء والخاصكية » فكانوا زيادة على أربعين ولدا » ٠

وقد ذخر العصر المملوكى بكثير من المغنيات والمغنين الذين ذاعت شهرتهم بين الناس فى ذلك العصر ، وحظى كثير منهم عند السلاطين والامراء ٠

ولعل من أشهر تلك الأسماء من المغنيات ، المغنية زهرة واغلنية اتفاق ، والريسة دنيا البغدادية ، والمغنية خوبى العوادة ، والمغنية بياض ، والمغنية الشهيرة خديجة الرحابية ، وخليفتها المغنية هيفة اللذيذة والمغنية عزيزة بنت السطحى ، ومغنية تدعى النصيفية وغيرهن ٠

وبطبيعة الحال ليس هذا حصرا لمن برع فى فن الغناء من النساء فى عصر المماليك ، ولكن هذا اكثر من لمع من الاسماء ،

فلابد انه كان هناك غيرهن الكثيرات اللاتى كن اقــل شــــهرة من هؤلاء وطواهن التاريخ ، وربما ساعد على بروز تلك الاســــماء ارتباطهن بقصور وحفلات السلاطين والامراء ، فكان ذلك بمثابــة الاعلام بهن ٠

وقد ورد ذكر هؤلاء المغنيات فى مواضع متفرقة ، ولكن لا بأس من أن نشير الى كل منهن بنبذة قصيرة لزيادة التعريف بهن ٠

فالمغنية زهرة وزميلتها اتفاق قد استأثر بهما قصر الناصر محمد آنوك بن محمد بن قلاوون ، ولما بلغ السلطان ذلك « أمــر بمنعهما منه » . وأما اتفاق فقد نشأت عند ضامنة المغانى ببلبيس ، ثم انتقلت الى ضامنة المغانى بمصر ، فعلمتها ضرب العود على يد المعلم عيد على العجمى ، ففاقت فيه للغاية ، وعندما قدمتها الضامنة لبيت الناصر حظيت عند ابنه الصالح اسماعيل وولع بها « وولدت منه « ثم شغف بها بعده أخوه الكامل وولدت منه أيضا » .

ولعل زواج أولاد الناصر من هذه المغنية السمراء ، يدل على ما كان للمغنيات من منزلة فى تلك البيئة ، ويقال ان ثلاثة من ملوك ذلك العهد اخوة تنافسوا على حب تلك المغنية اتفاق ٠

ويقول المؤرخون انها لم تكن جميلة ، وانما تقدمت بالغناء ؛ ومهما كان الأمر فليس هناك شك فى أن حسن غنائها هو الذى قدمها أولا وأوقع هؤلاء السلاطين الثلاثة فى هواها ٠

والريسة دنيا البغدادية ، كانت من أجل حظايا الســلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وقيل انها كانت زوجته ، وعرفت بالريسة لأنها كانت حاذقة فى الغناء ، توفيت سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م ٠

أما عن المغنية خوبى العوادة . فكانت مغنية فائقة فى ضرب العود اشتراها بكتمر الساقى بعشرة آلاف دينار مصرية ، ويقــال

« انه لم يدخل مصر لها نظير » ويحكى أنه بعد موت بكتمر كسرت عودها ، فباعها الناصر لبشتاك بستة آلاف دينار فلم تحظ عنده « وماتت بعد الأربعين » .

واشتهرت فى هذه الفترة كذلك مغنية اسمها بياض ، وعرفت باسم (قومة) وكانت تجيد الغناء ، ويأنس الناس بها فى مجالسهم ولما علم السلطان الناصر خبرها ، طلبها واختص بها ، واصبحت من محظياته ، وولدت له ابنه أحمد ، ثم تزوجها الأمير بكتمر بعد ذلك فى حياة الناصر .

أما عن المغنية خديجة الرحابية ، فكانت من أشهر المغنيات فى عصرها ، وكان أصلها من مغانى العرب ، وحظيت عند ارباب الدولة كما سبقت الاشارة ، ومدحها بعض الشعراء ، ولكن لم يطب لها الحال فقد قبض عليها الأمير يشبك والى القاهرة ، بتهمة افساد عقول الناس ، وتعرضت للضرب والغرامة ، وسبقت الاشارة الى ذلك .

كذلك المغنية هيفه اللذيذة ، وكانت رئيسة المغنيات فى عهد السلطان الغورى ، ومن الطريف ان البعض يعلل اسمها هذا ، فيقول قد يكون هيفاء ثم خففت الى « هيفة » أو انها كانت فى حياتها الأولى ليست على شىء فتندر الناس بها واطلقوا عليها لقب « هايفة » بمعنى السذاجة ولكن لم يجزم الأمر بهذا أو ذاك .

وغالبا ما تكون الأسماء غير معللة ، وان كنا نتوقع ان هذا كان لقبا ، وليس اسما حقيقيا لها ، فكل ما ذكر عنها لم يزد على « هيفة اللذيذة » .

ويبدو ان ذلك كان لقبا فنيا ، كما يحلو لبعض مغنى ومغنيات

عصرنا فى اختيار اسم فنى يكون ادعى للشهرة وسرعة الانتشار بين الناس ٠

وعلى أية حال فقد أصابت هذه المغنية ثروة كبيرة فى عصرها مما حرك عداء خصومها ، فحقدوا عليها ووشوا بها عند السلطان فأمر بتعذيبها ثم سجنها وتغريمها كما سبقت الاشارة الى ذلك ٠

أما المغنية عزيزة بنت السطحى فقيل انها : « فريدة عصرها فى النشيد ، مع حسن الصوت ، وحظيت بمدح الشعراء ، وكانت على قدر كبير من الثقافة والفصاحة ٠ ومنهن ايضا المغنية جارية النطاع وأصيل القلعية ومن الريسات : الريسة انعام ، وبدرية ، وأم خوخة ٠

والى جانب هؤلاء المغنيات والريسات ، كان هناك لفيف من المغنين الرجال ، الذين ذاعت شهرتهم وطبقت الأفاق ، وشاركوا مشاركة كبيرة فى احياء مجالس الطرب والسرور ، فى كل المناسبات ، ونالوا تقدير السلاطين والأمراء حتى اتخذوا منهم الندماء ٠ منهم على سبيل المثال لا الحصر :

المغنى سليمان المادح ، والمعلم اسماعيل الدجيجانى ، ونور الدين على بن رحاب ، الذى بلغ قصور السلاطين ، وكان نجما متألقا ٠ ولكن لم تصف له الأيام كما سبقت الاشارة ٠

واشتهر كذلك من المغنين ، صارم الدين بن باباى ، وصار من ندماء السلطان المؤيد شيخ ومغنيه « وكان أعجوبة زمانه فى ضرب العود والغناء وكذا الناصر محمد بن قجق ، الذى كان نديم السلطان الغورى علامة فى ضرب الطنبور ، عارفا بصنعة الأنغام ٠

وبطبيعة الحال فان مجالس الطرب قد اشتملت على فن الغناء فى كل المناسبات ، يصاحبه فى كثير من الأحوال وبالضرورة ألوان من التلحين الموسيقى لكما كانت تضم ايضـــا بعض الراقصـــين والراقصات • فقد نرى غناء بمفرده ، ولكن نادرا فى ذلك العصر ماكان يحيى موسيقى حفلا بمفرده ، فالموسيقى كانت تشكل وســيلة مهمة من وسائل الترفيه فى ذلك العصر وبـــرع فيهـــا الكثيرون ــ سبقت الاشارة الى بعضهم ــ سيأتى ذكرهم فيما يلى :

الموســيقى :

ان فن الموسيقى وفن الغناء يرتبطان أحدهما بالآخر ارتباطا وثيقا فكثيرا ما كان الموسيقى هو الشاعر والمغنى والملحن فى أن واحد ، خاصة فى العصور الغابرة ، ثم مرت الموسيقى بمراحـــل مختلفة حتى اصبحت فنا قائما بذاته • واصبحت قصائد الشعراء تغنى من قبل موسيقى مرافق أو بواسطة مغن أو مغنية بمصاحبة موسيقى • وتساهم الآلات الموسيقية فى اخـــراج التحفة الفنية لا لتلعب على مسرحها الدور الرئيسى ، بـــل لتقوم بوظيفة المرافق للاصوات أو الضابط للايقاع •

ومما يدل على هذا الارتباط بين الغناء والموسيقى ان كثيرا من المغنين كان موسيقيا ، ومن الموسيقيين من كان مغنيا ، وان كانت هذه المشاركة ليست على اطلاقها ، فقد كان لفئـــة من الموسيقيين بعينها القدرة على المشاركة فى الغناء خاصة من كانوا يستخدمون آلات معينة مثل العود والطنبور ولم نسمع عن زمـــار مثلا حـــاول الغناء ، فآلته الموسيقية تحول بينه وبين الغناء وقد يكون مثلـــه الطبال •

وقد أوردت المصادر المملوكية أخبار المتلحين والموسيقى متناثرة فذكرتها عرضا مع ذكر المغنين والمغنيات ، وفى تراجم الأدباء والفقهاء وغيرهم ، كما أوردت أسماء بعض الآلات الموسيقية كالطبل والمزمار والعود والطنبور والجنك والدف ، ونسب اليها بعض اصحابها ، فقيل : الطبال ، والزمار والعواد وهكذا · وكثيرا ما نلاحظ نسبة بعض المغنيات الى ماكانت تجيده من آلة موسيقية خاصة العود ، فقيل العوادة والطبالة · وان دل ذلك على شىء فانما يدل على وجود نوع من التخصص فى آلة بعينها ، وان وجد من نسب الى الموسيقى دونما تحديد لنوع ما يجيد من آلة فيقال : الموسيقى ، والعازف ، وهكذا ·

ولا شك أن الموسيقى كانت من أهم وسائل الطرب والسرور فيقول ابن خلدون : « ان المنفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب » ·

ويبدو انه فى عصر المماليك كان هناك ما يعرف بالانتساب الى معلم يعلم الموسيقى ، فيقول ابن خلكان : « لما اتقنت العلوم الرياضية ، تاقت نفسى الى الاجتماع بالشيخ كمال الدين بن يونس فسافرت الى الموصل واجتمعت به وعرفته قصدى فقال : تريد أى الفنون ؟ فقلت الموسيقى ، فقال : مصلحة فقرأت عليه أكثر من أربعين كتابا فى مقدار سنة ، وكنت عارفا بها ، لكن كان غرضى الانتساب اليه » ·

وكان كمال الدين الادفوى وهو صاحب كتاب الطالع السعيد وكتاب الامتاع فى احكام السماع ، وهو من الفقهاء « له خبرة بالموسيقى وميل الى سماع » ·

وقيل عن شهاب الدين الاذرعى الامام (ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٧م) الذى أصبح من ندماء الملك المؤيد شيخ « وكان يجيد قراءة المحراب الى الغاية وكان لصوته نداوة وشجاوة ، وكان يشارك فى نأدية الموسيقى » . كذلك ممن عرف الموسيقى من الأئمة كمال الدين محمد بن عبد الواحد ، المعروف بابن الهمام (ت ٨٦١ هـ / ١٤٥٧ م) .

هذا وقد أوصى أحد الصوفية وهو محمد بن عبد الله الصوفى بهاء الدين الكازرونى (ت ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م) بان يخرجوا بـه الى قبره بالدف والشبابة ، كما عرف الموسيقى بعض من كانوا يقرأون على القبور فذكر ان صالح بن محمد بن عربشاه الهمزانى (ت ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م) « متواضع يدرى الموسيقى » .

وكان بعض الأدباء والشعراء يتعلمون الموسيقى ، ويبدو ان ذلك كان بغرض الالمام بأعراف العصر ، وكنـوع من الهوايات المبهجة .

بل كان منهم من يعرف الموسيقى وينظم الشعر ويلحنه ، مثل شمس الدين محمد بن على بن عمر المازنى الدهان (ت ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م) .

كذا أحمد بن كامل الثعلبـى القوصى المنعوت بالصـلاح (ت ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م) « وكان يعرف شيئا من الموسيقى ، وله أبيات لحنها ونظمها وغنى بها(٣٦) .

وممن حذق فى الموسيقى يحيى بن عبد الرحمن الجعبرى ـ قيل الجعفرى ـ نظام الدين المعروف بابن النور الحكم (ت ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م) « وكان حاذقا بالموسيقى فكان قوصون يستدعى ذلك منه خلوة » .

وكان ابن حبيب الصفدى (ت ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م) « مستترا بالخلاعة ، والنفخ فى المواصيل والضرب على الدف حينما كان فى الأسواق والمحافل » ·

وقيل ان القان غياث الدين أحمد بن الشيخ أويس صاحب بغداد « يحب اللهو والطرب ، ويحسن تأدى الموسيقى الى الغاية ، وله فيه أيضا التصانيف اللطيفة » ·

ومن الوعاظ شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن المادح المعروف بالقرداح أو ابن القرداح (ت ٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م) « كان طيب النغمة عارفا بالموسيقى يجيد الأعمال ويتقنها ، ولا ينشد غالبا الا معربا ··· وكان يعمل الألحان وينقل كثيرا منها الى ما ينظمه فاذا اشتهر وكثر استعمل غيره » · كما اشتغل بالموسيقى وعرف منها شيئا صالح بن عبد القوى بن على الاسنائى المعروف بالتقى ابن الثقة الاسنائى (ت ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م) ·

وفى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) مات الاستاذ ابراهيم بن باباى العواد « وقد انتهت اليه الرياسة فى الضرب بالعود ، وكان أبى النفس من ندماء السلطان » المؤيد شيخ مقربا عنده ·

وممن كان يضرب العود أيضا ولكن سرا الطبيب الأديب محمد بن محمد بن عبد الله بن صغير ناصر الدين (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) ·

كما عانى ضرب العود ايضا محمد بن عبد الله بن محمد بن الصائغ (ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) فنبغ فيه · وكان الأمير ملكتمر الناصرى الحجازى « يحب اللهو ويعزف الموسيقى » · كما اتقن الموسيقى كذلك أحمد بن يحيى شمس الدين السهروردى (ت ٧٤١/ ١٣٤١ م) ·

ولعل من أشهر من ضرب العود فى عهد السلطان الناصر بن قلاوون هو على بن عبد الله الماردينى ، وكان من مماليك صاحب ماردين « وكان يضرب العود فبلغ الناصر بن قلاوون خبره فاستهداه من صاحبه فى سنة ٧٢٨ هـ فحظى عنده الى الغاية ، فلما مات الناصر تاب من ضرب العود وكسر آلاته مع أنه كان لا نظير له فيه » .

ويذكر الادفوى فى ترجمة ابراهيم بن محمد الثعلبى الادفوى (ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م) انه « كان فى عنفوان شبابه يضرب بالوتر ويغنى بين أصحابه غناء يشجى السامع ويطرب المسامع »(٣٧) . ونظنه العود لأنه من أكثر الآلات الوترية انتشارا .

وكان بعض السلاطين أنفسهم يحسنون العزف كالسلطان المؤيد شيخ الذى كان يحسن أداء الموسيقى . والسلطان الناصر محمد بن قلاوون والسلطان الغورى الذى كان اذا أراد الاستراحة من عناء الملك ، خرج الى قياس الروضة أو قبة الأمير يشبك وأحضر خواصه وبعض المغنين والعازفين حتى انه من شغفه بالغناء والموسيقى ألف بعض الموشحات والالحان ، التى كان يغنى بها فى عصره(٣٨) .

وفى سنة (٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م) ، توفى أحمد جريبات « وكان استاذا فى فن الموسيقى ، وعنده فكاهة وحسن محاضرة » ، كما توفى سنة ٩١٣ هـ / ١٥٠٨ م ، الأستاذ على بن غانم « وكان علامه فى ضرب الطنبور ومعرفة الأنغـام ، وهو الذى اظهر الخفائف النجدية ولحنها فى التلاحين الغريبة حتى أبطل بها فن الموسيقى » كما سبقت الاشارة الى ذلك .

واتضح من خلال المصادر أن العود كان هو الآلة السائدة في ذلك العصر وربما كان ذلك لأنها هي الآلة التي يمكن أن يضرب عليها كل من الموسيقي والمغني والمغنية ، وذلك مما لا يتوافر لآلة أخرى حيث لا يستطيع المغنون والمغنيات استخدامها ، بل تحتاج الى موسيقى يعزف عليها ·

والشائع فيما أوردته المصادر عن الموسيقى ، انها لا تحدد نوع الآلة التي برع فيها الموسيقى في الغالب الا فيما ورد في بعض الآلات كالعود والطنبورة على سبيل المثال(٣٩) ·

وانشدت هذه الأبيات على ابن دقيق العيد فاستحسنها ·

ويستبين مما سبق ان العود كان له شأن كبير في موسيقى ذلك العصر ، حتى خصصت له بعض المؤلفات فصولا كاملة في ذكر العود وتسوية أوتاره ، واستخراج الأدوار منه ، وقيل ان العود الذي يكون خشبه خفيفا ، وطربه رقيقا ، وأوتاره قليلة ، ويستوى دوره ومداره يكون هو العود الكامل ·

وقد اعتبر الأقدمون ان أصلح الأخشاب لصناعة العود اربعة هي : الزان والدردار والشربين والجوز · هذا وقد أورد ابن الطحان طريقة صنع العود ·

ومما لوحظ ان الموسيقى استخدمت في اغراض متعددة في عصر المماليك بالاضافة الى الجانب الترفيهي بمصاحبة الغناء أو منفردة في بعض الأحيان بالاضافة الى اتخاذها وسيلة للترفيه عن المرضى في المارستانات ، كما حدث في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، حيث كانت هناك فرقة موسيقية للترفيه عن المرضى ·

والسلطان المنصور قلاوون بعد أن اتم عمارة « البيمارستان للنصورى » « اشرط في وقفه أنه في كل ليلة يحضر من ارباب

الآلات أربعة ، يضربون بالعود حتى يساهروا الضعفاء ، واجرى عليهم الجوامك فى كل شهر » ٠

ويبدو أن بعض الآلات كانت تستخدم فى حلقات الذكر بالزوايا مما دفع السلطان الظاهر جقمق بأن يأمر بعدم استخدامها فى الزوايا كالمزمار والطار والشعبيبة ، وهى عبارة عن قصبة قديمة العهد مكونة من أضلاع مضمومة وملتصقة ، وتمتاز برقة الطرب وسرعة المأخذ وحلاوة الصوت(٤٠) ٠ فأصدر السلطان مرسوما بذلك سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)

وكان المماليك يشجعون الموسيقى العسكرية ، فكانت تدق فى انحاء القصر بنظام خاص ، وهو ماعرف بنوبة خاتون ، وهم جماعة يدقون الموسيقى ويرأسهم أمير فى يده عصا ٠

هذا وقد أجزل العطاء لهؤلاء الموسيقيين فكانوا يحصلون على رواتب مرتفعة ، حتى انه قيل ان قارع الطبول كان يصل دخله الى حوالى ستة عشر الف جنيه فى العام ٠ وان كان فى ذلك مبالغة واضحة فان له دلالة على ارتفاع مستوى هؤلاء ومنزلتهم عند السلاطين والامراء ٠

وكانت الموسيقى تصحب الجيوش وقت القتال ، فتوزع الفرق الموسيقية فى انحاء المعسكرات ، لما فى ذلك من تحميس للجند وبث روح الشجاعة فيهم ٠

وفى أيام السلم تحفظ الطبول فى الطبلخاناه ويشرف أمير علم على شئون الموسيقى فى السفر ، ولها مهتار يعرف باسم مهتار الطبلخاناه ، تحفظ فى عهدته جميع الآلات الموسيقية ٠

وقيل ان اتخاذ الموسيقى فى الجند قديم والأصل فيه « اثارة حاسيات الجند فى أوقات الحرب أو شغل أذهانهم عن الافتكار بالأخطار التى يتوقعونها » .

وكانت الطبول والبوقات تضرب عند استقبال العظماء من ارباب الدولة أو من خارجها . كما كانت الموسيقى تصاحب السلاطين والأمراء أثناء لعب الكرة .

هذا ولم يكن العصر المملوكى عصرا قد شهد الآلات الموسيقية فى تطويرها الحديث ، ولكنه كان على ايه حال عصرا تكاملت فيه آلات موسيقية لا تزال الى اليوم عماد الموسيقى منها العود والطنبور والرباب والبربط(٤١) والكمنجة والكنارة (السمسمية) والقانون أو السنطير وتلك جميعا من آلات الطرب الوترية التى استخدمت فى العصر المملوكى .

هذا الى جانب استخدام آلات أخرى كالطبل والمزمار والرق والساجات والنقارات والشبابة أو القصبة ، والشعبيبة السابق الاشارة اليها .

وهكذا كانت هذه الآلات كلها وغيرها مما هو قريب منها مستخدمة فى العصر المملوكى لم يبتدعها هو وانما ورثها عن عصور سالفة ولكن هذا لا يعنى انها كانت هى بحجمها وهيئتها ، فلا شك ان العصر المملوكى ذا الترف والجاه والبذخ قد اضاف اليها جديدا . وهذا هو ما لم تسعفنا به المصادر المعاصرة ولا تكاد ترى فيها غير اسماء الآلات الموسيقية التى كانت مستعملة فى ذلك العصر المملوكى ، ولا نرى اسما غريبا لآلة من بينها لم تكن من قبل . وينبىء باحتمال الاضافة على ما تمتع به العصر من جاه وميل شديد للطرب وآلاته واربابه .

ويستبين من ذلك ان مصر قد اكتسبت شـــهرة واسعة فى مجال الطرب فى عصر المماليك ، بدليل ما ذكر من المطربين وأرباب الآلات الذين وفدوا اليها فقد قدم اليها « كل استاذ صاحب آلـــة من المطربين وامثالهم من المغانى والملاهـــى » وثمة دليل آخـــر ، وهو ما كان ينعم به السلطان على قصاده من الملوك واصطحاب هؤلاء لبعض أرباب الملاهى من مصر الى بلادهم ٠

وهكذا كانت الموسيقى هى احدى فروع الطرب بعد الغناء فقد أدت دورها الى جانب الغناء فى اطراب الناس واستمتاعهم فى عصر سلاطين المماليك الى جانب فرع آخر من فروع الطرب وهو الرقص وهذا ما نتناوله فيما يلى ٠

الرقص :

أما الرقص فكان من وسائل الترفيه التى ارتبطت بمجـالس الشراب والطرب فى كثير من الأحيان ، فما من شك فى أن الرقص كانت لا تخلو منه فى الأكثر مجالس الغناء ، غير انا لم نعلم القليل عمن غنين ورقصن ، ولكن الرقص كان شيئا مقصورا على فئات بعينها تخصصت فيه ، ذلك ما يدل عليه شعر الشعراء فى بعض الراقصات ، فهذا صفى الدين الحلى وهو من شعراء ذلك العصـــر يصف راقصة تعودت أن ترقص والشراب فى يدها ٠

وما يدل على شيوع الرقص فى عصر المماليك أن ابن تيمية قد أشار الى تحريمه(٤٢) وأورد ذلك الشيخ بدر الدين أبو عبد الله بن على الحنبلى المتوفى سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٦ م ٠

ورغم انه كان هناك راقصات يرقصن فى مجـالس الطرب ، وحظين بمدح الشعراء ، لكن المصادر لم تبح باسم واحدة منهن ،

وانشغل الشعراء بمدح الراقصات ووصفهن دون الاشارة لاسمائهن ٠

وكان هناك الى جانب الراقصات ، راقصون من الرجال تمتلىء بهم مجالس الطرب ، فكان كثير من الناس يرقصون ، حتى لو لم تكن حرفتهم الرقص ، وانما يرقصون جلبا للبهجة والطرب ومع ذلك يبدو انه كان هناك من الراقصين من الرجال من اتخذه حرفة له ، يرقص عند الحكام ويتعيشون من ذلك فلدينا حكاية طريفة تشير الى ذلك(٤٣) ٠

ولعل ذلك يشير الى احتراف بعض الرجال للرقص ، فى مجالس الحكام كما يشير الى النظرة الى الرقص واعتباره حراما حتى لو كان من الرجال ٠

وقال على بن مقاتل بن عبد الخالق الحموى التاجر الزجال (٧٦١ هـ / ١٣٦٥ م) نظما فى راقص مطرب يجمع بين الرقص والغناء فى المجالس(٤٤) ٠

وقيل ان طاجار الماردينى الناصرى الذى تمكن فى عهد المنصور ابى بكر « كان مغرما بالرقص ، حتى قيل انه كان ينزل من الخدمة فيعمل سماعا ويرقص الى ان يجىء وقت الخدمة ، فيطلع الى القلعة » وقيل انه كان يركب للبريد فاذا نزل ليستريح قام يرقص الى ان يركب ٠

وذكر ان ولى الدين الديباجى المعروف بالمنفلوطى وايضا بابن خطيب ملوى الفقيه المتصوف (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) كان يحضر السماعات ويرقص أحيانا ٠ وكذا الصوفى ضياء الدين المعمدى (ت ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م) كان يرقص فى السماع ٠

وكان قنبر بن عبد الله العجمى الشــروانى (ت ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م) وقد تصدر بالجامع الأزهر يحب السماع والرقص وقيل : كان « يميل الى سماع المغانى واللهو والرقص » ٠

على انه يمكن القول بأن رقص الصوفية ومريديهم انما كان رقصا يدور فى حلقات الذكر وهو ماعرف بالسماع ، فى شــكل مجالس ذكر ، وهم قيام يتمايلون فيها بأجسامهم مرددين كلمات الذكر وفى وسطهم كبيرهم ينشد المدائح ، ولعل هذا أشبه بما يحدث فى عصرنا فى موالد بعض الأولياء من اتباع الطــرق الصوفية حتى اليوم ٠

ويقال ان الشيخ مبارك بن عبد الله الحبشــى الدمشــقى القابونــى (ت ٩٤٣ هـ / ١٥٣٧ م) هو الذى احــدث ماعــرف « باللهجة » فى الذكر ، وحقيقتها انهم يذكرون الى أن يقتصر من لفظ الجلالة على الهمزة والهاء ، لكنهم يبدلون الهاء حاء مهملة فيقولون أح أح ، وما زلنا نرى مثل ذلك فيما يقام من حضــرات « مجالس الذكر » فى ريفنا حتى اليوم ٠

ويظهر انه كان للماليــك رقص فولكلورى ــ أى اقليمى ــ فنسمع بأن الخاصكية ، وهى حاشية السلطان ، قامت بالرقص فى احدى حفلات السلطان ٠

كما كان للعامة رقصــاتهم التلقائية التى يتندرون فيها على بعض الاوضاع أو ارتفاع الاسعار ، أو تسخيرهم فى الاعمال ، كما حدث فى عهد السلطان قايتباى فى سنة (٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م) عندما اشتد غلاء الدقيق والقمح وبيع خبز الذرة ، ولم يكن يباع من قبل فصنف العوام رقصة يرقصونها وهم يتندرون(٤٥) ٠

ومثل ذلك حدث أيام السلطان الغورى عندما أكثر المماليــك من تخزين الدريس ــ وهو علف المواشى الجاف ــ وكانوا يمسكون

الناس غضبا لنقل الدريس ، وتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك(٤٦) ٠

وتلك بلا شك صورة تبعث على الأسى والضحك ، خاصة اذا ماتصورنا ظروف العصر ، وما كان يجرى فيه من تلك الأمور ، التى تدل على العسف من جانب الحكومة والسخرية والتهكم من جانب الشعب وتلك من أهم خصائص الشعب المصرى منذ القدم فهو شعب مرح يواجه مشاكله ــ وان عظمت ــ بشكل يدعو الى التفاؤل والأمل فى الخلاص ٠

كما صنف العوام رقصة أخرى وهم يتفرجون على دوران المحمل والسلطان الغورى جالس فى الخرجاه المطلة على الرملة ، وخرج الناس للفرجة على الرماحة وهم يرقصون(٤٧) ٠

وتلك اغان راقصة لم يعلم لها مؤلف سوى الشعب ، خرجت تلقائية حسب الموقف فى ذلك الوقت ، وذلك يكون أدعى لانتشار مثل هذه الاغنيات لأنها تكون نابعة من الشعب ببساطة شديدة فهو واضعها وملحنها ومغنيها ٠

وكان السلطان الغورى الى جانب حبه للغناء والموسيقى فانه يحب الرقص أيضا وينعم على من يقوم بذلك بين يديه ، فى موكب العيد من سنة ٩١٥ هـ / ١٥١٩ م عندما خرج السلطان الى قبة الأمير يشبك الدوادار بالمطرية ، انشرح هناك ومد اسمطة حافلة وحضر عنده جماعة من المغانى وأرباب الآلات ، ورسم لبعض الأمراء بأن يرقص فقام ورقص بين يدى السلطان فرسم له بمائة دينار ٠

وكما سبقت الاشارة الى ان السلطان الغورى كان قد نزل الى المقياس وجلس فى القصر الذى انشأه هناك واستدعى المغانى وارباب الآلات وانشرح للغاية وفى هذا المجلس رقص بعض

الحاضرين بين يدى السلطان وكان منهم بعض كبـــار الدولـــة والسلطان يضحك على ذلك(٤٨) ٠

ويمكن ان نتصور ذلك المجلس وما فيه من رقص وصـــخب اشترك فيه أرباب الدولة وعلى رأسهم السلطان يشاركهم مرحهـم ويستمتع بما يعرض أمامه من رقصـــات ، وما يصـــحب ذلك من مواقف نادرة تدعو للابتهاج والانشراح ٠

حتى الفقهاء والشـــعراء نظموا الشـــعر فى استحسـان هذه المجالس فهذا هو زكريا بن يحيى الدشناوى (ت ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤م) وكان فقيها أديبا يقول فى راقص شعرا يدل على اعجابه به وبما يقدمه من رقص وغناء(٤٩) ٠

وهكذا استمتع المماليك بالرقص ، وجلبوا الراقصـــات من اليهوديات والأرمن ، وضموهن الى الحاشية ، فتسمع عن راقصة خاصة لزوجة طومان باى كما عرف المماليك الرقص الجماعى ، ربما فى الحفلات الرسمية ٠ وبذلك اكتملت أسباب الطرب فى عصـــر المماليك وهم بلا شك قد اقبلوا على الاستمتاع بمباهج الحياة ثقافة وأدبا وطربا ولهوا ٠

وعلى كل حال فقد شارك الشعب حكامه فى كثير من متعهـم فى مجالس الطرب غناء وموسيقى ورقصا ، فقد كان معظم هــذه المجالس مفتوحة تقام فى مواضع المتنزهات والفرجة ، مما أتـاح لكثير من أفراد الشعب ان يشاهدوا ما يجرى من مباهج فى تلـك الاجتماعات ، كما انه لا يستبعد ان يكون لافراد الشعب مجالسهم، واجتماعاتهم بعيدا عن ذلك الجو الرسمى فى حضور السـلاطين والأمراء ، مما جعل الكل فى ذلك العصر ينال قسطا لا بأس به من الترفيه مهما اختلفت الوسيلة ٠

هوامش الفصل* الثالث

(١) يقول فى ذلك :

وشرب اراقوا بينهم دم كرمـــــة فباتت عليها عين راووقهم تبكـــى
وباتت أباريـق المـدام لديهــم تقهقه من فـرط المسرة بالضحك
وقد جعلوا قول العراقى حجـــة ولم يرجعوا فيها الـى مذهب المكى
وغنى بهـا سـاق أغن فزادهــم سرورا بشعر لائق حسن الســبك
يلعب فيهـم بالكـلام تلاعبـــا كما تفعل الامواج فى البحر بالفلك

(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص ٢٩٠) .

(٢) يقول :

باكر كؤوس المـدام واشــرب واستجل وجـه الحبيـب واطـرب
ولا تخـف للهمــوم داء فهـو دواء لـــه مجـــرب
مـن يـد سـاق لـه رضـاب كالشـهد لكـن جنـاه أعـذب

(انظر ، ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ، ١٢٨٥هـ ، ج٢ ، ص ٢٠٠)

(٣)

بشرى لاهل الهوى عاشوا به سعدا وان يموتوا فهم من جملة الشـهدا
شعارهم رقة الشكوى ومذهبهـم أن الضـلالة تبه فى الغرام هدى
عيونهم فى ظـلام الليل ساهـرة عبرى بانفاسـهم تحت الدجى جددا
تجرعوا كاس خمر الحب مترعـة ظلوا سكارى فظنوا عيشهم رشدا

(٤) من شعره :

مـن خليـع غـدا أديبـا فقيهـا ومدام وسـبب من لام فيهـا
لـذة العمر خمسـة فاقتنيهـا فـى نديـم وقينـة وحبيـب

قائل هذين البيتين هو ، النور ابو بكر بن محمد بن محمد بن عبد العزيز الشاعر (ت ٦٥٦هـ) ، (انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٢١٢) .

(٥) ومما قاله ابن المنير :

ليس لا بليس عندنا أرب غير بلاد الامير مأواه
حرمته الخمر والحشيش معا حرمته ماءه ومرعاه

ويقول ابو الحسن الجزار :

قد عطل الكوب من حبابه واخلى الثغر من رضابه
وأصبح الشيخ وهو يبكي على الذى فات من شبابه

(انظر ، المقريزى ، السلوك ، ص ٥٥٣) .

(٦) ابن العماد ، شذرات ، ج٥ ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٥ .

يقول ابن المصحاب (ت ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م) فى الحشيشة :

فى خمار الحشيش معنى مرامى ياأهل العقول والافهام
حرموها من غير عقل ونقل وحرام تحريم غير الحرام

ويقول شمس الدين محمد بن الشيخ التلمسانى (ت ٦٨٨هـ/١٢٨٩م) :

مافى الحشيشة فضل عند اكلها لكنه غير مصروف الى رشده
حمراء فى عينيه خضراء فى يده صفراء فى وجهه سوداء فى كبده

ويقول عز الدين بن السويدى (ت ٦٩٠هـ/١٢٩١م) يسجل اعتراضه على تحريم الخمر :

ومدام حرمتها لصيام قد توالى على فى رمضان
وإقاموا الحدود فيها بلا حد فدامت ندامة الندماء

(٧) ومما قيل فى ذلك :

محا الله الحشيش واكلها لقد خبثت كما طاب السلاف
كما تصبى كذا تصنى وتشقى لاكلها وغايتها انحراف
واصدر دائها والداء جسم بغاء او جنون او نشاف

(انظر ابن العماد ، شذرات ، ج٦ ، ص ٢) .

(٨) كان عند النصارى تابوت فيه اصبع يزعمون انه اصبع بعض شهدائهم وأن النيل لايزيد مالم يرم فيه هذا التابوت ، فتجتمع نصارى مصر

من سائر الجهات الى ناحية شبرا ويخرج أهل القاهرة ومصر وتحضر المغانى ويقصف الناس فى الفرجة فى ذلك اليوم .

(انظر المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٩٤١) .

(٩) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج١ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

يقول :

لله ساق رشيق القد أهيفـــه	كأنمـا صيغ من در ومن ذهـب
يسقـى معتقه تحكـى شـمائلــه	أنوارها تزدرى بالسبعة الشهب
حبابهـــا ثغـــره والطعـم ريقتـه	ولونها لـون ذاك الخد فـى اللهب

وقال أديب من الاسكندرية يدعو الى شرب الخمر فى الروضة فيقول .

قم نفترع بكـر المدامـة بكـــرة	فـى روضة حسنت وراقـت منظما
فالراح سـيف قاطـع لهمومنـــا	أو ماتراه بالحبـاب مجوهـــــرا

(انظر ، ابن حجر ، الدرر ، ج ٤ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩) .

(١٠) فيقول مستخدما التورية .

غننى يا ســـاقى الراح بهــــا	ليـس يغـنى فاقتى الا غناهــــا
وأمل لـــى حتى ترانــى ميتــا	ان مـــوت السـكر للنفس حياهـا
راحــت الخضــراء تحكـى فعلتها	قتلوهــا بعـد تقطيـــع قفاهـــا

(١١) ويلاحظ ان بعض المؤرخين قد نسبوا ذلك اللهو والانهماك فى اللذات الى الملك المنصور عبد العزيز نفسه والصحيح حسب قول ابن تغرى بردى أن المقصود هو الاتابك بيبرس متولى أمور السلطنة (انظر ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٤٤ ، ٤٥ ، نبيل محمد عبد العزيز ، الطرب والاته ، ص ٣٥) .

يقــول :

خلى الملوك تسطو بالملك والسـلاح	انى قنعت منهم بالراح والمـــلاح

(انظر ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٤٥) .

(١٢) يقول :

كأن الـــراح لـــا راح يسعـــى	بهــا فـى الـراح ميـاس القـوام
سـنا المريـخ فـى كـف الثريـــا	يحيينـا بـــه بـــدر التمـــام

ومنه يقول :

مليـــح قـــام يجذب غصـن بـان	فمـال الغصــن منعطفـا عليـــه
وميـل الغصــن نحـو اخيه طبـع	وشـــبه الشىء منجـذب اليــــه

(١٣) حيث يقول

ساقى المدام دع المدام فكل مـــا ... فى الشاش من وصف المدامة فيكا
هــل المــدام ولونهـا ومذاقهـــا ... أسى مقلتيك ووجنتيك وفيكـ ـما

(١٤) حدث ذلك فى عصر السلطان المؤيد شيخ على يد القاضى جمال الدين محمد ابن عمر الفوارى (ت ٨١٦ هـ) ٠

(١٥) قال :

الله مـــا كنت رفيقـــا لهــــم ... ولا دعتنى للهـــوى داعيـــة
انمــــا بالشــــعر نادمتهـــم ... لاجـــل ذا ضــمتنى القافيـــة

(١٦) الموتار ٠ لقب يطلق على كبير كل طائفة من علماء أو خدم البيوت السلطانية وهو يتركب من كلمتين .

اولوما : مه ومعناها بالفارسية « الكبرى » وتار بمعنى افعـــل التفعيل ، فيكون المهتار « الاكبر » (انظر القلقشندى ، صبـــح الاعش ، ج٥ ، ص ٤٧٠) ٠

(١٧) فيحكى ان زهير الادفوى ــ وكان فاضلا عارفا بالعلوم ــ اجتمع مع بعض أصحابه بادفو ، وقبالتهم مغنية تغنى فى عرس ، وعندما أبدى بعض الجماعة رغبتهم فى سماعها ، فاعتزل عنهم لحظة ، واذا بالمغنية قــد حضرت عندهم وهم يشاهدونها ، وبيدها الدف وهى تغنى ٠

(انظار الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٢٥١)

(١٨) هو عبد القوى بن محمد بن جعفر الاســـنائى (ت ٦٩٨ هـ) ويعرف بابن معين وناب فى الحكم ودرس بالمدرسة الاقرمية بمدينة قوص ٠

(١٩) يقول العوام :

ســـلطاننا ركـــين ... ونايبـــو دقـــــين
يجينـــا المـــــاء ... مـــن أيـــــن
هاتوا لنـــا الاعـــرج ... يجـى المـــاء يدحـــرج

والمقصود بركين هو السلطان حيث هو لقب بيبرس الجاشنكير وهو ركن الدين أما دقين فيقصد بها ، الامير سلار الذى سماه العوام بهذا الاسم أما الاعرج فيعنون به الملك الناصر محمد فقد كان به بعض عرج فسماه العامة الاعرج ٠

(٢٠) وقال فى ذلك :

ادخلى تدخلى علينا سرورا ... انت والله نزهة العشاق
لا تميلى الى الخروج سريعا ... تخرجى عن مكارم الاخلاق

(٢١) وفى ليلة من ليالى طرب هذا المغنى يقول علاء الدين الوداعى :

وليلة ما لها نظير ... فى الطيب لو ساعفت بطول
كم نوبة للفصيح فيها ... اطرب من نوبة الخليل

(٢٢) يقول فى جارية مغنية :

وجارية مغنية بلطف ... على الايقاع بالكعبين دقت
فغنت ثم رقت لى بوصل ... فقمت قطعتها من حيث رقت

واقل بن يعقوب فيمن يعزف بالشبابة .

فشبب شب فى صناعته ... ريحانة الوقت منشىء الطرب
كان انفاسه لآلته ... روح تثير الحياة فى القصب

انظر ، بن حجر ، الدرر ، ج٤ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ٠

(٢٣) الكوسات : لفظة فارسية معربة ، وهى الطبول الصغار ، وهى صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق باحدها على الآخر بايقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوسى ، وكانت من رسوم الملك والاته فى العصور الوسطى وكانت امرة الطبلخاناه من الرتب العسكرية لضرب الآلات ٠

(انظر ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج١ ، ص ٢٩٨ ، حاشية ٢) ولعل ذلك يشبه فى عصرنا اليوم فرق الموسيقات العسكرية التى تعزف موسيقاها الخاصة فى المناسبات ، مستخدمة الآلات النحاسية المختلفة ٠

(٢٤) وقيل :

كل الملوك تسطو ... بالملك والسلاح
وانا قنعت منه ... بالراح والملاح

وقيل أيضا فى المعنى :

قالوا رأيناك كل وقت ... تهيم بالشرب والغناء
فقلت انى امرؤ قنوع ... اعيش بالماء والهواء

(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج١ ، ق١ ، ص ٥٩٤) ٠

(٢٥) وزفتا : كتبت هكذا بالالف عند ياقوت الحموى ، أما ابن دقماق فى كتابه (الانتصار ، ج٥ ، ص ١٠٩) فقد كتبها زفتى (انظر المقريزى ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٦١٧ حاشية ١) .

(٢٦) ومن الطريف ان حادثة ابن الجمال واخيه وقعت حين كان يغنى ابن الجمال هذه الابيات .

تغنيت فى حبكـــم	ولا فادنى منه فـن
وخضت بحار الهوى	وجزت بوادى محسن
وقالوا بـه جنـــة	ومثلى بكم من يجـن
فؤادى بكم هايـم	وعقلى بكم مفتـتن
اغنى ولى فيكـم	فـؤاد كثير الشجن
سيطرب من فى الحمى	ويرقص حتى السـكن

فلما وصل فى غنائه الى قوله : « ويرقص حتى السكن » سقط البيت على من فيـه .

(٢٧) وله نظم منـه :

فتنتنا سـوالف وخدود	وعيون نـواعس وقـدود
اسرتنا الظبا وهن ضعاف	فخضعنا لهن ونحن أسود

(٢٨) ذكر المقريزى فى خططه : أن منشأة المهرانى تقع باول بر الخليج الغربى وذكر ابن دقماق فى الانتصار ، عند كلامه عن جامع الفخر انه يقع آخر الروضة عند المنيل تجاه طرف منشية المهرانى ، امـا على مبارك فى الخطط فقال انها كانت تقع عند قنطرة السد وكان موضعها يعرف بالكوم الأحمر (انظر ، المقريزى السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٠٢ · حاشية ٥) .

(٢٩) وقال فيها بعض الشعراء :

جاءية تخفى الشموس جمالهـا	لهـا حسن انشاد تزيـن مقالهـا
وقد خايلت بالبدر ليلة تمـه	فمازال من عينى وقلبى خيالهـا

(٣٠) أصل أوتاق بالتركية موقد النار ، وتقال على الدار والمخيم .

(٣١) يقول الشاعر :

ومجلس راق من واش يكـدره	ومن رقيب له فى اللوم ايـلام
ما فيه سـاع سوى الساقى وليس	به على الندامى سوى الريحان نمام

(٣٢) رثاه ابن اياس بقوله :

توفى نزهة الاسماع طرا ... وصار الحزن منا فى ذهاب
وناحت بعده الآلات حزنا ... واشهرت الصراخ مع انتحاب
وابدى الدف والموصول زعقا ... كمن جاء المآتم فى المصاب
واضحى الناس فى قلق وغم لا ... وقد ضاق الوجود بلا رحاب

(٣٣) قال فيها الشهاب المنصورى :

وقناة نزهت طرفى فيها ... شنفت مسمعي بجوهر فيها
مذ زارت محبها وتغنت ... كاد يرمى بنفسه من أبيها

(٣٤) يقول ابن اياس .

« فامر كاتب السر سكان البركة بان يوقدوا فى البيوت وقدة حافلة وشرع يرسل لكل بيت فى البركة عشرة أرطال زيت وطبلية فيها اكل فاخر من طعام ذلك المهم ، فاحتفلوا فى الوقدة وعلقوا فى الطيقان الاحمال والتنافير والامشاط معمرة بالقناديل حتى كانت البركة تضىء بالنور واحرق حراقة نفط حافلة لم يسمع بمثلها حتى خرجت البنت من خدرها بسبب الفرجة على ذلك » .

(٣٥) يقول :

« واجتمع بالبركة نحو اربعمائة مركب مسوقة بالخلائق ، وصار ابن رحاب المغنى عمال فى كل ليلة ، وسائر مغانى البلد من رجال ونساء وانطلقت السنة النساء بالزغاريت » .

(٣٦) قيل :

منى اليك تحية وسلام ... ما ناح قمرى وفاح خزام
وتارجحت فى ايكها قمرية ... وشدا على اعلى الغصون حمام
فلئن عدانى عن زيارة داركم ... عاد وحالت بيننا اللوام
فانا محبكم الذى ما غيرت ... عهدى الليالى لا ولا الايام

(٣٧) هذا ومما قيل فى العود شعرا من نظم احمد بن يوسف بن يعقوب الطيبى شمس الدين كاتب السر (ت ٧١٧ هـ / ١٣١٨ م) .

من اين للعود هذا الصوت تطربنا ... الحانه باطاريف الاناشيد
اظن حين نشا فى الدوح علمه ... سجع الحمائم ترجيع الاغاريد

(انظر ، ابن حجر ، ج١ ، ص ٣٤١ ، ٣٤٣) .

(٣٨) يقول :

يالملـــك انعـم ربنـا الرحمــن	وهـو الكريـم المنعـم المنـــان
فلـه علينـا الشـكر حـق واجـب	بالقضــيه قلب مخلص ولســـان

(٣٩) قال احد الشعراء فى عوادة (وهى الجارية التى تضـــرب على العـود) :

غنت فالقت صوتها فـي عودهـــا	فكانما الصوتان صـوت العـــود
هيفـاء تامـر عودهـا فيطيعهـــا	ابـدا ويتبعهـــا اتبـــاع ودود
وكانمـــا الصوتان حيـن تمازجا	نبـت الغمامة وابنـــة العنقـــود

(٤٠) ويقال انها سميت كذلك لكونها قد تكونت من شعب متفرقة من الغاب فصارت مجموعة ملتصقة بخلاف سائر آلات الطـــرب . (انظـــر ، الشهدى كشف الهموم ، ق ١٤٨ ب ، ١٤٩ أ .

(٤١) البربط ، لفظ فارسى معرب معناه ، صدر الاوز لانه يشبهه وهو فرع من عود الايقاع (انظر ، حسن حسنى عبد الوهـــاب ، ورقـــات عن الحضارة العربية الافريقية التونسية ، تونس ١٩٦٠ ، ص ١٧٦) .

(٤٢) يقول :

والراقصات وقد شدت مآزرهـــا	على خصور كاوساط الدنانـــير
ترعى الضـروب بكفيها وارجلهـا	وتحفظ الاصل من نقص وتغيـــير
وتعرب الرقص من لحـــن فيلحقه	مايلحق النحو من حذف وتغييـــر

(٤٣) وهى أن الشيخ الغبارى (ت ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤م) « باع دابة لرجل فاقامت عنده أياما لاتاكل عنده شيئا فجاء اليه واخبره فقال له الشيخ ما صنعتك قال رقاص عند الوالى ، فقال ان دابتنا لا تاكل الحرام ثم رد اليه دراهمه » .

(٤٤) ومنه .

يامرقصـــا يامطربـا غنى لنـــا	انعـم لاخوان الصـفا بتـــلاق
فلقـد رميـــت مقاتـل الفرسـان	بسيف يديك عند مصارع العشـاق

(٤٥) وكانوا يقولون :

زوجـــــى دى المســـخرة	يطعمنـى خبـز الـــــذرة

(٤٦) صنف العوام .

اهـــرب ياتعيـــس والا يحملـــوك الدريـــس

(٤٧) قائلين :

بيـــع اللحـــاف والطراحـــــة	حـــتى أرى ذى الرمـــاحـــــة
بيـع لـى لحـافى ذى المخمـــــل	حـــتى أرى شــــكل المحمـل

(٤٨) « ... وقام شخص يدعى على باى فرقص » ثم سحب الوالـــى كرتباى فرقصه ، تم سحب يد آخور ثانى أقبال الطويل فرقصه ، ثم ســحب بركات بن موسى المحتسب فرقصه ، ثم سحب عبد المعظيم الصيرفى فرقصه ، وكان جسيما فضحك عليه السلطان ، ونثــر الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى فتخاطف المماليك ذلك » .

(٤٩) قيـــل .

يامن غدا الحسن اذ غنى وماس لنا	مقسما بين ابصـــار واســـماع
قاسوك بالغصن رطبا والهزار غنا	وما تقـاس بميـــاس وســـجاع
قد تسجع الورق لكن غير داخلــه	وترقص البـــان بـل فى غير ايقاع

* * *

الباب الثانى

الألعاب الرياضية

الفصل الأول : الفروسية والرماية

الفصل الثانى : الصيد والقنص

الفصل الثالث : ألعاب الكرة والسباحة والألعاب الأخرى

الفصل الاول

الفروسية والرماية

ما من شك في أن المماليك كانوا يحبون الرياضة حبا كبيراً ، تلك التي كانوا يمارسونها فى الطباق (أي فى المدارس الحربية) والواقع ان الرياضة أصبحت فنا علي أيديهم ، وأخذت اشـــكالا متعددة ، فأصبحت ــ بسبب تقديرهم لها ــ تخرج لها مواكب رسمية وان عزف عنها بعض السلاطين ، فانهـــا كانت لاتلبث أن تعود وذلك دليل على حيوية المماليك ٠

والفروسية كانت احدى هذه الرياضـــات المهمة التى لا يمكن لمملوك مهما كان ان يتجاهلها ، أو لا يمارسها ساعد على ذلك تلك النشأة العسكرية للمماليك فى ذلك الجو الحربى ، فان كان بعض السلاطين قد أهملوا بعض الرياضـــات أو نقضوا ميادينها فـــان الفروسية بالذات ظلت طوال العصر المملوكي الرياضة المتميزة ، حتى أصبح من لايجيدها من المماليك محل مؤاخذة من الأمـــراء والسلاطين ٠

فكان المملوك لايصـــل الي مرتبة سيده الا بعد أن يتربى تربية عسكرية ويتثقف تثقيفا عاما فى مدارس خاصة أعدت لهذا الغرض ثم بعد ذلك يلحق بجيش سيده ويتدرب على رمى النشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل ، خاصة أن نظام المماليك قام على أســـاس الغلبة للاقوي فكان يصل الي السلطنه أعظم الأمراء نفوذا واكثرهم أتباعا ٠

وقيل عن الرمى بالنشاب « كانت هذه الصناعة من أهم الأمور وأشرفها وأعزها وأكرمها ، وهى عدة لدفع كل شدة يوم التلاق » .

والفروسية فى عهد سلاطين المماليك كانت من الزم الأمور التى يجب أن يتحلى بها السلاطين - ان لم يكن كل المماليك كما سبقت الاشارة - فيقول العينى فى ذلك : « اعلم أن الفروسية أمر عظيم فى الشجعان والأبطال ، ولا سيما فى الملوك والسلاطين ، فالسلطان اذا كان فارسا عالما بأنداب(١) الحرب بصيرا بحيلها ، لايزال أمره غالبا وصيته بعيدا فى البلاد ، ويكون أميرا لجنده وعسكره ، فارقا بين فارسه وغير فارسه ، فيقدم من يستحق التقديم من الفرسان ويؤخر من يستحق التأخير من غيرهم ، وبه ينتظم حال عسكره ، ويستقيم أمر جنده ولاسيما عند الحروب وتسوية الصف » .

ويضيف العينى موضحا أهمية الفروسية فى عصره قائلا :

« واذا كان السلطان غير فارس ، فلا يعرف الفارس من غيره فيختل به نظام عسكره ، ويكون فساده أكثر من صلاحه » .

وأكثر مايكون استخدام الرمح على الخيل وأنداب اللعب بالرمح كثيرة ومن جملتها ندب يشتمل على اثنتي عشرة منزلة ، وهى : أول المنازل والترتيب والفتح والكشف ، والمقص ، والكلاب البرانى ، والكلاب الجوانى ، والكلاب الميمنة والكلاب الميسرة ، والسلسلة ، والسبسرة الطويلة ، وحفظ الفارس(٢) .

ولما كان عماد الفروسية ، الفارس والفرس ، فقد شغف سلاطين المماليك بالخيل ، وكان أشهر السلاطين شغفا بها هو الناصر محمد ، فقد عنى بشراء الخيل العربية الأصيلة ، وبذل فى ذلك

الأموال الضخمة ، حتى كان ثمن الواحد منها احيانا ثلاثين الف درهم ، وكان يخلع بعضها على الأمراء الذين يأنس فيهم الولاء ، وعلى أفراد حاشيته المقربين له وصارت من عاداته فقد « جرت عادة صاحب مصر أن ينعم على امرائه بالخيول مرتين في كل سنة : الأولى عند خروجه الى مرابط خيوله على القرط في أواخر ربيعها فينعم على امرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم • والمرة الثانية عند لعبة الكرة بالميدان وكذلك يرسل الى نواب الممالك الشامية كل احد بحسبه ••

وقد اعتمد المماليك على الخيل في حروبهم ، وصارت الفروسية في عهدهم فنا عظيم الشأن ، وافردوا لدراسته الكتب والرسائل الكثيرة ــ كما سبقت الاشارة ــ وكان للاصطبلات السلطانية ادارة خاصة عرفت باسم « الركابخاناه » وهي من اهم البيوتات السلطانية ، فقد كان عدد الاسطبلات التابعة لها وفيرا •

وبلغ من عناية المماليك بالخيول واختصاصهم بها ، انه في سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م ، نودي بالقاهرة ومصر « ان احدا من المتعممين لا يركب فرسا سوى الوزير وكاتب السر وناظر الخاص ، والبقية يركبون بغالا ، وان الطحانين لا يخلون عندهم فرسا صحيحا سالما ، ولايركب الخيل ايضا فقيه ولا جندار ولا احد من العوام » • ومن عنده فرس أخذ منه •

كما أن المماليك ايضا اهتموا بالوان الخيل التي يركبونها واعتبروها ضرورية بالنسبة للفرسان ، وقادة الوحدات العسكرية، واحيانا كان بعض الفرسان يحرصون على ركوب فرس ذات لون معين في كل يوم ، حتى جرى العرف ان يكون ركوب الأدهم اي الأسود يوم السبت ، ويوم الأحد للابيض الذي كان يعرف بالخيل

البوز ، ويوم الاثنين كان للاخضر ، والثلاثاء للكميت وهو الأحمر ، والأربعاء للابلق ، وهو ماكان بياضه بين بين ، ويوم الخميس للاشقر ، ويوم الجمعة للمحجل ، وكان لهذه الألوان علاقة بالتفاؤل .

هكذا ترى أن أيام المماليك كانت كلها ركوبا ، وبلغت العناية بالخيل في عهدهم ، مبلغا كبيرا الى حد المبالغة أحيانا حتى انهم كانوا أحيانا يعلقون حرزا يشتمل على بعض آيات القرآن على الخيل بغرض حراسته مما جعل الشيخ عز الدين عبد السلام يفتى بأن ذلك بدعة وتعريض للكتاب العزيز .

أما التعليم الحربى للمملوك فى الطباق فلم تفرد المصادر التاريخية وصفا تفصيليا قائما بذاته له ، سوى ما أورده المقريزى فى الخطط من حيث انتقال المملوك من التعليم الدينى الى هذا النوع الثانى من التعليم عند سن البلوغ حين يأخذ فى المران على أنواع القتال من رمى السهام ولعب الرمح .

غير أن المؤلفين فى الفروسية ، ومعظمهم أساتذة فى فنونها المختلفة ، وكذلك مؤلفو كتب التراجم والتاريخ وعلى الأخص فى العصر المملوكى الأول ألقوا ضوءا جديدا على هذا النوع من التعليم عند المماليك ، وأول ذلك أن الفروسية شملت المهارة فى ركوب الخيل واللعب بالرمح والحذق فى الرمى والضرب بالسيف وسوق البرجاس والمحمل ، ولعب الصولجان ، واستعمال الدبوس والمران على المصارعة وسباق الخيل . وأن المملوك لم يتعلم جميع فنونها وفروعها فى الطباق ، بل اقتصر تعليمه على استعمال الرمح والقوس والسيف وركوب الخيل فقط على أيدى معلمين متخصصين .

وكان السلطان يشاهد المماليك فى الطباق أو فى الميادين ، وهم يتمرنون على أنواع الفروسية ، مثل ركوب الخيل بدون سرج ، أو اللعب بالرمح عن طريق الطعان ، أو الرمى بالنشاب وهى السهام ، أو القتال بالدبابيس ، وهى أعمدة لها رؤوس مضرسة ، أو اللعب بالسيف أو المصارعة حيث كانوا يتعلمون كل هذا فى الطباق ــ كما سبقت الاشارة ــ فكان السلطان يمنح من يتفوق منهم الخلع ويشجع الرهان على الفائزين ٠

كما كان بعض الامراء يقومون بعرض أجناد الحلقة فى غيبة السلطان ، ففى سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م « جلس الأمير مقبل الدوادار ، والقاضى علم الدين داود ناظر الجيش ، بقلعة الجبل ، لعرض بقية أجناد الحلقة ، من غير أن يحضر السلطان ٠

وكان المملوك يتم تعليمه بقية فنون الفروسية بعد عتقه وتخرجه من الطباق جنديا ، هذا وقد وردت فى كتب التراجم اشارات مبعثرة عن المعلمين الذين تولوا القيام بمهمة تعليم المماليك سواء فى الطباق أو غيرها اذ اقترن لفظ الفروسية بألفاظ معلم وأستاذ ورأس واليه المنتهى فى ذلك ٠

ومثال ذلك سيف الدين سودون بن عبد الله الظاهرى ، الأمير آخور الكبير المعروف بسودون طاز (ت ٨٠٥هـ / ١٤٠٣م) الذى كان (رأسا فى لعب الرمح ، يضرب بقوة طعنه ، وشدة ثباته على فرسه المثل ، وأما سرعة حركته وحسن تسريحه لفرسه فى ميادين اللعب بالرمح فاليه المنتهى فى ذلك) ٠

وكذا قرقماس المحمدى الظاهرى المعروف بالمعلم ، وكان أحد أمراء العشرات «وكان عارفا بفنون الرمح علامة فى ذلك » ٠

وكان السلطان الظاهر بيبرس حاذقا فى رمى السهام ، حتى انه فى المحرم من سنة ٦٦٦ هـ عندما احتفل برمى النشاب ولعب الرمح صار ينزل كل يوم الى هذه المصطبة ، فلا يركـــب منها الا العشاء ، وهو يرمى ويحرض الناس على الرمى والنضال ، فمـــا بقى أمير ولا مملوك الا هذا شغله ، واقبل الناس على الرمح ورمى النشـــاب ٠

وبلغ من عناية بيبرس بالرماية أنه أقام لها ميدانا خارج باب النصر كان يعرف هذا الميدان باسم ميدان القبق وهو ما ســوف نشير اليه عند تناول لعبة القبق فيمـــا بعد ، فكـــان هذا السلطان مشهورا بالفروسية ٠

وكان السلطان الظاهر بيبرس يصنع فى رنكة سبعا ، اشارة لفروسيته وشدة بأسه ، وهو أول من أحدث اللعب بالرمح فى موكب المحمل وكسوة الكعبة ٠

وبعد أن عقد السلطان الظاهر بيبرس الهدنة مع الفرنجة وهو فى الشام ، خرج أهل عكا لمشاهدة العسكر « فركب السلطان ولعب هو وجميع العسكر بالرمح » ٠

وهنا يبدو الجانب الترفيهى بالنسبة للجند ، وتظهر أهميتـــه ومدى اهتمام السلطان بجنوده ، حتى يشاركهم اللعب بالرمح ، لما فى ذلك من أثر فى نفوسهم ورفع معنوياتهم ٠

وبلغ من شغف السلطان بيبرس بالفروسية والرماية أنه كثر اشتغاله بعمل النشاب بيده ، فاقتدى به الأمراء والخواص ، « وكتب الى ابنه الملك السعيد ، وسائر النواب بذلك فلم يبق أحد الا وهو متوافر على العمل ، فعمل السلطان جملة نشاب بيده ، نحتها وريشها

وفصلها » وكان ذلك فى شوال سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧٢م ، ابان حرب التتار فى عهد أبغا بن هولاكو ٠

وأمر السلطان بلبس العساكر فلبسوا عدد الحرب ولعبوا فى الميدان خارج دمشق وكان رسل الروم يشاهدون ذلك ٠

وكان ذلك يجرى ايضا أثناء شهر رمضان ، فقد رسم للعسكر بالتأهب للعب القبق ورمى النشاب ، فركب من كل عشرة فارسان فى أحسن زى وقت الحرب ، وركب السلطان فى مماليكه ودخلوا فى الطعن بالرماح ، « ثم أخذ السلطان الحلقة ورمى النشاب وجعل لمن أصاب من الأمراء فرسا من خيله الخاص » ٠ واستمر ذلك أياما تارة يكون اللعب فيها بالرمح وتارة بالنشاب وتارة أخرى بالدبابيس ٠

وحدث أن ساق السلطان يوما على عادته فى اللعب ، وسل سيفه فسلت مماليكه سيوفها ، وحمل هو ومماليكه الخواص حملة رجل واحد واصطدموا « فكان منظرا مهولا » ٠

أما الملك المنصور حسام لاجين فكان موصوفا بالفروسية « مقدما على أقرانه فى الفروسية وأعمالها » ٠

وكان ممن برع فى الفروسية من أولاد السلاطين ، أنص بن العادل كتبغا ، الذى لقب بالمجاهد ، فقد مهر فى الفروسية ورمى النشاب « حتى صار أوحد عصره فيه » ويقال انه رمى على قوس زنة مائة وثمانين رطلا ٠ وقيل ان سلار التترى المنصورى من خواص السلطان الأشرف خليل كان لا يتحرك على ظهر فرسه اذا ركبه ٠ الأمير عنبر السحرتى الناصرى الذى أمر طبلخاناه ، كان يعانى الفروسية ويكثر من لعب النشاب ٠

ويبدو أن رمى النشاب وركوب الخيل كانا لايتوقفان عند سن معينة فقد رمى النشاب وركب الخيول بعض المماليك المعمرين مثل طقضبا الظاهرى (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٥ م) الذى دخل فى الهرم وجاوز المائة وهو يرمى النشاب ويركب الخيل ، وكذا قراطاى الأشرفى الجوكندار (ت ٧٣٤هـ / ١٣٣٤م) الذى أمر بدمشق سنة ٧٢٦ هـ / ثم أعيد لنيابة طرابلس ، وكان مشهورا بالفروسية ٠

وفى عهد السلطان الأشرف شعبان صار التنافس فى ألعاب الفروسية بين المماليك السلطانية والمماليك اليلبغاوية ، وأصبح ليس هناك للناس شغل سوى التفرج على المقاتلين من الفريقين على شاطىء النيل ، وأغلقت أسواق القاهرة لذلك ، وصار الأمير قجماس الطازى يمر فى قارب لطيف ومعه طائفة ، حتى يقرب من البر ويرمى بالنشاب فيرموه أيضا ويتسابقوا ، وسبح العامة فى النيل حتى وصلوا الى السلطان وهم يهتفون « السلطان منصور » فأخذ يضعف أمر يلبغا ٠

أما السلطان الظاهر برقوق فقد مهر فى الفروسية خصوصا فى رمى الرمح ، ففى ربيع الأول سنة ٧٨هـ ابتدأ فى اللعب بالرمح وألزم المماليك بذلك ٠ وفى ربيع الآخر من نفس السنة لعب الملك الظاهر برقوق بالرمح مع بعض مماليكه الجلبان « فأشيع أن السلطان قال لمملوك اطعنى فطعن السلطان فى جفن عينه الأعلى ٠

ويدل ذلك على تمتع الملوك والسلاطين بالروح الرياضية العالية وهى تقبل الهزيمة بصدر رحب ، كما يدل على شخصية السلطان القوية وتبسطه مع مماليكه ، وعلى جدية القصد من هذا اللعب بإزالة الخوف من روع الشخص المنازل للملك ٠

ورغم شغف السلطان برقوق بالرماية والفروسية ، فقد أبطل الرماية فى ربيع الأول سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩م عندما بلغه أن الأمير يلبغا الناصرى قد أبطل المكوس التى بالشام ٠

ففى عهد الناصر فرج توفى الأمير سيف الدين قرقماس الاينالى الرماح سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٣ م ، من جملة الطبلخانات ، وكان رأسا فى لعب الرمح ، وكذا الأمير سيف الدين فارس بن عبد الله القطلجاوى نسبة للتاجر الذى جلبه من بلاده ، وكان من الشجعان الفرسان المعدودين الذين يضرب برميهم المثل (ت ٨٠٢هـ/ ١٤٩٩م) ٠

ولما كثر خروج السلاطين فى المواكب التى تضم الفرسان وآلات الحرب والرمى أصبحت تميز مواكب الحرب عن مواكب السلم ، فكانت تستخدم راية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تعرف بالجاليش فى حالة الخروج للحرب أما مواكب السلم فكانت تخلو من هذه الراية ٠

وفى جمادى الأولى سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م جلس السلطان الظاهر برقوق وأنفق على مماليك الأمراء الطبلخانات والعشرات لكل واحد منهم اربعمائة درهم وكذا أرباب الوظائف وغيرهم ، فرق بينهم القسى والنشاب لمن يحسن الرمى ، كما كان قد سبق أن أنفق على جماعة من الأجناد البطالة وأعطاهم القسى والنشاب ، وأمرهم بأن يكونوا على شراريف القلعة ، كما أمر باحضار رماة قوس الرجل من الاسكندرية ٠

ولما حضر رماة قسى الرجل فى جمادى الآخرة من نفس السنة نزل السلطان والخليفة من الطلعة ، وكان عددهم نحو الثلثمائة رام ومعهم قسيهم محملة على الجمال ، ففرق فيهم مائة درهم لكل واحد ٠

والمقصود بقسى الرجل : الرماة الذين يستخدمون أقدامهم فى الرمى بالقوس .

أما السلطان المؤيد شيخ المحمودى فيقول عنه العينى :

« ان ذكرت الرماة فهو أحسنهم ، وان ذكرت الرماحين فهو أحملهم ، وان ذكرت السيافين فهو أقواهم وأعدلهم » .

وقد استحدث المؤيد شيخ بالقلعة مكانا لرمى النشاب وعرف بمرمى النشاب كان يرمى فيه بالنشاب ، وكان يخرج الى شاطىء النيل ويشاهد المماليك السلطانية وهم يلعبون الرمح بناحية بولاق ، مع أنه كان فى ذلك الوقت لاينهض أن يقوم ، بل يحمل على الأعناق ، وشاهد الناس فى بولاق أياما وليالى لم يسمع بمثلها كما كان يتوجه الى الميدان لعرض الرماحة أمامه ، ويقول عنه المؤرخون انه تعلم الفروسية من اللعب بالرمح ورمى النشاب والضرب بالسيف ومهر فى جميع ذلك عندما كان عند برقوق بعد أن قدمه تاجره محمود اليه فى أول حياته .

وفى عهد المؤيد شيخ توفى عز الدين بن جماعة (ت ٨١٩ هـ/ ١٤١٦م) وهو من أشهر علماء العصر الى جانب معرفته بالفروسية والرمح والنشاب والدبوس .

وفى عهد الأشرف برسباى كان زين الدين فارس الطواشى الخازندار (ت ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م) . وكان يرمى النشاب « الى غاية مايكون فى الحسن » الى جانب اشتغاله بالعلم .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٣٩هـ / ١٤٣٦م توجه السلطان الأشرف برسباى للرماية على عادته فى ذلك ، فاعترضه العوام وشكوا اليه عدم الخبز فى حوانيت الخبازين ، ولكن السلطان « لم يعبأ بهم ، بل ولا التفت اليهم » .

ولعل ذلك يوضح أن بعض السلاطين لم يكن لهم اهتمـــام بمشاكل الرعية بل كان جل اهتمامهم بمتعاتهم الخاصة وممارستهم الألعاب ووسائل الترفيه .

وكان السلطان جقمق « عارفا بأنواع الفروسية » وفى سنة ٨٥٢هـ توفى شهاب الدين ابو الفضل ابن حجر « وكان له مشاركة جيدة فى الفقه والتاريخ والأدب محسنا لفنون الفروسية » .

أما الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا فقد حذق فى بعض الصنائع « بحيث صار يعمل القسى الفائقة بيده ويعمل السهام عملاً فائقا ، ويرمى بها أحسن رمى مع الفروسية التامة » . وقيل : كانت تنسب اليه أشياء كثيرة من آلة الحرب ورمى النشاب ، ولعب الرمح .

وكان الأشرف قايتباى يحرص على تعليم الفروسية فى عهده لفئات كثيرة من الشعب وليس المماليك وحدهم حتى انه فى صفر سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٩م أوقف صرف جوامك أولاد الناس وجماعة من الفقهاء والمتعممين ، « وأحضر اليهم بقوس ثقيل ومع نشابة طومار » وامتحن هؤلاء فكان يدفع الى كل منهم ذلك القوس الثقيل والنشابة « فكل من لا يقدر يسحب ذلك القوس يقطع جامكيته » وعجز بعضهم عن ذلــك فوبخهم السلطان وقطع أرزاق جماعة كثيرة منهم .

وقيل انه فعل مثل ذلك مرة أخرى فى ربيع الآخر من نفس السنة وفى ذلك يقول المؤرخ ابن تغرى بردى « والزمنى بحضورها ، فحضرتها ــ يقصد ذلك الامتحان ــ فلم أر مايسوؤنى ، ولم أر أحسن من هذه الناس ، فانه شرع يعطى كل أحد حقه وينزله منزلته » ، وقد تعلم ابن تغرى بردى الفروسية على أيدى جماعة من أكابر مماليك والده .

وفي عهد هذا السلطان توفى الأمير تانى بك المعلم المحمدى الأشرفى (ت ٨٧٥ هـ / ١٤٧١ م) وكان عارفا بفنون لعب الرمح وكذا فى نفس السنة توفى سنقر قرق شبق الأشرفى ، وهو مقدم ألف بدمشق « وكان علامة فى لعب الرمح » .

ويبدو أن السلطان الأشرف قايتباى قد اعتاد أن يمتحن بعض المماليك فى فنون الفروسية من آن لآخر ـ كما سبقت الاشارة ـ ففى صفر من سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م ، عرض السلطان أولاد الناس وأمرهم بأن يلعبوا الرمح بين يديه حتى يمتحنهم فى ذلك « ويعرف من يلعب بالرمح ممن لا يعرف ، فحصل لهم غاية المشقة لأجل ذلك ووبخ منهم جماعة بالكلام ، وربما قصد الاخـراق بهـم (أى الغزو بهم) » .

وجاءت الأخبار في شوال سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٣م بوفاة برقوق الناصرى الظاهرى نائب الشام ، وكان « شجاعا بطلا مقداما فى الحرب عارفا بأنواع الفروسية فى فنون لعب الرمح والرماية بالنشاب » ، كما كان الأمير يشبك الفقيه ، الذى كان دوادارا كبيرا فى دولة الظاهر خشقدم سنة (٨٧٨هـ / ١٤٧٤م) وكان مشهورا بالفروسية(٣) .

وفى سنة ٨٨١هـ / ١٤٧٦م) كان قانصوه وفرق الابراهيمى من أعيان الخاصكية مقربا للسلطان قايتباى،وكان عارفا بالفروسية .

وفى سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م كان الأمير خاير بك من حديد أحد المقدمين فى مصر ونفاه السلطان الى الشام ثم الى مكة « وكان عارفا بأنواع الفروسية » الى جانب اشتغاله بالعلم وفصاحته فى العربية .

وفى سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م كان بحلب صـنطباى العلاى الظاهرى أحد أمراء العشرات ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق

« وكان رأسا فى الرمى بالنشاب » وتوفى أيضا قانى باى الفلاح الأشرفى أحد العشرات ، وأصله من مماليك الأشرف برسباى « وكان بارعا فى فنون الرمح » .

وتكرر ركوب السلطان قايتباى للرماية والعود فى موكب حافل وحدث أن ركب مرة على فرس حرون وسير فى الحوش ثم ساق ولكن انقلب الفرس فوقه فكسرت رجل السلطان · وقد نظم الشاعر الشهاب المنصورى يعتذر عن هذه الواقعة(٣) ·

وفى عهد السلطان قانصوه الغورى أصبح لالعاب الفروسية بأنواعها شأن كبير ، فقد تكرر عرض الرماحة أمام السلطان فى مواضع متعددة وبحضور قصاد السلطان ، فكأنه كان يستعرض قوة فرسانه ويظهر عظمة ملكه ، وأدى ذلك الى تفنن الفرسان فى ألعابهم وكان السلطان ينعم عليهم بالمال والخلع ·

وقد أفاض ابن اياس فى وصف ذلك فيقول : فى جمادى الآخرة من سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٤م « خرجت الرماحة المعينون للعب الرمح ، فلعبوا عند زاوية الشيخ أبى العباسى الحرار » وجلس السلطان فى المقعد الذى انشأه فى الميدان ورسم للرماحة بأن يسوقوا أمامه فى الميدان « فساقوا وهو جالس وحوله الأمراء ، فلما ساقوا عيبت عليهم المماليك القرانصة وخطأوهم فى طريقة لعب الرمح عما كان يفعله الأقدمون دن البنود التى كانت تقع فى لعب الرمح على العادة القديمة » .

ولعل ذلك يوضح أن ثمة تغييرا قد حدث على طرق اللعب بالرمح عما كان عليه من قبل وان كانت المصادر لم تفصح عن طبيعة ذلك التغيير ·

"وكما ذكر فان السلطان كان حريصا على أن يضيف قصاده فى مكان تجرى فيه العاب الفروسية على اختلافها فكثيرا ما نزل الى الميدان ومعه قاصد الصوفى وأحضر قدامه مماليكه يرمون بالنشاب على الخيل وهم بآلة السلاح ، « فأظهروا فى فنون النشاب أشياء غريبة » ٠

وتكرر نزول السلطان الى الميدان لمشاهدة عروض الفروسية على الأغلب مع كل قاصد يأتى اليه كما حدث مع قاصد صاحب بغداد فى شوال سنة ٩١٤ هـ / وأدهش القاصد لما رأى من أنواع غريبة فى فن النشاب ٠

وكان يجتمع الناس هناك من أجل الفرجة على تلك الالعاب الفروسية فبرغم أنها كانت رياضة الأمراء والفرسان والسلاطين ، فان الشعب كان يستمتع بها مشاهدة أو ممارسة فى بعض الأحيان ٠

كما دعا السلطان قرقد بك بن عثمان ورسم للرماحة الذين يسوقون فى أيام المحمل بأن يسوقوا فى الميدان ليتفرج ابن عثمان عليهم وهم لابسون آلة السلاح ، وتكرر ذلك مع هذا الزائر فى أيام متوالية وكان يشاهد فى كل مرة خصمانية فى لعب الرمح ٠

وحدث بعد أن حلف السلطان المماليك الجلبان وأغواتهم بألا يثيروا فتنة أن فرق عليهم الرماح ورسم بأن يلعبوا الرمح فى الميدان وأمر لكل مملوك بثلاثة أشرفيات وانفض المجلس على ذلك ومرة أخرى أنفق على جماعة مخصوصة من الخاصكية الأعيان ممن كانوا يرمون النشاب على الخيل فى الميدان ويلعبون الرمح ، لكل واحد منهم عشرة آلاف درهم واعطى لجماعة منهم ستة آلاف درهم ٠

ومع أن الجامكية كانت تصرف للعسكر فان السلطان الغورى قد استجد جامكية تصرف للمماليك الذين استجدهم ما بين تراكمة وأعجام وأولاد ناس وغير ذلك من الطوائف ، فجعل لهم جامكية خامسة تصرف لهم على انفراد دون جوامك العسكر ، وأطلق على هؤلاء المماليك « المماليك الأراذل » وكان منهم من لايعرف كيف يجذب القوس أو يمسك الرمح ، واعتبر ذلك أمرا عجيبا فيمن يستحق الجامكية وأعطائها لمن لا يستحقها(٤) ٠

والمعروف أن هؤلاء الرماحة أثناء عروضهم كانوا يلبسون الأحمر وآلة السلاح كاملة ، كما يفعلون فى أيام دوارن المحمل ، كما جرت عاداتهم بعد عرض العابهم أن ينزلوا خيولهم ويقبلوا الأرض للسلطان على جارى العادة(٥) فيخلع السلطان على معلمهم وعلى الأمراء المقدمين ، ومن أشهر هؤلاء المعلمين فى عهد السلطان الغورى هو المعلم تمر الحسنى وهو أحد المقدمين المعروف بالزرد كاش ٠

كما جرت العادة بعد عرض ألعاب الفروسية ، أن تمد أسمطة حافلة فى كل مرة يحضرها القصاد والأمراء وينشرح فيها السلطان للغاية ٠

وكان يتم نوع من التنافس بين من يجيدون اللعب على الخيول كما حدث بين أبى الحسن بن ميمون (ت ٩١٧ هـ / ١٥١١م) وابن عراق حينما كانا يسيران فى الطريق لزيارة الامام الاوزاعى ، فلعب ابن عراق على جواده كعادة الفرسان ، فعاب عليه ابن ميمون ثم تنافسا على ذلك فنزل ابن عراق عن فرسه وتقدم اليها ابن ميمون «, فحل الحزام وشده كما يعرف وركب ولعب على الجواد فعرفوا مقداره فى ذلك » ٠

وكان الشيخ علاى الدين الأخميمى الشهير بالنقيب (علامة فى الرمى بالنشاب ، عارفا به ، وكان له اليد الطولى فى ذلك) وكان خطيبا حوى كل فن وعلوما شتى ٠

ومن الملاحظ أنه مع مداومة المماليك والأمراء على ممارسة ألعاب الفروسية بشتى فنونها بصفة مستمرة ومن آن لآخر ، فانه كانت هناك مواسم تخرج فيها مواكب السلاطين ويلعب فيها شتى ألعاب الفروسية مثل ختام لعب الكرة وخروج الحج وعودته ، والاحتفاء بقصاد السلطان من خارج البلاد ٠

والواقع ان من أهم مناسبات ألعاب الفروسية المختلفة كان هو دوران المحمل ، وهو عبارة عن خروج المحمل بالكسوة الشريفة والبرقع وكسوة مقام ابراهيم عليه السلام لتحيته والحفاوة به ولاعلان الناس باقتراب موسم الحج ولشهر فخامته ولقضاء يوم فى التسلى برؤيته ٠

وقد جرت العادة أن يدور المحمل فى السنة مرتين فى شهر رجب وشوال ، ولندع ابن بطوطة يصف لنا موكب المحمل الذى رآه عند زيارته لمصر اذ يقول « وهو يوم دوران الجمل ، يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه : أنه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت المال ، والمحتسب ويركب معهم أعلام الفقهاء ، وأمناء الرؤساء ، وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر ، فيخرج اليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاءون على جمالهم ، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل بمدينتى القاهرة ومصر ، والحداة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى رجب ، فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث » ٠

هذا وقد يصحب الموكب مهرجون وهـم من عرفوا بعفاريت المحمل الذين يضحكون الناس على العادة ، حيث يغيرون من صفاتهم بهيئة عجيبة مزعجة ، وعندما يصل الموكب ساحة القلعة يطل عليهم السلطان وحوله عدد من موظفيه وأمرائه ورجـال دولته وحينئذ يقوم « الرماحة » وهم طائفة خاصة تحمل الرماح معدة لمثل هذه المناسبة من فرسان السلطان بملابسهم الحمراء فيلعبون ألعابا تنم عن فروسيتهم ومهارتهم حتى ان بعضهم يلعب بالرماح وهو واقف على ظهر فرسه .

ويستمتع الناس بمشاهدتهم ، ثم يدور المحمل أثناء ذلك أمام السلطان دورة استعراض .

والواقع أن السلطان الظاهر بيبرس هو أول من أحدث اللعب بالرماح وألعاب الفروسية فى المحمل وكسوة الكعبـة فى سـنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٧م بل قيل أنه هو الذى ابتدأ موكب دوران المحمل فى تلك السنة ، وان كان بعض السلاطين قد ابطلوا اللعب بالرماح فى هذا الموكب ، كما حدث فى عهد السلطان الأشرف برسباى فى سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٦م .

ويبدو ان محاولة السلطان تبسيط هذا الموكب بالغاء ركوب الرماحة كان باعثه ما حدث فى هذا الموكب من قبل عهده ، فقد جرت فيه أمور قبيحة ، ذلك أن المماليك السلطانية « نهبوا المطاعم وتعرضوا للنساء والشباب فى ليالى الزينة بشناعات عظيمة » .

وان كان ذلك ما لبث أن عاد مرة أخرى كما كان أول الأمـر فى عهد السلطان اينال ففى رجب سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م نودى فى القاهرة بالزينة ، وعرض المحمل كالعادة ولعب الرماحة لعبهـم

برئاسة جانى بك الطريف وابدع الرماحة فى ذلك وشهده السلطان اينال وضيفه اذ ذاك رسول ملك بنى عثمان ٠

هذا ويذكر ابن اياس فى حوادث جمادى الآخرة سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م أن دورة المحمل الرجبية قد أبطلت منذ أيام السلطان خشقدم سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م ، فأراد السلطان الغورى أن يجدد هذا الأمر « حتى يصير له التذكار بين الملوك » فدار المحمل فى تلك السنة وعين السلطان معلم الرماحة والباشات الأربعة ومن الخاصكية أربعين مملوكا « على جارى العادة القديمة » مع أن ابن اياس نفسه هو الذى يذكر عن السلطان خشقدم « وكان يدور المحمل فى كل سنة فى رجب وتسوق الرماحة على جارى العادة أربعين يوما » وذكر أيضا أن خشقدم كان يجلس فى وسط الرميلة ليشاهد المحمل ٠

ولعل الصحيح أن السلطان الظاهر جقمق كان هو الذى أبطله نحو عشر سنين من قبل ، وفى سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ، رشح المؤرخ ابن تغرى بردى ليكون أميرا للمحمل أو معلما له ، ولكن السلطان عين جانى بك الأشرفى الخازندار بعد أن طلب الأخير ذلك فأجيب مجاراة من السلطان ٠

وبعض الأحيان كانت تخرج أمام المحمل مجموعة من الأفيال الكبار وهى « مزينة باللبوس وعلى ظهورها الصناجق وقدامها الطبول والزمور » ٠ وحدث ذلك فى شوال سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م ، فى عهد السلطان قنصوه الغورى ٠

والمعروف انه قبل خروج المحمل بمدة طويلة كان الرماحة يتدربون على ألعاب الفروسية المختلفة يعرضونها ساعة دوران المحمل كما كانوا يعدون الحيوانات ويروضونها لهذا الغرض ، فذكر

ان السلطان الغورى قد اعتاد فى الغالب بعد أن يحضر مماليك يرمون بالنشاب على الخيل ، أن يحضر الحيوانات كالافيال للمصارعة أمامه وكذا السبع والهزبر •

ويصف بعض المؤرخين كذلك ما كان يحدث فى موكب المحمل فيقول « فى تلك الأيام يلعب أعيان الجند بالرماح فى الفضاء الواسع عند قبر سيدى أبى العباس الجزار بالقرافة ، ويلعبون هناك فنونا عجيبة وأندابا غريبة ، ويركبون المماليك الصغار خيولا قد نصب عليها السيوف والرماح بالقباقيب وفى أيديهم رماح صغار يلعبون بها وهم على ذلك » •

لعبة القبق

ومن الألعاب الرياضية المرتبطة بالفروسية ، التى اقبل عليها المماليك ، لعبة القبق أو القباق ، وهى لفظ تركى معناه القرعة العسلية وأطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى لعب الرماية المعروف باسم القبق أيام المماليك •

ويشترط فى رمى الفارس أن يعرف التنقيل والسوق ، والتنقيل هو سوق الفرس قليلا ، والسوق هو الجرى الشديد ، والرمى أثناء الجريان والجولان ولاسيما عند اشتداد جرى الفرس الى آخر الشوط بالميدان •

والأصل فى رمى القبق هو اتقان علم ركوب الخيل وحبس رؤوسها باللجم ، والتدريب عليها فى الكر والفر حتى يتعودها الفارس ويصير له ذلك عادة •

وتشير المصادر الى أن تفصيل هذه اللعبة هو أن يجعل فى ميدان الرمى حبل معترض مرتفع على خشبتين ، ويجعل القبق فى

وضع متوسط بين الخشبتين ، ويكون سوق الرماة عند الرمي من تحت الحبل وفى بعض الأحيان كان يستعاض عن الحبل برسم دائرة اتساعها عشر باعات يكون القبق في مركزها ، ثم يرمى اللاعبون الى السماء لاصابته .

ويجوز أن ينصب الرامى حلقة معدنية على شكل قرعة عسلية من ذهب أو فضة ويكون فيها طير حمام ، على خشبة عالية أيضا فى ميدان الملعب ثم يأتى اللاعبون للمباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل .

فمن أصاب القرعة أو طار الحمام حاز السبق وأخذ القرعة المعدنية نفسها مكافأة .

وقد زاد المقريزى على ذلك فوصف لعبة القبق بقوله : « انه عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب فى براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة ، كى تمر من داخلها الى غرض هناك تمرينا لهم على احكام الرمى .

وهذا الوصف يختلف قليلا عن الوصف السابق ، ويفهم من ذلك أن الرماة كان يمكن أن يرموا وهم على الأرض أو على ظهور الخيل .

وفى وصف لكيفية الرمى على الهدف فى لعبة القبق ، تشير بعض المصادر الى انه اذا استوى الفارس على فرسه ، ومكن رجليه فى الركاب ، ولزمت ركبتاه وما يليهما من الساقين جانبى الفرس ، قبض بكل كفه على مقبض القوس ، وأمسك العنان بالوسطى والبنصر حتى يفوق السهم ، ثم ينهض الفارس قائما على ميل يسير على القربوص الأمامى ، ويحنى وسطه قليلا ، ثم يقبض على السهم

بجميع الكف ، ويجعل فوق السهم الى خلفه ونصله أمام الرامى ، وبعد قبض السهم يفوق بثلاث أصابع ، فاذا مافوقه جعل نصله على رأس الفرس فيما بين اذنيه من غير أن يمسهما ، وينبغى أن تتم العملية كلها فى وقت واحد ، حيث يجرى سوق الفرس وتفويق السهم وجر القوس بالسهم وافلات العنان من أصابع اليد اليسرى جملة واحدة ٠

وذكرت كتب الفروسية أن على لاعب القبق أن يتخذ فرسا مدربا وأن يعوده الرامى على دخول القبق قبل الرمى ، فيروضه على الجرى والدخول نحو الخشبة والعلامة مرات ، حتى يرى الفرس ذلك ويعرفه ، قبل البدء فى الرمى ٠

كما حذرت اللاعب فى دخول القبق أن يصطدم بركبتيه بالمغنداق الذى عليه العلامة ونظنه خشبة القبق ، وقيل أن طوله عشر أذرع ٠

وقيل أن أحسن مايكون الرمى فى القبق ، حين يلتفت الفارس من أعلى كفل الفرس الى فوق ويرمى بعد أن يتجاوز الخشبة قدر باع وأن يتبع الرامى السهم بنظره الى أن يتعدى السهم العلامة ٠

ويستخدم الفارس عند رمى القبق السهم العريض النصل المعروف بالطمار اما أرض ميدان الرمى فينبغى أن تكون مستوية ، صالحة لأن يثبت عليها حافر الفرس ، وأطول الميادين للقبق مائة وثلاثون ذراعا ، وأن يراعى الرماة اتجاه الرياح بحيث تكون بظهر الرامى عند السوق ، ويتجه الى الجانب الآخر من الميدان عرضا ٠

ومن الأمور المرعية عند الرمى على القبق أنه اذا اجتمع الرماة بدأ أحدهم بالسوق والدخول فى الرمى ، ولايدخل الثانى

خلف الأول الا اذا ابتعد عنه بمسافة كافية ، حتى انه لو سقط الأول تمكن الآخر من عطف فرسه عنه حتى لايقع فوقه ٠

ويبدو أن لعبة القبق من اختراع المماليك ، خاصة انه لم تحدثنا عنها سوى المصادر المملوكية ، التى أوردت تفاصيل عن هذه اللعبة ، ففى أوائل العصر المملوكى سنة (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م) عرف المماليك لعبة القبق ، حيث أمر السلطان الظاهر بيبرس حاشيته أن يستعدوا لتنظيم لعبة القبق ، وكان ذلك كما ذكر المقريزى فى شهر شعبان سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م ٠

واهتم الناس فى ذلك العصر باللعب فالبسوا خيولهم التشاهبر وهى الأشرطة التى توجد حول صدر الحصان ، والبراسم البحرية أى السروج الحربية والمروات والأهلة الذهب والفضة والأطلس الخطائى ٠

هذا وتشير بعض المصادر الى بعض ميادين اللعب بالرمح التى كان يسمى بعضها ميدان المروات ٠

وقد بلغ من اهتمام سلاطين المماليك بلعبة القبق أن اقام لها السلطان الظاهر بيبرس ميدانا خارج باب النصر من شرقى القاهرة عرف ميدان القبق ، وميدان العيد ، وبالميدان الأسود او بالميدان الأخضر ، وعرف كذلك بميدان السباق ٠ وكثيرا ماساق السلطان بيبرس الى هذا الميدان « وقدامه جنائبه ، وشرط لكل أمير يصيب القبق فرسا من الجنائب بما عليه من التشاهير ، وخلعة لكل مفردى أو مملوك أو جندى ، ودخل الناس بالرماح بكرة النهار ٠

ولعل ذلك يدل على أنه قد سمح لبعض أفراد الشعب بممارسة هذه اللعبة ومشاركة المماليك ذلك ٠ وان كان هذا ليس فى كل

، فيشير بعض المؤرخين فى هذا الصدد . انه بينما كان
بعيشون عيشة الترف ، كان المصريون على العكس من ذلك
م الا الزراعة فى الأرض ودفع الضرائب .

ى المحرم من سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م أمر السلطان بيبرس
صطبة فى نهاية باب النصر ، عندما احتفل برمى النشاب
درب ، وصار ينزل كل يوم الى هذه المصطبة وقت الظهيرة
لعبة القبق ، ولايغادر الا العشاء الآخرة خاصة فى الأعياد
المرماية الشغل الشاغل له ولرجال حاشيته .

ا وقد انتقلت لعبة القبق الى سوريا فى عهد السلطان
حيث هو الذى أدخل هذه اللعبة اليها سنة ٦٧٢هـ /
وكانت تقام فى قلعة دمشق فى ذلك الوقت ، ولكن توقفت
ة فى سوريا لكثرة الأمطار التى كانت تسقط فيها ، وكانت
ـرة تلعب فيها القبق هناك فى شهر جمادى الاولى سنة
١٢٧٦م .

ـو أنه بعد موت السلطان الظاهر بيبرس قد قل شأن لعبة
لم توجد دلالة على أن هذه اللعبة كانت تمارس بعده على
ـح ، ويعتقد أن خلفاء الظاهر بيبرس لم يهتموا الا بالالعاب
و التدريبات العسكرية .

ـتمر ميدان القبق فضاء من قلعة الجبل الى قبة النصر ،
ذيان الى أن تولى السلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون ،
ول اليه وبنى مصطبة برسم طعام طيور الصيد بالقرب من
ثى ، وصار ينزل هناك . ثم ترك تلك المصطبة فى سنة
١٣٢ م وعاد الى ميدان القبق ، وصار يركب اليه للرمى
على عادة من تقدمه من الملوك الى أن « بنيت فيه القبور

شيئا بعد شيء حتى انسدت طريقه واتصلت المبانى من ميدان القبق الى تربة الروضة خارج باب البرقية ، وبطل السباق منه ورمـــى القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون » ٠

وقد كان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمى ، والملك الأشرف خليل بن قلاوون « يركبون فى الموكب لهذا الميدان وتقف الأمراء والمماليك السلطانية تتسابق بالخيل فيه قدامهم وتترك العسكر فيه لرمى القبق ٠

ويبدو أنه كان هناك مواضع أخرى للعب القبق أيام السلطان الظاهر بيبرس ، فقيل أنه عمر الجامع الكبير الذى بزقاق الكحل « وكان مكان هذا الجامع ســـاحة برســـم القبـــق يلعب هنـــاك المماليك » ٠

على أنه كانت تقام للرياضة بأنواعها الميادين ، وهى مساحات فسيحة فى أماكن عديدة ، بعضها فى القلعة وفى القاهرة أو فى خارجها فمن أهمها : الميدان بالقلعة ، وهو الميدان الذى كانت تقام فيه صلاة العيدين ، ويعرف بالميدان الكبير ، بالاضافة الى ميدان القبق السابق ذكره ، والميدان الناصرى وهو على النيل بين مصر والقاهرة ، وميدان سرياقوس ، وهى بلده فى نواحـــى القاهرة ، وكانت أرض هذه الميادين ممهدة ترش بالمياه بانتظام ، كما كانت تعد فيها أماكن لجلوس المشاهدين ، فتقام فيها المصـــاطب لهـــذا الغرض ، كما كانت تقام فى بعضها ــ وقت المباريات ــ خيمة كبيرة للسلطان « دهليز » وخيام أخرى للاســـتراحة ، أو حتى قصـــور وأماكن خاصة ، مثل تلك التى تحيط بميدان سرياقوس ٠

ولعل ذلك يدل على أن السلاطين كانوا يحضرون لمشاهدة تلك الرياضات ان لم يشاركوا أمراءهم فيها ، كما يشير ذلك الى الاهتمام البالغ بهذه الرياضات فى عصر سلاطين المماليك ٠

ولم تكن ممارسة المماليك للعبة القبق تقتصر على الأيام العادية فقط ، بل اقبلوا على ممارستها فى شتى المناسبات اظهارا لشعورهم كما حدث فى سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م عندما أمر السلطان الأشرف خليل بلعب القبق ، بسبب طهور أخيه الناصر محمد بن قلاوون ، وكذا طهور ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى بن الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون حيث تنصب القبق تحت القلعة مما يلى باب النصر ، وفرقت الأموال والخلع على من أصاب رميه .

هذا وقد برع بعض الأمراء فى هذه اللعبة الى حد كبير ، حتى ان أحدهم وهو الأمير بدر الدين بيسرى قد رماه كما لم يرمه غيره قبله ، اذ اقترح له سرجا وطىء الرادفة جدا ، ثم سار نحو صارى القبق ، والعادة جارية أن الرامى لايرميه الا اذا صار بجانب الصارى ، الا أن الأمير ساق الى أن تعدى الصارى ، فاعتقد الناس أنه قد فاته الرمى ، ولكنه استلقى على ظهر فرسه حتى صار رأسه على كفل الفرس ورماه وهو كذلك بعد أن تعداه فأصاب القرعة وكسرها ، فصرخ الناس لذلك واستعظموه وظهرت للسلطان فائدة السرج ، فأنعم عليه بخمسة وثلاثين ألف درهم ، وعظم فى صدر الناس » وعلموا عجزهم بما أتى به وفعل مافعل .

وفى مجال اظهار براعة الرماة ، كان الرامى يستلقى على ظهره ، ويرمى يمنة ويسرة ، ويكون الرمى من قبل الأمراء عادة ، وذلك على قدر منازلهم واحدا واحدا ، أو حتى من قبل العساكر والمماليك ، حيث يشرف على ذلك الحجاب فمن أصاب القرعة أى أصاب طير الحمام ، منحه السلطان خلعة أو فرسا أو غير ذلك .

وقد اشتملت بعض مخطوطات الفروسية التى تنسب الى هذا العصر على بعض التصاوير التى توضح طريقة الرمى على القبق

وكيفية الدخول فيه ، ومن بينها مخطوط « مجموع فى الفروسية ، وتشتمل على رسائل ومنتخبات مختلفة فى الرمى والفروسية وأدوات القتال والمصارعة واستعمال النفط وغير ذلك من الفنون الحربية » ٠

وفيها تصويرة تمثل فارسين يتقدم أحدهما على الآخر فى اتجاه هدف القبق وهو يقحم فرسه على خشبه القبق يحاول كل منهما اصابة الهدف قبل صاحبه ٠

كما توجد تصويرة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس تنسب الى عصر السلطان الأشرف قايتباى سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧١م ، تمثل فارسين متواجهين يعدوان بجواديهما فى وضعية ثلاثية الارباع ، حيث يحاول كل منهما اصابة هدف على هيئة قرعة ، مرفوع فوق صارى طويل عن طريق اطلاق أسهم من قوس فى يده ٠

وكثيرا ما انتهى أمر لعبة القبق الى الطعان بالرماح أو الدبابيس أو بالسيوف ، فينقسم اللاعبون الى فريقين عقب لعب القبق ، ويأخذون فى المبارزة والطعان « فلا يرى الناس الا سيوفا تبرق » وكان الظاهر بيبرس يستغل تلك الفرصة ليستعرض أمام الناس مهارته فى استخدام الرمح وهو لا يسأم الكر والفر ٠

وخلاصة القول ان المماليك وسلاطينهم قد مارسوا رياضة الفروسية بأنواعها المختلفة ، وبرعوا فى ذلك الى حد كبير ، وماكان ذلك يحدث الا فى ظل تشجيع السلاطين والحكام لهذه الرياضة التى تتفق وطبيعة المماليك وظروف عصرهم ونشأتهم العسكرية ٠

بيد أنهم اتخذوا من هذه الرياضات مجالا للتدريب على فنون القتال والرماية ، حتى ان طبيعة تلك الألعاب فى غالبها تتسم

بالخشونة والجدية رغم أنها كانت تنفق فى غالب الأحيان كوسيلة من وسائل الترفية فى ذلك العصر ٠

وبرغم أن رياضات الفروسية لم تكن ألعابا شعبية فإن كثيرا من طبقات الشعب قد استمتعت بهذه الرياضات مشاهدة فى الغالب ومشاركة أحيانا ، وليس معنى ذلك أن الشعب المصرى فى ذلك العصر قد صفت له الحال تماما ، فكثيرا ما عانى الناس من الارهاق فى مجاراة المماليك وسلاطينهم فى سبيل تحقيق متعاتهم الترفيهية ، نتيجة لما كان يفرض عليهم من أعباء فى مثل هذه المناسبات ٠

هوامش الفصل الأول

(١) الانداب ، جمع ندب ، وندب النشاب نوع من اللعب به ، يقال لعب اندابا فى الميدان ، واظهر اندابا غريبة فى الحرب ، والمقصود فنون الحرب (انظر ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٧ ، ص ٣٠٣) ٠

(٢) العينى ، السيف المهند ، ص ٢٣٠ ٠ وأصل اللعب بالرمح من العرب ، وقيل أول من اخرج الرمح وأمسكه اسماعيل عليه السلام ، وقيل انما تعلم من جرهم حين تزوج منهم امراة ، ثم تداولته الناس ، ولكن اندابه حدثت فى زمن الترك ـ يعنى المماليك ـ لاسيما فى دولة الملك الناصر حسن الى دولة الظاهر برقوق ٠ (انظر ، العينى ، السيف المهند ، ص ٢٣٠) ٠

(٣) حيث يقول الشاعر :

وقد زعموا ان الجواد كبا بـه   وحاشاه من عيب يضاف اليه

ولكن راى سلطان عز وهيبة   فقبل وجه الارض بين يديه

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٢٧ ٠

(٤)

انى اشح بدرهم متصدقا   وأجود فى قدح بما ملكت يدى

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٢٠٦)

(٥) وقيل ان الذى أحدث ذلك أول مرة هو الاشرف قايتباى لما كان يسوق فى دوران المحمل ، فكان ينزل عن فرسه ويبوس الارض للسلطان خشقدم فى وسط الرميلة (ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٣٩١) ٠

* * *

الفصل الثاني

الصيد والقنص

مع اتساع خبرات الانسان ومجالاته وامكاناته تطورت فنون الصيد ، أصبح ـ مع كونه ضرورة ملحة فى بعض الأصقاع ـ يعتبر هواية رائعة ، ورياضة ممتعة حتى احترفها البعض تجـــارة تدر عليه الربح الوفير ، كما أغرت الكثيرين على اتخاذها مجـالا للشهرة وميدانا للتفاخر ·

وقد تميزت عصور مصر القديمة بممارسة أهلها الصــيد واستخدموا فى ذلك أدوات بدائية مختلفة ، كما عرفوا الرمح الذى كان يستخدم فى صيد الحيوانات البحرية والبرية ·

واهتم العرب أيضا بالصيد سواء في الجاهلية أو فى الاسلام واستخدموا جوارح الطير كالباز والشاهين والعقاب والصقر وسائل للصيد يعلمونها ويدربونها على ذلك · وقيل ان بعض الصحابة كانوا يصيدون بالصقور والبزاة والكلاب الضواري ، التى أطلقوا عليها بعض الأسماء الغريبة ، كما استخدموا الفهود فى صـــيد الحيوانات البرية ، كما عرف العباسيون الصيد ومارسوه حتى قيل ان الخليفة المهدى ربما مات أثناء حادثة صيد ·

وفى عصر الدولة الطولونية كان خمارويه مولعا بالصيد ولعا شديدا فكان يخرج لذلك الى جهة الاهرام واذا فرغ من صيده صار الناس يجتمعون لمشاهدة ماصاده الأمير ·

أما فى العصر الفاطمى فقد انتشر الصيد خاصة بين الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة فقد أجمع المؤرخون على ولع الخليفة

العزيز بالله الفاطمى بالصيد حتى انه كان يلقب « بالخليفة الصياد » ٠

وفى الدولة الايوبية كان صلاح الدين يبرز للصيد فى مصر ويصيد أياما وفعل ذلك الملوك من بعده ٠

وهكذا كان الصيد والقنص من أهم وسائل الترفيه والمتعة لدى الملوك والحكام بشكل عام ، حتى انه فى العصر المملوكى « كان خروج السلطان للصيد من مظاهر الملك والأبهة ومن رسوم السلطنة وهذا مانعرض له فيما يأتى ٠

لقد كان الصيد رياضة المماليك المفضلة ، وتسليتهم المحببة حيث كانوا يدربون منذ حداثة سنهم على فنون الحرب وأساليب الصيد وغيرها ، كما كانوا ينظرون الى الصيد على أنه رياضة سامية تسمو بالنفس ، وتهذب الخلق ، ويرون أنه العمل الذى يليق بهم فى السلم اذا توقف عملهم فى ميدان القتال ، لذا فاننا نراهم يخرصون على تعلم أساليب الصيد وكل ما يتصل به من مهارات عن طريق التدريب والممارسة بالادعاء لمن أجادوا هذا الفن وأصبحوا أساتذة فيه ، فقد قيل ان الملك الظاهر بيبرس توجه فى المحرم من سنة ٦٦٣م « من قلعة الجبل للصيد فأقام بوسيم ثم سار منها الى العباسة ورمى هناك بالبندق وادعى له جماعة ، كان منهم الأمير فخر الدين عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك » ٠

والمعنى المقصود بالادعاء له — أى للسلطان بيبرس — أن الأمير فخر الدين عثمان المذكور انتسب اليه واعتبره أستاذه فى فى الصيد ذلك أن العادة فى دوائر الصيد كانت فى ذلك العصر ، أن المبتدىء لا يصير فى زمرة هواة هذا الفن الا بعد الانتساب لأحد

رماة الصيد القدماء ، فاذا تم له ذلك قيل انه ادعى لفلان أى انتسب اليه ، كما كانت وسيلة الادعاء أن ينجح المبتدىء فى اصابة رميته من طير أو غيره ، وعند ذلك يختار الانتساب الى من يشاء من رجال الصيد سلطانا كان أو أميرا أو فقيها أو عاميا ٠

ولعل فى هذا ما يوضح ما كان للصيد زمن سلاطين المماليك من آداب مرعية وأخلاقيات يتحلى بها من يمارسون هذه الرياضة ، حتى يتساوى السلطان أو الامير مع الشخص من العوام فى استاذية كل منهم فى مجال الصيد ، وان كان لا شك فى أن الانتساب الى كل منهم يكون على قدر مكانته ٠

ومن المعروف أن للصيد مناطق معهودة ومواضع مخصوصة من صعيد مصر وصحاريها وبراريهـــا ، حيث يوجد الطيـــر أو الحيوان ، كما كانت له أيضا مواسمه الموقوتة وأيامه المعروفة ، فقد كان الخروج للصيد عادة فى فصل الربيع حيث يتعدد ســبع مـــرات ٠

وقد تعددت مواضع الصيد فكان منها ما هو قرب القاهرة ومنها ما هو بعيد عنها ٠ فمن الأماكن التى ارتادها المماليك بغرض الصيد ، بر الجيزة حيث كان من عادة السلاطين والأمراء أن يعدوا الى بر الجيزة للصيد هناك ، وكذا جهة الأهرام حيث توجد الغزلان والكراكى ٠

وجدير بالذكر أن السلطان المظفر قطز بعد أن هزم التتار فى عين جالوت من أرض كنعان سنة ٦٥٨هـ ، وأثناء عودته الى الديار المصرية ، انحرف عن الدرب للصيد عند القرين فرأى أرنبا فساق خلفه وساق معه خواصه من الأمراء ، الذين كانوا قد اتفقوا على قتله ، ثم تولى قاتله الأمير بيبرس البندقدارى السلطنة بعد ذلك ٠

ومن الطريف أن السلطان قطز ـ الذى قتل أثناء الصيد ـ قد وصل الى كرسى السلطنة بعد أن تخلص من المنصور على وهو ابن استاذه مستغلا غيبة أكثر الأمراء من مماليك أبيه فى الصيد أيضا ٠

وكان الظاهر بيبرس من أكثر سلاطين المماليك اهتماما بالصيد لذا اهتم بطيور الصيد وكلابه على اختلاف أنواعها ، فأنشأ لهـا المطاعم ، وعين لها البازدارية(١) للاشراف عليها والعناية بها ٠

كما كان حريصا على أن يشمل أمراءه بعطفه أثناء سرحات الصيد ، ففى ربيع الآخر سنة ٦٦١هـ ، سار من قلعة الجبل الى بلاد الشام ، واستمر فى الصيد الى ان دخل غزة ، وفى العريش ضرب حلقة بثلاثة الاف فارس فوقع فيها صيد كثير جدا وحدث أثناء الصيد أن تقنطر الأمير شمس الدين سنقر الرومى عن فرسه ، فسار السلطان اليه وترجل عن فرسه ، وجعل رأسه على ركبته وسقاه وأسعفه وأخذه الى خيمته ، وهكذا أيضا فعل مع الأمير سيف الدين قلاوون الذى سقط هو الآخر أثناء الصيد ٠

ولعلنا نلمس هنا أخلاقيات الصيد وآدابه ، وكذا عناية السلطان بأمرائه ورعايته لهم أثناءه ، فلا غرو فى ذلك فالصيد رياضة تسقط الفوارق وترفع الكلفة بين ممارسيها ٠

وقد ارتاد السلطان بيبرس أماكن كثيرة للصيد فى مصر والشام ، فقد خرج يوما الى الطرانة(٢) وسار الى وادى هليب(٣) ونزل الأديرة التى هناك ثم توجه الى تروجة(٤) ومنها سار الى الحمامات ، ثم الى العقبة وهناك ضرب الحلقة برسم الصيد وقضى هناك عيد الاضحى من سنة ٦٦٢ هـ ثم عاد الى الأسكندرية وفرق المال والقماش على الأمراء والخواص ٠

ومما يدل على شغف السلطان الظاهر بيبرس بالصيد ، أنه كان يحرص حتى فى وقت التجهيز لحرب التتار على الخروج فى سرحات للصيد ، ففى ربيع الآخر سنة ٦٦٣ هـ ، ركب من العوجاء بعد ركوب الأطلاب ، للتصيد فى غابة أرسوف ورسم للأمراء بأن من أراد منهم الصيد فليحضر « فان الغابة كثيرة السباع » .

وفى المحرم من سنة ٦٦٥ هـ ، خرج السلطان من دمشـــق بعساكره قاصدا الديار المصرية ، وسار الى الكرك ونزل ببركـــة زيزاء ، وركب ليتصيد ، فسقط عن فرسه مما جعله يتأخر هناك أياما حتى صلح مزاجه .

وكثيرا ماكان السلطان يقطع رحلة الصيد عندما يصله نبأ العدوان على احدى المدن ، فيروى المقريزى أنه في صفر سنة ٦٦٦هـ اجتاز السلطان بيبرس على السدير(٥) قرب العباسة(٦) وبينما هو فى الصيد هناك ، اذ بلغه حركة التتار على حلب فعاد الى القلعة وأمر بخروج الخيام .

وفى ذى القعدة من نفس السنة استقبل السلطان وهو فى الصيد ليفون بن ملك سيس ، وبالغ فى الاحسان اليه ، ورحـــل السلطان من انطاكية الى سيزر وسار فيها على البرية الى حمص وهو يتصيد ، كما كانت تصله أحيانا أخبار النصر وهو فى الصيد فيجزل العطاء للمبشرين .

وكان السلطان بيبرس يشجع الأمراء والمقدمين ، على الصيد فكثيرا ما كان يصطحبهم الى حلقات الصيد ، ويكافىء كلاً منهم على قدر ما يحضره من صيد سواء كان حيوانا أو طيرا ، ففى شهر صفر من سنة ٦٦٨ هـ خرج السلطان من قلعة الجبل ومعه الأمراء

والمقدمون ، فركب فى الحراريق الى الطرانة ودخل السلطان البرية وهناك ضرب حلقة ، فأحضر الى الدهليز ثلاثمائة غزال وخمس عشرة نعامة فقدم عن كل غزال بغلطاق(٧) بسنجاب ، وعن كل نعامة فرسا ثمينا بسرجه ولجامه ۰ ويتضح من هذا أن السلطان كان يسرف فى الانعام على من يشاركونه الصيد ، حتى انه خرج يتصيد فى ذى الحجة سنة ٦٧٠ هـ ، فخلع خمسمائة تشريف على من أحضر اليه الصيد ۰

كذلك كان أبناء السلطان بيبرس مغرمين بالصيد ، فقد خرج الملك السعيد بركة خان فى رمضان سنة ٦٧٢ هـ ، فى عدة من الأمراء الى الشام ، وفى ليلة عيد الفطر خلع على أمراء الشام والمقدمين والأكابر ، وخرج يتصيد بالمرج ، ووصل صفد ۰ وذكرت المصادر أن السلطان المنصور قلاوون قد « شرع فى الخروج الى جهة المرج والاقامة به والصيد وبذل الخلع والانعام ، فعمت هباته ومعروفه جميع الناس ، ومابقى من (لم يصله) انعام أو بر ، وأقام كذلك مدة مقامه فى الشام وخروجه الى متصيداته فى عدة جهات » ۰

وحدث أن رمى ابنه الملك الصالح علاء الدين على بجعا بجهة العباسة بالبندق وأهداه الى الملك المنصور محمد صاحب حماة ، فقبله وبالغ فى اظهار السرور والفرح بذلك وأرسل اليه تقدمة جليلة ۰

وكان السلطان الأشرف صلاح الدين خليل مولعا بالصيد ، اذ خرج فى جمادى الآخرة سنة ٦٩١ هـ من مصر الى الشام ووصل الى حماة فاهتم الملك المظفر صاحب حماة بأمر ضيافته والاقامة والتقدمة ، وضرب السلطان دهليزه فى شمالها عند ساقية سلمية

ومد له سماط عظيم بالميدان ، ونصبت خيم تليق بنزول السلطان ثم توجه من حماة وفى خدمته صاحبها وعمه الملك الأفضل الى المشهد ثم الى الحمام والزرقاء بالبرية ، فصاد شيئا كثيرا من الغزلان وحمير الوحش . وكان السلطان يمارس الصيد بالفهود ، ولايصطحب معه الا بعض من يختار من الخاصكية والملك الأفضل نور الدين والد المؤرخ « أبو الفدا » الذى كان السلطان يعجبه بحديثه وخبرته الكبيرة بأمر الفهود والصيد ، حتى ان السلطان قد دعاه للحضور الى مصر ، خاصة فى أيام الصيد ليصحبه فى صيوده استئناسا به .

ولما كان الصيد رياضة وتسلية ومتعة بالنسبة لسلاطين المماليك ، فانه أيضا كان سببا مباشرا فى افساح الفرصة لأعدائهم ومنافسيهم من الأمراء ، للقضاء عليهم فما اكثر حوادث الصيد التى تعرض لها السلاطين ، ومنها مادفع بعضهم حياته ثمنا لهبا كما سبق أن أشرنا بالنسبة للسلطان قطز ، كما أن السلطان الأشرف خليل قد قتل أيضا أثناء الصيد عندما سرح الى البحيرة يتصيد وصحبته الأمراء ، والمقدمون وغيرهم ، فبلغ الركب الطرانة فجاء اليه الخبر أن بتروجة طيرا كثيرا ، فقال : هيا بنا وانفرد فى نفر يسير ، ولم يكن معه سوى الأمير شهاب الدين بن الأشل أمير شكار ، فلقى فى تروجة طيرا عظيما ، فرمى بالبندق وصرع منها شيئا كثيرا وكان ذلك وقت العصر فى يوم من المحرم سنة ٦٩٣ هـ ، وبينما السلطان على هذا الحال بأرض تروجة اذ بجماعة من الأمراء على رأسهم الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة فادركوا السلطان وقتلوه .

كذلك كان السلطان الناصر محمد من أشد سلاطين المماليك تعلقا بالصيد حتى أنه عندما أبلغ باقامته سلطانا للمرة الثانية فى جمادى الاولى سنة ٦٩٨ هـ كان يتصيد بالغور بالشام .

وقد اهتم السلاطين بطيور الصيد وكلابها على اختـــلاف أنواعها ، حتى أنشأوا لها المطاعم ، وعينوا لهـــا من يقوم على خدمتها من البازدارية والخولة والكلابزية وأجزلوا لهم العطاء حتى وصل اقطاع بعضهم فى عصر السلطان الناصر محمد قرابة الألف دينار ، خاصة انه كان يحـرص على جلب الجوارح من الصـــقور والشواهين والسناقر والبزاة حتى أصبح كل أمير عنده منها عشرة سناقر تقل أو تكثر • ويقال انه ترك بعد وفاته مائة وعشرين سنقرا خاصة به ، وأن ذلك لم يعهد من قبله فى مصر ، كما ترك أيضا ثمانين جوقة من كلاب الصيد بكلابزيتها(٨) ، وهى التى أصبحت خمسين جوقة فى عهد الناصر حسن سنة ٧٤٨ هـ فقطعت وأبقى منها على جوقتين فقط •

وجدير بالذكر أن هدايا السلاطين كانت غالبا ماتضم عددا من الحيوانات النادرة وحيوانات الصيد ، فقد أرسل السلطان الى صاحب ماردين هدية ، عبارة عن فيل وزرافة وأربعة فهود ، توجه بها شهاب الدين احمد الدنيسرى السواق وهو من مقدمى الحلقــة المنصورية •

وقد اعتاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الخروج للصيد فى مواضع متعددة حتى أنه لم يدع أرضا تعرف بصيد الجوارح الا أقام بها صيادين يقيمون فى البرية أوان الصيد ، ويبدو انه كان يفضل الخروج للصيد فى صعيد مصر بصحبة قاصديه من المخارج ، كما كان كثير من الأمراء أيضا يخرجون الى هناك بغرض الصيد من دون السلطان •

وفى المحرم سنة ٧٠٢ هـ رسم لجميــع الأمـــراء والمقدميــن بالخروج الى الصيد نحو العباسة فخرجوا وخرج السلطان مبرزا الى البركة واجتمع هناك بالقضاة الأربعة ثم تقـــدم الدهليز الى

الصالحية ودخل السلطان والأمراء الى البرية للصيد حتى وصل الركب الى الصالحية · وكان فى كثير من الأحيان يخرج السلطان للصيد وفى صحبته الخليفة العباسى ، فقد خرج معه الخليفة أبو الربيع الملقب بالمستكفى بالله وقد ربطت الصداقة بينهما حتى صارا كأخوين ·

وكان الوزير يشرف بنفسه على ترتيب اقامة السلطان اثناء سرحات الصيد خاصة أن مدة غيبته قد تمتد أكثر من الشهر فى كثير من الأحيان ، وان كانت أحيانا تقتصر على يوم واحد بغض النظر عن بعد أو قرب موضع الصيد عن القاهرة ، فقد أقام السلطان والأمراء جهة الأهرام مدة سبعة وعشرين يوما ، فى حين نجده يتوجه ليتصيد فى البحيرة والحمامات ، ثم يطلع الى القلعة فى يومين أو ثلاثة ،، هذا وقد بلغت مدة سرحته فى الوجه القبلى اثنين وخمسين يوما ، كما كان الركاب يتوجه الى ثغر الاسكندرية والى الجهات الغربية من أجل الصيد والتفرج فى تلك الجهات ·

وأيضا حرص السلطان الناصر محمد على ممارسة الصيد ، حتى وهو فى طريقه الى الحج أو لزيارة القدس الشريف ، فيروى صاحب المختصر فى أخبار البشر أنه فى ثانى ذى القعدة سنة ٨١٧ هـ « خرج السلطان من قلعة الجبل وتصيد فى طريقه الكراكى ، وكنت بين يديه ، فتفرج على الصيد ، وصاد عدة من الكراكي ومن السناقر وغيرها ونزل بالدهليز المنصوب وأقام به يتصيد فى كل نهار ببلاد الجوف ورحل من المنزلة المذكورة بكرة الخميس سابع ذى الحجة ·· حتى وصلنا رابغ ·· التى أحرم منها » ·

وكان السلطان فى طريقه فى الرواح والعود يتصيد الغزلان بالصقور وكان فى صحبته أربعون جملا تحمل محاير الخضراوات

المزروعة ، وكان يحصد منها مايقدم بين يديه ، ويفرق على جميع من فى صحبته من الأمراء والأجناد المال بحيث بلغ أقل نصيب فرق فى الأجناد ثلثمائة درهم ومافوق ذلك الى خمسمائة درهم ٠

وسبق أن خرج السلطان متوجها لزيارة القدس الشريف ، فواصل مسيرته الى الكرك وتوجه الى بركة الأمير سيف الدين تنكز الناصرى نائب السلطنة بدمشق المحروسة وهناك تصيد فى تلك النواحى ثم عاد الى الديار المصرية ٠

وتصيد السلطان كذلك فى القليوبية بالقرب من قليوب ، وكذا بالخرقانية وحدث أن تعرض لحادث أثناء الصيد فتقنطر وانصدعت يده اليسرى ، فطلع الى القلعة ، وباشره المجبرون والأطباء وعندما عوفى أقيمت له الزينة فى كل المدينة واستمرت التهانى عدة أيام ٠

كما صحب السلطان الأمير تنكز نائب الشام للصيد بالجيزة وغيرها أكثر من مرة ، على الرغم مما كان يكنه له من ضيق فى صدره ٠

كما برز بعض الأمراء أيضا فى مجال الصيد منهم الحسين ابن أبى بكر بن جندربك شرف الدين الرومى الذى أصبح من خواص الناصر محمد ، وكان محظوظا فى الصيد مما قربه أكثر للناصر فأعطاه تقدمة ألف واستمروا الى أن أعطاه تقدمة وأصبح أمير شكار ٠

ويذكر أن الأمير أنص ابن السلطان العادل كتبغا كان يتصيد برغم كونه أعمى ـ حيث كان قد أصيب فى احدى عينيه وخفت ضوء الثانية ـ وكان لايظن أحد أنه أعمى لامكانه ارسال الجارح وسوق الفرس تحته ٠ وكان السلطان العادل كتبغا راغبا فى الصيد كذلك ، فقد سار من دمشق الى حمص على البرية متصيدا ٠

أما السلطان المنصور لاجين ، فكــان كثير الحركــة بحيــث يغيب فى الصيد الشهر والشهرين مصطحبا معه أرباب الملاهى ٠

وفى سنة ٧٥٣ هـ وجد فيما ضبط من موجود الصاحب علم الدين بن زنبور الدميرى « وجد فى دواره من الغزلان ، والكراكى والغرانيق والنعام ، وحمير الوحش والبط الصــينى والخــرفان البشموريات ، واشياء كثيرة لاتنحصر لكثرتها ٠٠ وهذا يشير الى اقتناء حيوانات الصيد وطيوره فى المنازل وانها كانت مظهرا من مظاهر الترف والأبهة فى ذلك العصر كما قبل السلطان حسن هدية فيها طيور جوارح ٠

وفى عهد السلطان الأشرف شــعبان ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م ، ٧٧٨ هـ / ١٣٧٧ م كان الصيد كذلك يمثل وسيلة مهمة من وسائل الترفيه فى ذلك العصر ، ورياضة مهمة لدى المماليك ، فكان السلطان والأمــراء يخرجــون فى ســرحات الصــيد الى جهــات كثيــرة من مصر ، فقد كان السلطان يسرح على عادته الى سرياقوس ، وكذا بر الجيزة كما سار فى ربيع الأول ســنة هـ ٧٧٠ هـ الى ناحيــة طنان(٩) للصيد ، ومنها مضى الى الاسكندرية التى زينت له زينة عظيمة ، وخرج أيضا للصيد فى البحيرة وكان هذا من عادته وقيل انه خلع ما استجده عند قدومه كل سنة من ســرحة البحيرة من الخلع على الأمراء الألوف ٠

واهتم الأمراء كذلك بالصيد فى عهده ، فخرج كثير منهـــم للصيد ، فقد توجه الأمير يلبغا الأتابك ، وكذا الأمير طيبغا الطويل ، أمير سلاح ، الى العباسة للصيد ، كما تصيد بعضهم فى جزيرة القط(١٠) ٠

كما عنى بعض الأمراء بتربية الأسماك فى برك خاصة ، مثل مافعل الأمير شهاب الدين بن أحمد بن قايماز استادار حينما اراد

عمل بركة شرقى الخليج ليتجمع فيها السمك ، وفتح لها مجرى من جانب الخليج ، مما أدى الى اغراق جهات كثيرة بسبب ذلك .

أما السلطان الظاهر برقوق فكان ايضا مولعا بالصيد بدرجة كبيرة ، حتى انه كان يركب للصيد عدة مرات فى الشهر الواحد . فقد خرج للصيد سبع مرات فى شهر صفر من عام ٧٩٦ هـ .

وكان الظاهر برقوق يتصيد في مواضع متعددة مصطحبا معه خواصه من الأمراء ففى المحرم سنة ٧٨٥ هـ ركب السلطان ومعه الأمير يلبغا الناصرى حتى عدى النيل من بولاق الى الجيزة من أجل صيد الكراكى ، حتى انه كان يستدعى هذا الأمير من دمياط أثناء سرحته للصيد فى سرياقوس وينعم عليه انعاما كبيرا بلغ مائة فرس ومائة جمل وسلاح ومال وثياب ، قيمة ذلك خمسمائة الف درهم فضة .

وذكر المقريزى أن السلطان قد خرج للصيد فى اماكن كثيرة من البلاد كما سبقت الاشارة منها جهة الأهرام وسرقوس والبحيرة خاصة فى ناحية دلنجة(١١) .

وكان كثيرا مايخرج للصيد فى بركة الحاج ، لكثرة وجود الكراكى بها ، حتى أنه خرج للصيد فيها فى شهر واحد ست مرات كما تصيد فى المطرية وطنان وغيرها .

وكان من عادة السلطان عندما يخرج الى سرحة سرياقوس أن ينزل بالقصور التى هناك ، ويكون بصحبته الأمراء وأهل الدولة . والمعروف أن آخر سرحة له الى سرياقوس هى تلك التى عاد منها فى الخامس والعشرين من المحرم سنة ٨٠٠هـ ، ولم يخرج اليها أحد من السلاطين من بعده ، حتى خربت قصورها بعد أن كانت أجمل عوائد ملوك مصر .

وقد اعتاد السلطان أن ينزل بين حين وآخر الى مطعم الطيور خارج الريدانية تحت الجبل الأحمر ، خارج القاهرة ويقعد بمصطبة المطعم هناك(١٢) ، كما كان يستقبل هناك بعض قصاده ، مثلما فعل مع الأمير تنم نائب الشام ، حين قدم اليه فى صفر سنة ٧٩٩هـ ، كما استقبل هناك عـددا من مماليكـه المشترين الذين كانوا بحلب وكان عددهم نحو الأربعين ٠

ومما يدل على ما للصيد فى حياة ســلاطين المماليـك من اهمية ، أن التقدمات والهدايا التى كانت تقدم اليهم كثيرا ما كانت تشتمل على كلاب للصيد وطيور جوارح أو فهود وغيرها ، مثال ذلك تلك التقدمة التى جاء بها الأمير بيدمر نائب الشام الى السلطان الظاهر برقوق واشتملت ضمن ما اشتملت عليه ثلاثة عشر كلبـا سلوقيا ٠ كما تلقى السلطان أيضا هدية من الخان طقتمش بن أزبك صاحب بلاد الدشت(١٣) وكانت عبارة عن سبعة سناقر من الطيور الجوارح ٠

وجدير بالذكر أن حب المماليك للصيد ، كاد أن يجرهم لحروب ومصادمات مع غيرهم ، ففى صفر سنة ٧٩٥هـ « قدم الخبر من الحجاز بأن جنتمر التركمانى أمير ركب الشام ، هجم على اشراف بالمدينة النبوية ليأخذ منهم صقرا يصطاد به وفهدا فدافعوه وقتـل منهم شريفين ، وكادت الحرب تقع لولا أن ركب الأمير ثابت بن نعير أمير المدينة ، وكف عن القتال ، وأن الشريف على بن عجلان قبض على سبعين من بنى حسن بمكة » ٠

ولعل هذا يبرز لنا مدى الحرص على ممارسة الصـيد من جانب الأمراء ، حتى لو افتقدوا أدواته ، مما دفع هذا الأمير الى محاولة الحصول على الصقر والفهد ليصيد بهما ، وقد يكون قد دفعه الى ذلك أنه صادف منطقة تصلح للصيد ٠

ولم يكن السلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق أقل من أبيه حبا للصيد حيث مارس الصيد هو وأمراؤه فى جهات متعددة من البلاد فكثيرا ماعدى النيل الى بر الجيزة ونزل بناحية أوسيم عند مرابط الخيول على البرسيم ليتصيد ويتنزه • وقد وقع منه ذلك فى الشهر غير مرة ، ويبدو أن السلطان أثناء تلك السرحات كان يتناول مشروبا مسكرا ، حتى انه كان يطلع الى القلعة بعدها ، « وهو لا يكاد يمالك نفسه على الفرس من شدة السكر » •

وقد تكرر منه ذلك حتى لقد بلغ به الشطط مبلغه حين أمر والى القاهرة أن يقتل عشرة من المماليك الظاهرية — أى مماليك أبيه — لتخلفهم عن الركوب معه ، حينما ركب هو الى الصيد بناحية بهتيب من ضواحى القاهرة • كما كان يعود من الصيد ويشق القاهرة ، وعليه ثياب جلوسه وهو مالم يحدث من ملك قبله •

ومع انهماك الناصر فرج فى أمور الترفيه هذه صيدا وشرابا فان ذلك لم يسلبه اليقظة ، ولم يلهه عما يحاك ضده من مؤامرات — شأن المماليك فى ذاك العصر — وكما حدث للبعض ممن سبقوه من السلاطين ، مثال قطز ولاجين وغيرهما • فبينما كان يتصيد بناحية سرياقوس اذ « بلغه أن طائفة من الأمراء والمماليك اتفقوا عليه ، فعاد الى قلعة الجبل مسرعا وتتبع ماقيل له حتى ظفر بمملوكين عندهما الخبر ، فعوقبا » بعد أن كشفا له الأمر ، وكان ذلك من تدبير أحد الأمراء هو الأمير جانم •

ومن السلاطين الذين عرفوا بحبهم للصيد أيضا ، السلطان المؤيد شيخ المحمودى(١٥) ، فقد تصيد كثيرا على عادة من سبقوه فى بر الجيزة لصيد الكراكى وكذا غيرها من الجهات مثل الطرانة وسرياقوس ، وتروجة وبركة الحاج(١٦) وبلبيس وأوسيم ، كما ن يحرص على الذهاب الى مطعم الطيور •

ولم نعلم سلطانا ركب للصيد فى بركة الحاج ليلا الا السلطان المؤيد شيخ الذى كان يرمى الطيور بها ·

وكذا السلطان الأشرف برسباى كما سيأتى فيما بعد ·

ورغم الألم الذى كان يعاوده فى رجله ، ويلزمه الفراش احيانا ، فانه ركب المحفة وهو مريض فى ذى القعدة سنة ٨٢١ هـ وسرح ثم عاد ولم يقعده المرض عن ممارسة رياضته فى الصيد ·

وكان السلطان الأشرف برسباى يخرج قاصدا الصيد فى البرية ، وخاصة بالليل ، كما كان يرمى الجوارح ويعود من الغد ، وقد تكرر الركوب منه لذلك مرارا ، كما سرح السلطان الى ناحية اطفيح برسم الصيد والقنص ، وبات خارج المدينة ، كما كان يتوجه الى جهة شبين والى بركة الحاج فى سرحات متوالية ·

ويبدو انه كان مغرما بالصيد ليلا كما أشرنا ، حتى انه « ركب من القلعة ودخل من باب زويلة وخرج من باب القنطرة للصيد ·· وبات ليلته فى طلب الصيد وفى غده عاد ·· » كما توجه الى الاعمال القليوبية لصيد الكراكى وان عاد منها أحيانا ولم يصطد شيئا ·

وقد حمل رسل بن عثمان الى السلطان فى رجب سنة ٨٣١ هـ تقدمة من المماليك عدتهم خمسون مملوكا من جنس الروم وطواشى أبيض ، وخمسة عشر من الطيور الجوارح المختلفة ·

أما السلطان اينال فقد كانت عادته أن ينزل بين الحين والآخر الى مطعم الطيور ، مثلما كان يفعل السلطان الظاهر برقوق كما أشرنا من قبل · وكان البازدارية(١٨) يطلقون طيورا أعدوها لهذا الغرض ، ثم يطلقون وراءها الطيور الجارحة لاصطيادها

والسلطان يتسلى برؤية هذا المنظر · وحدث مثل ذلك أيضا مع السلطان الأشرف قنصوه الغورى ، حيث نزل من القلعة فى التاسع من شعبان سنة ٩١٧ هـ « وصحبته ولده ، فتوجه الى نحو المطعـــم السلطانى وجلس على المصطبة التى هناك ، فأرموا قدامه رماية بالطيور والكلاب والصقور والفهود ، وانشرح فى ذلك اليوم » ·

وقد كان السلطان الأشرف قايتباى يركـــب كذلك للصــيد بصحبة الأمراء ويشق القاهرة فى موكب حافل ، على عادة السلاطين وأحيانا كان لا يشق منها بل يطلع « من بين الترب » ·

وقد تكرر نزوله للصيد فى شهر واحد ثلاث مرات ، وكان يهوى صيد الكراكى والبلشون ·

وحدث أن كان السلطان متوجها فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٠هـ الى ثغر دمياط من البحر ـ يقصد نهر النيل ـ فى عدد كبير من المراكب حوالى المائة مركب وبصحبته الأمـــراء والأمراء المقدمون والعشرات ، وكذا جماعة من المباشرين والخاصـــكية والمماليـك ، وبينما هم فى رحلتهم النيلية اذا بالسلطان يرمى عدة كراكى على احدى الجزر ، فيقوم بنفسه ويرمى عليها بسهم نشاب ، فصرع منها كركيا تحامل بسهمه ووقع فى البحر ، فاســـرع اليه أحـد السلحدارية ونزل ليحضره فقوى عليه التيار فغرق ، فحزن السلطان عليه كثيرا ·

ويبدو أن هذا السلطان كان محبا للتفرج على صيد السمك فقد توجه وهو فى دمياط الى مكـان يصـاد به السمك البورى ، ونزل فى مركب صغير وشاهد كيف يصاد هذا النوع من السمك ، وانشرح فى هذه السفرة للغاية ، ثم عاد الى القاهـــرة ، وكانت غيبته نحوا من خمسة عشر يوما ·

وقد كان من عادة السلاطين أن تشتمل هداياهم على بعض حيوانات الصيد وكذا أنواع من الطيور التى تستخدم فى الزينة ، فقد أهدى السلطان الأشرف قايتباى الى ابن عثمان هدية حافلة كان من جملتها سبع وزرافة وببغاء حمراء اللون وغير ذلك أشـــياء كثيرة ٠

ولعل هذا يوضح أن المماليك لم يكونوا يكتفون بمجرد التمتع بصيد الحيوانات أو الطيور ، بل كانوا حريصين على اقتنائهـــا للزينة ، ويدل على أهميتها عندهم أنها كانت تمثل أغلى ما يهدى منهم أو اليهم كما سبقت الاشارة الى ذلك ٠

ذلك ولم يشذ السلطان قنصوه الغورى عمن سبقه من السلاطين فى ممارسته للصيد كرياضة ترفيهية ، فقد توجه الى الفيوم وأخذ يتصيد فى ربوعه كما صاد أيضا فى بر الجيزة ، حيث نزل بالمنية عند امبابة لهذا الغرض ٠

كما تلقى الغورى هدايا اشتملت على حيوانات للصـــيد ، عندما حضر اليه أحد القصاد وصحبته تقدمـــة كانت « نحوا من أربعين حمالا ، عليها من الفهود ســبعة وقيــل كانوا تسعة فمات منهم اثنان » ٠

كما حضر اليه أيضا قاصد من عند ملك الهند وصحبته فيلان عظيما الخلقة فرجت لهما القاهرة وعرضا على السلطان فى الميدان وقدامهما الطبول والزمور ٠

الرمى بالبندق(١٨)

والحديث عن الصيد كاحدى وسائل الترفيه يحتم علينا ايضا ان نشير الى الرمى بالبندق الذى كان يستخدم فى الرمى على الطيور وصيدها ، والبندق عبارة عن كرات صغيرة تصـــنع من

الحجارة أو الطين ، وأحيانا من الرصاص أو الفضة بل أيضا من الذهب .

وكان البندق يطلق بالمزاريق ، وهى أنابيب ترسلها بضغط الهواء أو بالنشاب ، أو بالأقواس أو بما يسمى بقوس البندق أو الجلاهق - جمع الجلاهقات - وقيل بالزبطانة ، ولعلها البندقية .

والبندق وسيلة للصيد كانت شائعة فى عصر سلاطين المماليك ، حتى ان معظم السلاطين قد استخدموه فى رمى الطيور مثل السلطان الظاهر بيبرس الذى « سار الى العباسة ورمى البندق » .

ويبدو أن البندق كان يستخدم غالبا فى صيد الطيور المائية كذلك مثل البجع كما فعل الملك الصالح علاء الدين على بن السلطان المنصور قلاوون الذى رمى بالبندق على البجع بالعباسة وصاد منه كثيرا .

وكان البندق يحمل فى كيس يعرف بجراوة البندق ، خلف السلطان أو الأمير عند الخروج للصيد ، وقد يقوم بهذا العمل شخصان فى بعض الأحيان .

وقد أهدى الى احد الأمراء عندما صرع بالبندق طائرا من طيور الواجب هدية اشتملت على حلة برسم الصيد وجراوات مزركشة برسم بندق الرمى بلغت الأربعين وكذا من قسى البندق مائتى قوس ومن بندق الرمى ستين بندقة من الذهب الصامت ، ومائة بندقة من الفضة الخالصة .

ويوضح ذلك مدى اهتمام المماليك بالصيد بصفة عامة ، والرمى بالبندق بصفة خاصة ، ومدى تقدير المتميزين فى هذا المجال .

ولم يكن البندق هو الوسيلة الوحيدة لصيد الطيور ، الى جانب كلاب الصيد وفهوده ، وجوارح الطير ، بل أيضا استخدمت الشباك حيث كان الصيادون المهرة يستخدمونها وعرفوا بالمهارة فى ذلك حتى « انهم كانوا يجذبون فى الضربة الواحدة ثمانمائة بطة وبلغ طول الشباك أحيانا مائة وعشرين ذراعا ، ولم يكن جذبها بالأمر اليسير ، حتى لقد كان يقوم بهذا الأمر عدد لا يقل عن ستة عشر شخصا » ٠

وفى العادة كان الصيد يبدأ باطلاق الطير فى الهواء ثم يرمى لها الحب لتهبط اليه ، وفى نفس الوقت يضرب الأمراء حولها حلقة وهى لاهية فى التقاط الحب فتدق الطبول لافزاعها والأمراء يتربصون لصيدها ٠

ويستمر السلطان فى صيد الطيور حتى يأخذ حظه منه وبعدها يتحول الى اقتناص الوحوش ، فتعد الخيول لذلك وتضرب العساكر حلقة كبيرة واسعة يطلق داخلها النعام والظباء وبقر الوحوش وغيرها من الحيوانات ، ويأخذ السلطان فى مطاردتها ومعه الجوارح الصائدة ، فتضطرب الوحوش ويستولى عليها الذعر فى منظر رائع مثير ، وبعد أن يستمتع السلطان ويصيد كفايته ، يترك لأمرائه حرية الصيد ٠

وكان الرمى بالبندق وخاصة ذلك المصنوع من الرصاص يمارس كنوع من التدريب العسكرى عند المماليك ، خاصة قبل انضمامهم الى التجريدة(١٩) ، حيث كانوا لا ينضمون اليها الا بعد اجتيازهم اختبارا فى الرمى بالبندق أمام السلطان ، ففى ربيع الأول سنة ٨٩٥هـ عرض السلطان قايتباى « أولاد الناس أصحاب الجوامك من ألف درهم فدونه ، وكان أمرهم أن يتعلموا رمى البندق

الرصاص قبل ذلك ، فلما عرضهم وأرموا قدامه كتبهم الى التجريدة وأنفق عليهم كل واحد ثلاثين دينارا ، وكل اثنين أشركهما فى جمل أعطاه لهم وخرجوا صحبة التجريدة ٠

وهذا يدل على أهمية الرياضة بوجه عام لدى المماليك والصيد والرمى بالبندق بوجه خاص ، حيث كانوا يتخذون منها وسيلة للتدريب على الرمى بهدف اجادة فنونه وذلك بطبيعة الحال يتفق مع ميولهم الحربية التى كانت تعتبر من أهم سمات عصرهم ، حتى ان السلطان يحض على هذا التدريب ، ويتأكد بنفسه من جدية التدريبات التى كان يأمر بها مماليكه ، خاصة أن بعض السلاطين كانوا أساتذة فى فنون الصيد حتى ادعى لهم الامراء أى انتسبوا اليهم فى الصيد كالسلطان الظاهر بيبرس الذى ادعى له جماعة منهم كما سبقت الاشارة الى ذلك ٠

ومن اللافت للنظر أن الرمى بالبندق كان يستخدم أحيانا كوسيلة للعقاب ، فقد ذكر أن الأمير تنكز نائب الشام قد غضب على حمزة التركمانى ـ الذى كان قريبا من قلبه حتى أصبح سفيرا بينه وبين السلطان الظاهر ـ فأمر بأن يرمى بالبندق ، ورمى حتى تورم جسده ولم يمنعه أحد من ذلك ٠

أما عن الوظائف التى كانت متعلقة بالصيد سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، فقد حرص سلاطين المماليك ـ على عادة من سبقهم ـ على تعيين موظفين تتصل وظائفهم بالصيد اتصالا مباشرا ، وكانت أولى هذه الوظائف ، وظيفة « أمير شكار »(٢٠) أو أمير الصيد ، فكان اذا خرج السلطان للصيد تصحبه جماعة خاصة على رأسها هذا الأمير ، وعمله الاشراف على الجوارح السلطانية ، والعناية بأمرها ، فضلا عن مباشرة أمور الصيد ، وكان

صاحب هذه الوظيفة يعين من أمراء المئتين ثم صار يختار من أمراء الطبلخاناه ٠

وكان من الأعمال التى يكلف بها أمير شكار أيضا الاشراف على طائفة البازدارية أو البزادرة ، وهم الذين يحملون الجوارح المعدة للصيد ، وكان يرأسهم البازدار(٢١) أو البازيار ، حيث كانوا يتصدرون الموكب ، حاملين بأيديهم صقورا تنقض كالصواعق على كل صيد ثمين تراه أمامها بمخالبها الحادة وتنسب هذه الطائفة الى الباز ، وهو أهم الطيور الضارية التى كان العرب يستخدمونها فى صيدهم ٠

وكانت هناك طائفة أخرى من الموظفين ، يشرف عليهم كذلك أمير شكار ، هم طائفة الحون دارية أو الحواندارية التى مفردها الحون دار ، وهو الذى يكلف بخدمة طيور الصيد وحملها الى المكان الذى تدرب فيه وأصلها « حيوان دار » ٠

ويعتقد أنه كان لكل أمير يخرج فى صحبه السلطان بازدارية وحواندارية أيضا ، يهتمون بطيوره ٠

واذا خرج السلطان للصيد بالكلاب ، فكان يصحبه طائفة من الكلابزية وهؤلاء كانوا كثرة فى مصر حتى أصبحوا طوائف متعددة بلغوا خمسين جوقة واتخذت لها موضعا بالجبل ، وقد أمر أحد السلاطين بالغائها فيما عدا جوقتين ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ٠

كما كان هناك حراس خصوصيون ، يختصون بالفهود المدربة التى كان يجرى الصيد بها أحيانا ، ففى جمادى الاولى سنة ٩٢٢هـ شوهد فى الموكب الرسمى للسلطان الغورى أربعة اشخاص يتقدمون الموكب وهم راكبون الخيول وخلف كل منهم فهد ٠

وكان المكان الذى يجتمع فيه السلطان مع هواة الصيد يعرف باسم « الشكار خاناه » ويكون به عدد وافر من جوارح الطير ٠

ومن الوظائف المتعلقة بالصيد كذلك ، وظيفة حارس المطير أو كاشف الطير الذى كان يشرف على أماكن نزول الطيور المزمع صيدها ، وعليه مراقبة الطيور التى يقوم السلطان بصيدها حتى تستقر فى مكان تألفه ، ويحظر على الناس القرب منها أو التعرض لها ، وكان صاحب هذه الوظيفة يختار من بين أمراء العشرات ٠

وهناك وظيفة أخرى متعلقة بالصيد ، وخاصة الرمى بالبندق ، يتولاها موظف خاص يسمى البندقدار(٢٢) ٠ كان يصحب السلطان فى سرحاته ، ومهمته أن يحمل جراوة البندق خلف السلطان ، وسبقت الاشارة الى أن العمل قد يقوم به شخصان فى بعض الأحيان ٠

هذا الى جانب وظائف أخرى عامة ، كان لها اتصال بالصيد أو الاعداد له بشكل عام ، لعل أهمها وظيفة الاستادار(٢٣) ، وهو الذى كان يشرف على تموين سرحة السلطان وتوفير متطلباتها ٠

وكان موكب الصيد يضم فى السرحات الطويلة الأطباء وغيرهم مثل الكحالين والجرايحية ، كما كان هناك أيضا من يكلفون بمعدات الصيد ، مثل الخيام التى كانت تعرف بخيام الصيد وهؤلاء هم الفراشون ، الذين ينصبونها فى أماكن الصيد ، ويشرفون على خيام السلطان ومماليكه ، وكذا على خيام الحريم من الزوجات والجوارى اللاتى قد يصحبن السلطان فى سرحاته ٠

وكانت أماكن الصيد عبارة عن أحواش عديدة تنتشر فى أنحاء البلاد ، ويشتمل كل منها على شباك وصيادين مهرة يقومون بالصيد فى حضرة السلطان ٠

وقد كان للحرس السلطانى أثناء السرحة أهمية خاصة فى حراسة خيمة السلطان أثناء الليل ، وكانت الطبول والكوسات تلف حول الخيام ولاسيما خيمة السلطان ٠

والحق أن اهتمام السلاطين والأمراء وكذا كبار رجال الدولة برياضة الصيد وشغفهم به قد تجلى بوضوح من خـــلال التحف الاسلامية التى خلفها ذلك العصر فقد حرص الفنانون بشكل عام على تسجيل بعض الصور لهذه الرياضة على منتجاتهم الفنية ٠

ومن هذه الأعمال ، تلك التحفة المعدنية التى تزينها رســوم صيد بالفهد ، وهى عبارة عن طشت من النحاس المكفت بالفضـــة محفوظ بمتحف اللوفر بباريس ، يعرف بمعمدانة سانت لويس ، لأنه استعمل فى تعميد لويس الثالث عشر ثم نسب الى لويس التاسع ملك فرنسا ، الذى قيل انه أحضره اليها عند عودته من الحروب الصـــليبية ، وهذا الطشت من صناعة مصر فى القــرن الثــامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ٠

وقوام زخرفته مجموعة مناظر مختلفة من البلاط المملوكى للصيد والقتال والحياة اليومية ، من بينهما رسوم لمجموعة من الصيادين يحمل ثلاثة منهم الباز ، على حين يمسك الرابع بمقود فهد فى يده اليمنى وكما سبقت الاشارة فانه يفهم من المصـــادر المملوكية أن سلاطين المماليك اقتنوا الفهود من أجل الصيد بها ، كما عينوا لها الفهادة لحراستها والاشراف عليها ، وأقام هــؤلاء بالقاهرة فى حى خاص بهم ، فيما بين الجوانية والمناخ عرف بخط الفهادين نسبة اليهم ٠

ويتجلى اهتمام المماليك بالصيد كذلك من خلال تلك النصوص الأدبية التى عرفت برسائل الصيد ، وكذا مكاتبات الســلطان الى الملوك الأجانب تتضمن وصفا لمركب السلطان وهو فى الصيد وقد أورد من هذه الرسائل تختص برمى البندق عرفت الرسالة الواحدة

منها باسم قدمة أى قدمات البندق ، وهى تصف الرمى بالبندق ، وأحوال الرماة واصطلاحاتهم فى هذا المجال ، وأسماء الطيور ، وكذلك وصف حركة الطير والمطاردة التى تقع بين الصيادين ، ووصف الطبيعة واللهو الذى يصاحبهم فى تلك الأوقات السعيدة التى يقضونها فى الصيد ٠

كما توجد مؤلفات فى الرمى بالبندق مثل كتاب « هداية الرامى الى طريق المرامى » (فى علم الرمى بالبندق) ، أوضح فيه مؤلفه ما عليه أهل هذا الفن وقواعده ، وحلاله وحرامه ، مما يدل على أهمية الرمى بالبندق فى ذلك العصر وقد قسمه صاحبه الى عشرة أبواب يدور معظمها حول الرمى بالبندق وما يتعلق به ٠

أما عن رسائل الصيد ، فلدينا رسالة أوردها القلقشندى أيضا وهى تصف احدى رحلات الصيد للسلطان قلاوون ، كتبها تاج الدين البارنبارى ٠

والحق أن رسالة البارنبارى قد أعطتنا صورة واضحة لرحلات الصيد وآلاته وأساليبه ٠ وهى صورة تمثل بوضوح هذا الجانب من حياه المماليك ، فهى توحى بما كان عليه الأمر فى سائر رحلات الصيد ف ذلك العصر ، حيث انها تشير الى أوقات الصيد والى موكب السلطان وخروج الدهليز السلطانى ، وكذا خيام الأمراء ، كما تصور أيضا أنواع الصيد أى طرقه وعدة كل نوع وآلته ، فاشارت الى صيد الطيور وما يلزمه من الصقور والبزاة والشواهين وكذا صيد الوحوش وما يلزمه من الخيل والفهود ، وكلاب الصيد التى عرفت بالحوامى ، كما أفاضت تلك الرسالة فى وصف أدوات الصيد من طيور وخيل وفهود وحوام ، كما تنقل صورة حية لمعارك الصيد وجولاته ، حتى لكأن الانسان يراها بعينيه ويسمع ضجيجها وصهيل خيولها ٠

على أنه كانت هناك رحلات أخرى للصيد كان يستخدم فيهـا البندق كأداة للصيد ، يخرج فيها السلطان وبعض الأمراء • وقـد لايطول بهم المقام الا يوما أو بعض يوم ، وكل مالديهم من أدوات الصيد هى القسى والبندق •

ولدينا رسالة عبارة عن احدى قدمات البندق تصف رحلات الصيد هذه تشير الى شرف رياضة الصيد ونبلها ، ثـم وصـفا للامراء الذين خرجوا للصيد ومعهم قسيهم وبندقهم •

وما دمنا فى مجال الحديث عما كتب حول الصيد فى العصر المملوكى فان من المفيد أن نرى الصيد أيضا فى شعر ذلك العصر • ونلحظ أن رسائل الكتاب فى الصيد قد امتزجت بأشعارهم فيه ، كما فعل الشهاب محمود ، كما نجد أن بعض الشعراء يقدمون فى رسالة نثرية لوصف البندق ويجعلون منها تمهيدا لأشعارهم التى تفيد ـ لاشك ـ فى معرفة أنـواع الطيـر التى كان يصـيدها الأمراء(٢٤) •

ورغم هذا ، فان نصيب الشعر المملوكى فى التعبير عن هذا الجانب يعتبر قليلا ، فالصيد ـ كما ذكرنا ـ رياضة المماليك ، وهـم الطبقة الارستقراطية المنعزلة عن الشعب ، بينما كان الشعراء فى ذلك العصر أكثر ارتباطا بطبقات الشعب ، ومع ذلك فقد أسـهم الشعراء الذين شاركوا فى بعض رحلات الصيد بنصيب فى وصفها ولدينا بعض الأبيات لسراج الدين الوراق فى وصف رحلة صـيد للملك الصالح علاء الدين(٢٥) •

وهكذا كان الصيد رياضة محببة عند المماليك ووسيلة ترفيهية مفيدة مارسها السلاطين والأمراء بل شـاركت طوائف أخرى من الشعب فى هذه الرياضة التماسا للترويح والترفيه بتلك الوسيلة المشروعة •

هوامش الفصل الثانى

(١) البازدارية او البزادرة ، ومفردها البازدار ، وهى كلمة فارسية يقصد بها من يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد ، وخص باضافته الى البان الذى هو أحد أنواع الجوارح دون غيره لانه هو المتعارف عليه ٠
(انظر ، ابن تغرى بردى . المنهـل الصـافى ، ج١ ، ص ٦١٨ ، حاشـية ٥) ٠

(٢) الرطانة ، بلدة واقعة على الشاطىء الغربى لفرع رشـيد ، بينها وبين القاهرة نحو أربعين ميلا ٠

(٣) هليب ، هو وادى النطرون ٠

(٤) تروجة ، وصفها ابن بطوطة فى كتابه الرحلة بانها قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولاهلها مكارم أخلاق ومروءة ، وهى على مسيرة نصف يوم من الاسكندرية (ابن بطوطة ، رحلة ، ص ٢٧) ٠

(٥) السدير ، هو الوادى الذى يعرف بوادى الطميلات نسـبة الى جماعة من العرب يعرفون بالطميلات ، ومكانه على حدود مصر الشرقية ٠
(ياقوت ٢ معجم البلدان ، المقريزى ، الخطط ج١ ، ص ٢٣٢ ٠

(٦) العباسة ، هى قرية من الجهة الشرقية لمصر وفى أول حـدود الصحراء الفاصلة بين مصر والشام ، بنيت سنة ٢٨٢هـ ، وسميت كذلـك نسبة الى العباسة بنت احمد بن طولون وكانت فى ذلك الوقت أول قريـة يلقاها القادم من الشام الى مصر بوادى السدير ٠ (ياقوت معجم البلدان المقريزى ، الخطط ، ج١ ، ص ٢٣٢) ٠

(٧) البغلطاق ، و البغلوطاق ـ لفظ فارسى ، وهو قبـاء بلا أكمام او باكمام قصيرة جدا ، يلبس تحت الفرجية ، وكان يصـنع من القطن

البعلبكى الابيض ، أو من السنجاب او الحرير الملامع ، وكثيرا ما يزين بجواهر ثمينة (المقريزى ، السلوك ، ج١ ق٢ ، ص ٥٨٤ ، حاشية ١) ٠

(٨) الكلابزرية ، جمع كلابزرى وهو الشخص الذى يركب بكلاب الصيد عند السلطان او الامير (انظر السلوك ، ج٢ ، ص ٢٢٥ ، حاشية ١) ٠

(٩) وطنان ، من اعيان قرى مصر ، قريبة من الفسطاط ، ذات بساتين (معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٥٣٩ وذكرها ابن دقماق ضمن اعمال القليوبية (الانتصار ، ج٥ ، ص ٤٩) ٠

(١٠) جزيرة القط ، ذكرها محمد رمزى انها هى التى تعرف اليوم باسم جزيرة البدرشين بمركز الجيزة ، محافظة الجيزة (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الاول ، ص ٢١١) ٠

(١١) دلنجة ، ذكر ابن الجيعان (التحفة السنية ، ص ١٢٦) ان دلنجة من اعمال البحيرة وكذا ابن دقماق فى (الانتصار لواسطة عقد الامصار ، ص ١٠٦) وان كانا قد اختلفا فى مساحتها فقال الاول انها تبلغ ٩٧٣ فدانا فى حين ذكر الثانى انها ١٠٨٨ فدانا ، كما ذكر محمد رمزى ان قرية دلنجة القديمة هذه اندثرت وقامت على مقربة منها قرية (مركز) الدلنجات المعروفة بالبحيرة (القاموس الجغرافى ج٢ ق٢ ، ص ٢٦٠ ، القسم الاول ، البلاد المقدسة ص ٢٤٩) ٠

(١٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٩ ، ج١ ، ص ٢٣٥ ، المقريزى السلوك ، ج٣ ق٢ ، ص ٧٣٦ ، ٧٨٧ ٠ والمقصود مطعم طيور الصيد وكان يقع الشمال الشرقى لخانقاه السلطان برقوق فى صحراء الريدانية (ابن اياس بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٩٧٦ ، ابو المحاسن ، حوادث الدهور ، ص ٣٨٠) ٠

(١٣) ذكر ياقوت ان الدشت بليدة وسط الجبال بين أربل وتبريز ، وان اهلها من الاكراد (معجم البلدان) وقيل انها صحارى فى جهة الشمال وتضاف الى المقبجاق وتنطبق حدودها على التركستان الروسية والقوقاز وقازان الحالية الى نهر الفلجا غربا الى بسارابيا على حدود رومانيا (أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢١٧ ، ماجد اطلس التاريخ الاسلامى ، ص ٢٢ ، عقد الجمان تحقيق ونشر ، عبد الرازق القرموط ، القاهرة ١٩٨٥، ص ١٦٢ حاشية ٤) ٠

(١٤) آوسيم او وسيم · من المدن القديمة من اعمال مركز امبابة غرب النيل دون الجيزة (محمد رمزى ، القاموس الجغرافى . جـ٣ ق٢ ، ص٥٧) ·

(١٥) المحمودى . نسبة الى محمود شاه اليزدى الذى اشتراه وباعه بالقاهرة ·

(عقد الجمان . تحقيق ونشر عبد الرازق القرموط ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ١٦٠ حاشية ٢) ·

(١٦) بركة الحاج ، كانت تقع فى الجهة البحرية من القاهرة ، وكانت تسمى أولا بجب عميرة ثم سميت بارض الجب ، وهى فى طريق الحجاج ينزلون بها وكانت تنسب الى عميرة بن تميم الثجيبى صاحب الجب بها ، وقد صارت هذه البركة متنزها وللصيد يقصدها السلاطين والامراء (المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٥٨٣) ·

(١٧) يقصد بهم حملة البزاة اثناء الصيد ، (انظر ، القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٥ ، ص ٤٦٩) .

(١٨) البندق كلمة فارسية ، تعنى الرصاص او الطين او الحجر (انظر ، ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، ج٢ ، ص ١٣٥) كما أطلق على البندق المصنوع من المعدن لفظ الخردة ، وتعنى كرات المعدن التى تستخدم فى الصيد (المقريزى ، السلوك ، ج٤ ق١ ص ٦٥ حاشية ٤) ·

(١٩) التجريدة ، فرقة من العسكر تشترك الخيالة فيها – وقيل الجريدة هى الخيالة لا مشاة فيها (المقريزى ، السلوك ، ح ١ ، ص ١٠٦ ، حاشية ٨) ·

(٢٠) شكار ، لفظ فارسى بمعنى الصيد ، فيكون المراد : امير الصيد ، وقيل ان رتبة صاحبها امير عشرة (القلقشندى ، صبح ، ج٥ ، ص ٤٦١) ·

(٢١) البازدار ، هذا الاسم يتركب من كلمتين ، أولاهما : الباز وهو احد أنواع الطيور الجوارح ، والثانية · دار بمعنى ممسك فيكون البازدار هو حامل الطير الجارح ·

(٢٢) البندقدار ، تتركب من كلمتين احدهما بندق ومفردها بندقة والثانية دار بمعنى ممسك ، فيكون البندقدار هو حامل البندق (القلقشندى صبح ، ج٥ ، ص ٤٥٨) ·

(٢٣) الاستادار ، هو المتحدث فى أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والفلمان (انظر ، القلقشندى ، صبح ، ج٤ ، ص ٢٠) ٠

(٢٤)

فتـــارة كنت أصـــيد التســـــرا ويعـــده العقـــاب يحكـــى الجمرا
والكى والكركـــى صـــــدت جهرا وصـــدت غرنوفـــا وعنزا فهـــــرا
وكنت بالاوز فــى انشــراح

وتـــارة تمـــا كبـــــدر التـــــم تتبعــــــه أنيســـة كالنجــــــم
ولغلـــــغ أســــود صـــل الهــــــم وحبـــرح عــن الرمـــاة محمـــى
والضوع مـــع سبيطر سياح

وكـــم وكم قـــد صدت يوما مرزمـــا انــزلتـــه بالقـــوس من جوالســـما
جناحـــه يحكـــى طـــرازا معلمـــا على بيـــاض شـــبه شـــبه الدمـــا
كأنه ليـــل على صـــباح

حيث الصـــبا تشفـــع بالقبـــــول وشـــــملنا يجمـــــع بالشـــــمول
فـــى مجلس ليــــس بـــــه فضولى وجاءنـــــا التوقيـــــع فـــى الوصول
فسادكـــم يغفـــر بالصـــلاح

(انظر ، فوزى محمد أمين ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى ص ، ٣٢٣ ، ٣٢٤) ٠

والملاحظ فى المخمسة الاخيرة ، يورى الشاعر فى كلمة « الوصـــــول » فهو يقصد ايصالات الهبات ، وكذلك فى كلمة الصلاح اذ يقصد صلاح الدين الحيوى صاحب رحلة الصيد ٠

وقال الشهاب المنصورى فى الطواشى شاهين غزالى الظاهرى الرومى « وكان بارعا فى الجمال ، حسن الشكل وافر العقل والادب » .

قد صاغك الله من لطف ومن كـــرم وزاد حســـــنك بالاحســــان تزيبا
فاخفض جناح الرضا واصـــطد طيور دعا من جراء اخلاصنا ان كنت شاهينا

(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٣٦) ٠

وكانت الاجادة والتفوق فى الصيد يشدان انتباه الشـعراء ويثيران قرائحهم الشعرية حتى اننا نجد الشاعر : بهاء الدين ابو الحسن على بن محمد صاحب ديوان الانشاء بحلب (ت رجب سنة ٧١ هـ) . يقول نظما فيمن رمى فى وقت واحد نعامة ونسرا وغزالا .

عجبا رأيت وما سـمعت بمثلـه	فـى عصـرنا هـذا ولا فى الاول
بطـلا من الاتراك فـوق سهمـه	مـسـتعجلا مـن فـوق طرف هيكـل
ودنا الـى نحـو النعامة راجيـا	أن سـوف يدركها وان لـم يعجل
فاتـاه نسـر طائـر من فوقـه	متوقـع سـهم الحمام المرسـل
فرمـاه سهمـا منكبـا فـى نحـره	ورمـى النعامة ثانيا فـى المقتـل
وأتى الغـزال وقـد تيقن أنـه	نـاج فاصـماه بسـهم فيصـل
وهـوى الثلاثـة قـادرا بسـعادة	حكمـت لـه بسـيادة وتوقـل

(انظر ، الحسن بن عمر ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، ج٢ ص ٥٩ ، ٦٠) .

(٢٥) يقول الشاعر سراج الدين الوراق :

عزمـة صـح فالهـا بالنجـاح	بيـن ذى مخلـب وذات جنـاح
مـن فهـود ومن صقـور حداهـا	يمنهـا فى غدوهـا والـرواح
ارسـلتها سـعادة الملك الصـالح	فاسـتقبلت وجـوه الصـلاح
ملـك ضـرج الثـرى بدمـاء	حملت رنكهـا خـدود المـلاح
كل يـوم من صيده عيـد نحـر	فى وحوش وفى عـدى كالاضاحى

(انظر ، فوزى أمين ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى ص ٣٢٤ ، نقلا عن منتخب الوراق ، ص ٢٧٥) .

* * *

الفصــل الثالث

ألعاب الكرة .. والسباحة .. والألعاب الأخرى

أولا : العاب الكرة : (البولو)

(شغف السلاطين المماليك بها ــ مظاهر الاهتمام باللعبـة ــ العاب الكرة كمظهر من مظاهر العظمة ــ أدوات لعب الكرة ووظائفها ــ موكب السلطان للعب الكرة ــ طريقـة لعـب الكـرة ــ حوادثهـا واخطارها ــ أرستقراطية لعب الكرة (البولو) ــ شروط اللعبة ــ مشاركة الخلفاء العباسيين فيها ــ اجادة الامراء لها ــ لعب الكرة عند الشعراء والادباء والفقهاء) ٠

ثانيا : السباحـــــة :

شغف السلاطين بها ــ دور نهر النيل فى هذه الرياضة ٠

ثالثا : الألعاب الأخرى :

(سباق الخيل ــ الصراع أو المصارعة ــ المبارزة والتحطيب أو المطروق ــ الملاكمة ــ المعالجة أو رفع الأثقال ــ اللعب بالطيور وتطيير الحمام ــ المنـــاقرة بالديوك وصياح السمان ــ المناطحـة بالثيران والكباش ــ اقتناء الحيوانات وترويضها ــ ألعاب الدبابة والقرادة والحواة والبهلوانات ــ مواضـع المتنزهـات والتريض والخروج اليها) ٠

* * *

العاب الكرة (البولو)

من الألعاب التى كانت شائعة عند العرب لعبة « الكجة » وكان قوامها كرتين من الخرق يلعب بهما واشتق من اسمها فقيل : كج أى

لعب الكجة كما عبروا عن وسائل اللعب بالكرة بأفعال مثل « قفط الكرة » أى خطفها « وتجاحفوا الكرة » أى تخاطفوها أيضا أو بمعنى دحرجوها بالصـــوالجة ومفردها (صولجان)(١) ، وهو العصا التى تضرب بها الكرة ٠

وتشير المصادر الى أن لونا من العاب الكرة كان موجودا فى مصر قبل الاسلام حين دخلها عثمان بن عفان وعمرو بن العاص قبل الاسلام حيث كان القبط يجتمعون فى الملعب بالاسكندرية فى يوم معلوم من السنة ، ويرمون بالكرة ويقال كانت هذه الكرة من الذهب مكللة باللؤلؤ والياقوت ، وكانوا يلقفونها بأكمامهم ، فمن سقطت فى كمه لم يمت حتى يملك مصر ، ومرة هوت الكرة فى كم عمرو بن العاص واستقرت به فتعجب القبط من ذلك واستبعدوا ان يحكم هذا الأعرابى مصر ٠

ومن المعروف أن ذلك قد تحقق لعمرو بن العاص عندما فتح مصر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب وربمـــا كان ذلك محض صدفة ولكن تلك الرواية على أية حال تشير الى وجود نـــوع من العاب الكرة فى مصر فى ذلك الوقت ، كما توضح اقبال الناس على مشاهدة هذه الالعاب والتلهى بها حتى كانوا يقدرون بالألوف ٠

كما أنشأ هارون الرشيد لهذه اللعبة ميدانا بجانب قصره ، وقد أولى سائر الخلفاء العباسيين تلك اللعبة عناية كبيرة ، فأعدوا لها الملاعب الضخمة ونظموا المباريات الحافلة وشاركهم فى ذلك الوزراء وسائر عظماء الدولة ٠

كذلك كان من أشهر من أغرموا بتلك اللعبة أحمد بن طولون الذى شيد لها ميدانا خارج فسطاط مصر ، وكان الوزير شـــاور

يعتبر من اجل وزراء الدولة الفاطمية وأجودهم لعبا بالكرة ، وكذا كان نجم الدين والد صلاح الدين الأيوبى ونور الدين زنكى والملك الكامل الأيوبى مغرمين بلعب الكرة فجدد الأخير ميدان ابن طولون كما أنشأ لها الملك الصالح نجم الدين أيوب ميـــدانا على شاطىء النيل بأرض اللوق كان يسمى بالميدان الصالحى « وصار يركب اليه ويلعب فيه بالكرة » ٠

ومضمون هذه اللعبة أنها كانت عبارة عن كرة كبيرة من مادة خفيفة كالفلين ونحوه ، تلقى على الأرض ويتسابق الفرسان راكبين فى التقاطها بالصولجان أو الجوكان فمن سبق منهم الى اصابتها وارسالها فى الهواء كانت له الغلبة ٠

ويبدو أن تلك اللعبة قد استمرت على نفس الهيئة فى عصر سلاطين المماليك وهو ماسنوضحه فيما يلى ٠

وقد شغف سلاطين المماليك بلعبة الكرة بدرجة كبيرة ، حتى اننا نجد مظاهر كثيرة من حياتهم تدل على الاهتمام بها ، نعرض لها فى الصفحات التالية حتى ان المعز ايبك (ت ٦٥٥هـ/١٢٥٧م) ـ أول السلاطين المماليك ـ كان له شغف بهذه اللعبة ، ففى ربيـــع الأول سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م « نزل المعز من القلعة ، ولعب بالكرة فى ميدان اللوق ، وصعد آخر النهار الى القلعة ، والأمـــراء فى خدمته ٠٠(٢) ٠

ومن مظاهر اهتمام السلاطين المماليك بهذه اللعبة أيضـــا حرصهم على انشاء الميادين ، كميدان الظاهرى الذى شيده السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى بطرف أراضى اللوق ، ومازال يلعب فيه بالكرة وهو ومن أتى بعده من ملوك مصر حتى سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م حيث قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بهدمه بسبب بعد النيل

عنه ، وجعله بستانا حمل اليه من سائر أصناف الشجر من دمشق وغرسها فيه · ويؤثر عن السلطان الظاهر بيبرس أنه كان خفيف الركاب طوال أيامه راكبا على الهجن ، حتى أنه كان يلعب الكرة فى الأسبوع يومين يوما بمصر ويوما بدمشق ·

وكان الظاهر بيبرس اذا ركب للعب الكرة يجهز بالجفتة وهما اثنان من اوجاقية اصطبله متقاربان فى السن عليهمـــا قبـاءان أخضران من حرير بطراز زركش ، وعلى رأسهما قبعتان من زركش كذلك ، وتحتهما فرسان أشـــهبان برقبتين وعدة نظير مايركب بـــه السلطان كأنهما معدان لركوبه ، ويركبان أمامه فى أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة فى الميدان الكبير ·

كما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م) الميدان الناصرى فى أراضى بستان الخشاب فيما بين مدينة مصر والقاهرة للعب الكرة وكان يركب دائما أيام السبت حتى فى شدة الحر بعد وفاء النيل مدة شهرين من السنة(٢) · كما انشأ أيضـا ميادين أخرى برسم لعبة الكرة منها ميدان القلعة(٣) الذى أجرى له الماء وغرس فيه النخيل والأشجار ولعب فيه بالكرة ـ حيث كان يجيد لعبها ـ وقد عمر فوق هذا الميدان القصر الأبلق(٤) ·

وجدير بالذكر أن هذا الميدان قـــد أنشىء فوق بقايا ميدان أحمـــد بن طولون الذى جدده محمـــد بن العـــادل الأيوبى ســنة ٦١١ هـ / ١٢١٥ م واهتم به الملك المعز أيبك حتى بدأ الملك الناصر محمد فى عمارته سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م ، ولعب فيه الكرة يومى السبت والثلاثاء مع الأمراء والخاصكية وأولاد الملوك ، وأنشئت من أجل هذا الميدان قنطرة الخرق على الخليج الكبير ، ليجتازها السلطان عند ذهابه الى الميدان ، وقد حرف العامة هذا الاســم

فصار يطلق على ذلك الموضع باب الخاق ، وهو الذى يعرف اليوم بميدان أحمد ماهر .

وأنشأ الناصر أيضا ميدان المهارى سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م بالقرب من قناطر السباع فى بر الخليج الغربى ، ولعب فيه الكرة مع الخاصكية وكذلك أنشأ ميدان سرياقوس شرقى ناحية سرياقوس بالقرب من الخانقاه ، وكان يتوجه اليه فى كل سنة ، ويقيم بـه أياما ويلعب فيه بالكرة ، واستمر هذا التقليد قائما بعد وفاته الى أن أبطله الظاهر برقوق فى سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م ، كذلك لعب السلطان كتبغا الكرة بدمشق ، كما تعود السلاطين الركوب للعب الكرة وهم فى أبهة الملك حيث كان الأمراء والأجناد يمشون بين أيديهم وكان أول ركوب الظاهر بيبرس لهذا الغرض فى صفر سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١ م حيث استمر بعد ذلك يتـابع الركوب واللعب بالكرة .

وفى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢ م أمر السلطان بعمارة الدور فى أرض اللوق لينزل فيها طائفة التتر المستأمنين الوافدين من الشام ، ثم خرج السلطان للقائهم بنفسه ومعه العسكر فلم يبق أحد حتى خرج لمشاهدتهم وحملت اليهم الخلع والخيول والأموال ، وركب السلطان الى الميدان وأركبهم معه للعب الكرة وأعطى كبراءهـم امرات .

على أن السلطان الظاهر بيبرس عندما أراد أن يبنى جامعا له ، أرسل بعض الأمراء(٥) ، ليكشفوا له مكانا لذلك بالحسـينية فساروا اليه وأخبروه عن مكان مناخ الجمال السـلطانية ، ولكن السلطان قال : « لا والله لاجعلت (لا أجعل) الجامع مكان الجمال ، وأولى ما جعلت ميدانى الذى ألعب فيه الكرة وهو نزهتي جامعا » .

فرتب بناء الجامع فى ميدان قراقوش وأوقف بقية الميدان عليـــه والمعروف أن هذا الميدان كان لقراقوش الأسدى أيام الدولة الأيوبية ثم استعمله الظاهر مدة من الزمن ميدانا للعب الكرة والرمى الى أن بدا له بناء هذا الجامع فبناه فيه ، والمقصود بهذا الجامع ، هو الجامع الظاهرى الذى مازال قائما حتى الآن يشهد بعظمة العمارة المملوكية ٠

ويبدو أن بعض السلاطين كانوا يتخذون من لعب الكرة فرصة لتطييب خاطر أمرائهم ، وكان اشراكهم معهم فى لعب الكرة دليلا على المنة عليهم والرضا عنهم ، حتى ان السلطان الظاهر بيبرس عندما أطلق الأمير سيف الدين قلج البغـدادى المستنصــرى من الاعتقال « من عليه وأذن له فى لعب الكرة معه » ٠

وحدث أن تغير خاطر السلطان الأشرف قايتباى على الأمير خاير بك الأشرفى وأمره بلزوم داره فلزمها أياما لايركب فيها ، ثم بعث السلطان خلفه الى ضرب الكرة فطلع الى القلعة وضرب الكرة واتفق أن صولجان السلطان سقط من يده فترجل خاير بك عن فرسه وناوله للسلطان ، فأخلع عليه وأركبه فرسا من خيوله ونــزل الى داره مكرما ٠

وحدث أيضا أن أضاف السلطان قايتباى الملك المنصور عثمان بالبحرة وأخلع عليه وأذن له بأن يلعب معه الكرة ، فلعب مع الأمراء المقدمين وهو « ببند أصفر مثل السلطان » وقد بالغ السلطان فى تعظيمه ٠

كما يبدو أن سلاطين المماليك كانوا يتخذون من لعب الكــرة مظهرا للقوة والعظمة ، وأبهة الملك حتى انهم كانوا يشركون قصادهم من البلاد الأخرى ورسل الملوك فى اللعب معهم بالكرة امعانا فى اظهار حسن الترحيب والضيافة لهم ٠

بل بلغ الأمر بأحد السلاطين أن لعب الكرة فى الميدان ومعه الأمراء على جارى العادة « وكان السلطان مخصتكا فى جسده فلم يضرب الكرة الا ضربا هينا حتى يقال ان السلطان ضرب الكرة فى هذه السنة(٦) ·

وذلك يوضح مدى حرص السلاطين على افتتاح موسم لعب الكرة بأنفسهم وظهورهم بمظهر القوة والسلامة أمام الرعية ، لالشيء الا ليقال ان السلطان ضرب الكرة كعادته · ولعل مما يؤيد هذا الرأى أيضا أن السلطان الأشرف قايتباى لما بدأ يتوعك فى شوال ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥م « وظهرت عليه أشاير الموت ، فضرب الكرة فى هذه السنة ضربا هينا ، بالنسبة لما كان عليه قبل ذلك من القوة » ·

ولم يقتصر لعب السلاطين للكرة فى ميادين القاهرة أو ضواحيها وانما كانوا كذلك يلعبونها فى ظاهر الاسكندرية ، فقد دخل السلطان بيبرس الاسكندرية فى صفر سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م وخلع على الأمراء وحمل اليهم التعابى والنفقة ولعب الكرة ظاهر الاسكندرية وتوجه الى الحمامات ونزل بالليونة وأتباعها · كما أن السلطان الأشرف قايتباى لعب الكرة فى أرض فضاء فى الاسكندرية على ساحل البحر ولعب معه الملك المؤيد والأمراء وأقاموا فى مخيم نصب هناك ثلاثة أيام ·

وفى ذى الحجة من سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ركب السلطان الغورى وضرب الكرة على ساحل البحر الملح هو والأمراء الذين كانوا بصحبته أثناء سرحته هناك ·

وقد عنى سلاطين المماليك بألعاب الكرة عناية كبيرة ، حتى انهم أعدوا لها مايلزمها من خيول وأدوات ، كما خصصوا لها

موظفين من المماليك للاشراف عليها يسمى الواحد منهم الجوكندار ، أى الذى يحمل الجوكان او المحجن الذى تضرب به الكرة ، وكان شعار هذا الأمير الخاص به عبارة عن عصوين ، يلعب بهما السلطان الكرة .

ويوجد بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة صحن من الخزف الملون تحت رقم ٥٢٧٢ وزخارفه مرسومة بالألوان الأزرق الغامق والأسود والرمادى والبنى على أرضية بيضاء ، وعليه فى الوسط صورة طائر يحيط به شريط من زخارف نباتية يتخلله رنك به شارة عصوى البولو ، وهذا الصحن ينسب الى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

كذلك كان هناك الأوجاقية المسمون جفتاوات الذين يكونون فى خدمة خيل السلطان التى كان يخصص لها قسم خاص من الاصطبل السلطانى يعرف باصطبل الحجورة(٧) ، حيث كان ينتخب منها الخيل الخاصة بلعب الكرة ، وكان للاصطبلات السلطانية ادارة خاصة عرفت باسم « الركابخاناه » يحفظ فيها عدد الخيل من السروج واللجم والكنابيش ، وغير ذلك من نفائس العدد والمراكيب حتى انها كانت تحتوى مايلزم ثلاثة آلاف فرس ، وتجهيزها بشكل كامل .

ويعتبر اهتمام المماليك بالخيول واضطبلاتها بصفة عامة ، والخيول التى تستخدم فى لعب الكرة بصفة خاصة ، دليلا على ما كانت تمثله مواكب الرياضة من أهمية بالنسبة لهم والتى يتوجه فيها السلطان للعب الكرة أو الأكرة حتى انهم جعلوا لعبها من رسوم الدولة ــ كما سبقت الاشارة الى ذلك ــ فقد حدث أن السلطان الناصر محمد كان يفرض لعبها على أمراء المماليك يومى السبت والثلاثاء من كل أسبوع .

ن عادة السلطان أن يخرج فى موكب لعب الكرة على
، التى كان يخرج فيها لصلاة العيدين(٨) ، ما عدا
لظلة « ربما دلالة الانطلاق » وتحمل الفاشية أمامه فى
آخره ، ويتوجه الى الميدان ٠

ن عادة السلاطين المماليك كذلك تخصيص موسم فى
ك السلطان فيه مع بعض الأمراء فى لعب الكرة ، وقد
سيقى والمغانى أثناء اللعب ٠ كما كان من عاداتهم
خروج للعب الكرة ، أن يفرقوا حوائص من ذهب على
المقدمين ٠

طريقة لعب الكرة فى الميدان أن ينقسم أمراء المماليك
يكون السلطان على رأس أحدهما ، وعلى رأس الآخر
، ويكون لعبها من الظهر حتى العصر ، ويقام السماط
ى الميدان ذاته حيث تقام خيمة كبيرة وعدة صواوين ،
أن ينعم بالخلع على المشتركين فى اللعب وعلى
أتباعه حتى لقد بلغ ماخلعه أحدهم فى يوم واحد ،
كرة ، ألفا ومائتى تشريف ٠

شاهد الرحالة تافور (Tafur) الذى زار مصر
، الجراكسة أحد سلاطين المماليك وأمراءه وهم يلعبون
صف الميدان الفسيح الذى لعبوا فيه بأنه كان مقسما
طوط بيضاء ، وعلى جانبيه عدد كبير من فرسان المماليك
عصا طويلة ، وفى وسط الميدان كرة ويكون اللعب بأن
حريق اجتذاب الكرة الى جانبه ، والذى ينجح فى ذلك
لبة ٠

سجلت لنا التحف المملوكية بعض مناظر هذه اللعبة زمن
اليك فبالاضافة الى ماسبق ذكره منها فاننا نشير الى

بعض هذه التحف التى تدل على اهتمام فناني ذلك العصر بتسجيل تلك الرسوم عليها ، ففى متحف الفن الاســلامى بالقاهرة توجد مشكاة باسم الأمير الملك ، ترجع الى حوالى سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م عليها كتابة باسم هذا الأمير تتخللها ثلاثة رنوك بها شارة عصوى البولو (شارة الجوكندار) ٠

كما توجد أيضا بنفس المتحف جلود كتب ايرانية ومخطوطات بها صور توضيحية ، واحدى هذه المخطوطات برقـم (١٣٧٢٧) لديوان الشاعر حافظ الشيرازى مؤرخ سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م ويحوى احدى الصور التوضيحية وتمثل منظر لعبة البـولو ، يظهر فيـه الفرسان على ظهور جيادهم وبأيديهم عصى البولو الطويلة يحاولون بها ضرب الكرة ٠

ولعل فى هذا مايدل على انتشار هذه اللعبة فى العصـــور الوسطى حتى خارج حدود دولة سلاطين المماليك ٠

هذا وقد جرت العادة أن يقدم المهزوم فى اللعب وليمة حافلة ربما وصلت تكاليفها مائتى الف درهم لكثرة مايذبح فيها ، وفى بعض الاحيان كان السلطان يتحمل نفقات هذه الوليمة وان كان هو الغالب ، وذلك تخفيفا عن المغلوب ، كما حدث من السلطان الظاهر برقوق فى يوم السبت الثانى عشر من ذى القعدة سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٨ م ، حيث عمل مهما عظيما بالميدان تحت القلعة بسبب لعب الكرة على العادة ، وكان المغلوب هو الأمير ايتمش ، والتزم ايتمش بعمل مهم بمائتى الف درهم لكونه غلب فى اللعب فقام السلطان عنه بذلك ، والزم به الوزير بدر الدين محمد بن الطوخى ، والامير يلبغا الاستادار ٠ ونصبت الخيم بالميدان وعمل المهم على نفقـــة السلطان ٠

وجدير بالذكر أن كثيرين من سلاطين المماليك وكذلك الأمراء قد تعرضوا للاخطار أثناء ألعاب الكرة ، فأصيب بعضهم اصابات بالغة ، وفقد بعضهم حياته لهذا السبب ، ففى سنة ٦٧٨هـ/١٢٨٠م توجه السلطان السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس الى الكرك ولعب بالاكرة فى ميدان القلعة فتقنطر به الفرس فانكسر ضلعه ، ومات من وقته ٠

كما ذكر أن السلطان لاجين ركب الى الميدان ولعب بالكرة أيضا فتقنطر عن الفرس كذلك « وانكسر أحد جانبى يده اليمنى وتهشم بعض أضلاعه وانصدعت رجله وخيف عليه » ٠ هذا وقد كبا الفرس به أيضا ذات مرة وأصيبت يده ، ولما عوفى منها ركب فدعا له الناس وفرحوا به خصوصا الحرافيش فناداه أحدهم قائلا : « ياقضيب الذهب بالله أرنا يدك فرفع (السلطان) يده وهو ماسك المقرعة وضرب بها رقبة الفرس الذى تحته ويبدو أن تلك الحوادث كانت تجذب أنظار الأدباء والشعراء كغيرهم من الناس ، حتى انه لما كبا الفرس بالسلطان قال الأديب محمد بن البياعة فى ذلك شعرا(٩) ٠

كما أن حوادث الأمراء فى لعب الكرة كانت متعددة كذلك فان الأمير دولات باى الفلاح ـ أحد الأمراء المقدمين ـ ساق الفرس وهو يلعب الكرة فى ارض محجرة فتقنطر به ومات الأمير فى هذه الحادثة ٠

وحدث أيضا أن تقنطر الأمير قرقماس ووقع على الأرض ولكنه قام وركب ٠

وفى المحرم من سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٧ م كبا فرس الأمير طراباى راس نوبة النوب وهو يضرب الكرة مع السلطان الغورى ،

فأصيبت يده ، ومات فرسه فأنعم السلطان عليه بفرس غيرها ، وكذلك أغمى على الأمير نوروز أخى يشبك الدوادار أحد المقدمين ، ونزل الى داره محمولا بسبب سقوطه من على فرسه وهو يلعب الكرة فى الميدان مع السلطان ، وكان ذلك فى صفر من سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م .

ومرة أخرى انصدع كتف الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب الذى كان يلعب الكرة مع السلطان كذلك فى الميدان فى ربيع الآخر سنة ٩١٨هـ/١٥١٢ .

ويبدو أنه رغم تعدد الحوادث اثناء لعب الكرة فانها كانت تبدو فى وقتها أمورا عادية ، حتى اننا لم نسمع عن امتناع أحد السلاطين أو الأمراء عن لعب الكرة حين يحل موسمها الا لظروف طارئة كالاشتغال بالحروب أو الفتن ، فقد امتنع السلطان المنصور على ابن السلطان الأشرف شعبان عن الركوب للميدان برسم لعب الكرة لذلك السبب .

كما امتنع السلطان الصالح حاجى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م عن استكمال موسم لعب الكرة بسبب غرق الميدان بماء النيل ، وقد يمتنع السلطان عن لعب الكرة أياما بسبب صحى عارض يلم به كالقولنج أو غيره ، ثم مايلبث أن يعود لممارسة هذه الرياضة بمجرد شفائه . بل ان أحد السلاطين وهو السلطان الغورى قد أبطل ضرب الكرة فى ربيع الأول سنة ٩١٩هـ/١٥١٣ م ، بسبب عارض فى عينه ، وبسبب انتشار وباء الطاعون بين الناس « وكان غالب الأمراء فى نكد بسبب فقد أولادهم .

ويبدو أن هذه الرياضة المعروفة باسم (Polo) حاليا ، كانت وما تزال حتى وقتنا الحاضر لعبة ارستقراطية لا يمارسها

سوى الملوك والامراء وعلية القوم ، فلم نسمع أن أحدا قد لعبها من عامة الشعب فى عصر المماليك حتى الآن ، كما يبدو أيضا أنها لعبة لها خطورتها على لاعبيها ، بحيث تتطلب مهارات معينة(١٠) ٠

فقد كان من شروط اجادة اللعب فيها ، أن يضرب اللاعب الكرة ضربة خلسة ، ويكون ضربه مترفقا مترسلا ، وأن يكون الضرب للكرة تحت مخزم الدابة من قبل لبتها فى رفق ، وأن يستعين بسوط لا يؤثر فى الأرض بالصولجان أو يكسره أو يعقر قوائم دابته ، كما أن عليه أن يحترس أيضا من ايذاء من يجرى معه فى الميدان ، وأن يحسن التحكم فى الدابة بحيث يكفها فى شدة جريانه على أن يتقى الصرعة والصدمة فى تلك الحال ، وأن يبتعد عن الغضب ويتحفظ من القاء كرة على ظهر بيت ، وأن يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان ، لأن عرض الميدان انما جعل ستين ذراعا لئلا يجال ولايصال على من جلس على حائطه ٠

ومما لاشك فيه أن تلك الشروط كانت محل عناية وتنفيذ من جانب اللاعبين سواء كانوا سلاطين أو أمراء ، وان كنا نلحظ خروجا عليها فى بعض الأحيان حتى انه فى المحرم من سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٣م « وقع بين تغرى بردى ططر والاتابكى أزبك ، فحنق منه فزاحمه عدة مرات وهو صابر عليه ثم حنق منه وضربه بالصولجان على ظهره حتى تكسر الصولجان عليه » ، مما جعل تغرى بردى يسب الأتابكى أزبك بفاحش القول ، حتى تدخل بينهما أحد الأمراء وثنى الأتابكى أزبك عنان فرسه ونزل الى داره وهو غاضب ، وبلغ ذلك السلطان الأشرف قايتباى فتنكد بسبب ذلك ٠

ويذكر ابن اياس واقعة أخرى مما كان يقع بين السلاطين والأمراء بسبب لعب الكرة فيقول : انه فى المحرم من سنة ٩٠٤هـ/

١٤٩٩م ضرب السلطان الناصر محمد بن قايتباى الكرة بالحوش ، ولم يكن فى اليوم المخصص للموكب وكان معه بعض أمراء طبلخانات وعشرات ، منهم الأمير طومان باى الدوادار الثانى ، وعند اللعب صار طومان باى يقتحم على أخذ الكرة من السلطان مما جعل السلطان يحنق منه ويضربه على ظهره بالصولجان أكثر من مرة ، فكان ذلك مدعاة لحقد طومان باى على السلطان ٠

وتشير المصادر الى أن بعض السلاطين قد يركبون للعب الكرة فى الميدان الكبير بشاطىء النيل خمس مرات فى أيام السبت المتوالية ، على أن العادة فى ذلك كانت الركوب بعد وفاء النيل فى ثلاثة سبوت متوالية ، وقد فعل ذلك السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٢م ٠

وان كان البعض قد ركب للعب الكرة فى أيام غير محددة مثل السلطان المنصور قلاوون الذى ركب لهذا الغرض يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٢م ، ولم يتقدمه أحد فى ذلك ٠

أما عن الخلفاء العباسيين بمصر فكانوا يشاركون السلاطين فى لعب الكرة ، كما فعل الخليفة العباسى الأول بمصر وهو الامام أحمد الحاكم بأمر الله مع السلطان الناصر محمد ، ومثل ذلك حدث مع الخليفة المستكفى الذى كان يلاعب السلطان الكرة فى الميدان ، وجدير بالذكر أن المستكفى وأولاده كانوا يجيدون لعب الكرة ٠

وكان من عادة بعض السلاطين الجلوس للنظر فى المظالم فى الميدان الذى تحت القلعة أثناء الاحتفال بلعب الكرة ، اذ بنى فى الميدان بيت برسم المحاكمات كما كان من عادتهم ايضا اصطحاب الأمراء فى لعب الكرة ، حتى كان السلطان يرسم بخروج جميع

الأمراء معه ، ولايسمح لأحد منهم بالتخلف عن ذلك الا لمن يكون خارج البلاد ، ويبدو أن كثرة مران الأمراء على هذه الرياضة واشتراكهم فيها قد أدى الى اجادتهم لها اجادة تامة ولاغرو فى ذلك فهم فرسان فى الأصل ، مما مكنهم من ذلك تمكينا كبيرا ، فقد ذكر فى ترجمة محمد بن بكتمر بن الجوكندار (ت ٧١٠هـ/١٣١١م) انه « انتهت اليه الرياسة فى لعب الكرة ، فلم يكن فى زمانه من يجاريه الا علاء الدين قطلجا ، فكانا اذا اجتمعا رأى الناس منهما العجائب وكان الناصر يكرمه ويدعوه أخى » ٠

كما ذكر عن بعض الأمراء أنهم كانوا يكثرون من لعب الكرة ، وانهم كانوا معروفين بحسن اللعب مقدمين فى ذلك « وكانوا فى لعب الكرة غاية ٠

وتجدر الاشارة الى أن السلاطين كانوا يحرصون على ابتداء ضرب الكرة بأنفسهم فيفتتحون بذلك موسم ضرب الكرة ، فيلعبون مع الأمراء بالميدان وكثيرا مايكون ذلك فى حضرة بعض القصاد الأجانب ، وفى جمهور كبير من النظارة حيث كان لهذه الرياضة عشاقها الذين يمارسونها وعشاق آخرون يكتفون منها بالمشاهدة والاستمتاع بذلك دون ممارسة ، الى جانب حرص السلاطين على ختم موسم اللعب كذلك بأنفسهم ، حيث كان يعقب ذلك فى العادة أن تمد للأمراء أسمطة حافلة تحوى المآكل الفاخرة والحلوى والفاكهة وغير ذلك ، ثم يتلو الأسمطة أن يخلع السلطان على الحاضرين من الأمراء والموظفين وغيرهم كل حسب قدره ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ٠

ويبدو أن مظاهر البذخ فى هذه الاحتفالات ماكانت لترضى كل المماليك خاصة صغارهم ، حتى انهم كانوا أحيانا يحنقون على

السلطان وخاصته فيقومون بخطف مافى السماط ونهبه ، بل تحطيم أدواته ، ربما كان ذلك بدافع الاحساس بالحرمان ، واذا كان هذا يحدث ممن هم من جنس المماليك فلنا أن نتصور اذن كيف كان حال غيرهم من عامة الشعب من عامة الشعب من المصريين !

ويثبت ذلك ماحدث مع السلطان الغورى عندما أقام بالميدان وقت اشتداد الحر أربعة أيام بلياليها « وهو فى أرغد عيش ، وأطلق الماء فى البحرة التى بالميدان ، وصار يمد السماط هناك ويأكل هو وأخصاؤه ، فشق ذلك على بقية مماليكه ، فلما نزلوا اليه بالسماط خطفوه وكسروا الصحون الصينى » ٠

وكما أسهم فنانو العصر المملوكى فى تسجيل هذه اللعبة على منتجاتهم فان الشعراء أيضا لم يفتهم ذلك ، وان كان نصيب هذه الرياضة من الشعر فى ذلك العصر محدودا للغاية رغم كثرة ماوصلنا من شعرهم بشكل عام فى المصادر الأدبية والتاريخية فلم يقع فى أيدينا سوى بعض الأبيات القليلة عن ضرب الكرة منها(١٨) ٠

أما نصيب ألعاب الكرة من النثر فلدينا مكاتبة أوردها القلقشندى فى صبح الأعشى ، صادرة عن ديوان الانشاء ، وهى مرسلة الى نائب الشام بشأن طلب عصى الجواكين والكرابيج والاكر ٠

وقد أشار الفقيه ابن تيمية الى هذه اللعبة فقال انها حسنة اذا كان المقصود منها المنفعة للخيل والرجال ، بحيث يستعان بها على الكر والفر والدخول والخروج ونحوه فى الجهاد ، وبغرض الاستعانة على الجهاد الذى أمر به الرسول (صلى الله عليه وسلم) أما اذا كان فى ذلك مضرة بالخيل والرجال فانه ينهى عنها ٠

كما ذكر السبكى أن « مايعتاده الأمراء فى هذا الزمان من لعب الكرة فى الميدان حلال وينبغى أن يقصدوا به تعليم الخيل والاقبال والادبار والكر والفر » .

ولا نظن أن لعب الكرة أو الصولجان زمن سلاطين المماليك قد خرج عن هذه الأهداف كثيرا ، بحكم طبيعة ذلك العصر ، فكانت الكرة رياضة تدريب وترفيه .

السباحة :

أما عن السباحة فكانت من وسائل الترفيه المهمة فى العصر المملوكى كما كانت كذلك من قبل ، حيث كان العرب يقبلون عليها خاصة أن الخليفة عمر بن الخطاب قد حث عليها وأوصى الآباء أن يعلموا أولادهم السباحة وتشير المصادر المملوكية الى ممارسة بعض السلاطين لهذه الرياضة ، حتى عرف بعضهم بولعه الشديد بالسباحة لمسافات طويلة ، حتى ان السلطان الظاهر بيبرس قد سبح مرة فى النيل وهو يرتدى ملابس الحرب ويسحب خلفه بعض أمرائه جالسين على عوامة مسطحة .

وروى المقريزى أيضا أن السلطان المؤيد شيخ سبح فى النيل مع خاصته فى المسافة مابين بيت كاتب السر(١٢) ، ومنية السيرج(١٣) ، ثم عاد فى الحراقة الذهبية ، ومن العجب انه كان يسبح بقوة على الرغم من الألم الذى كان يلازمه فى رجله حتى انه كان يعجز عن القيام ، فيقعد فى تخت من خشب ، وترخى به من أعلى الدار بحبال الى الماء ، وكان عندما يعود يرفع به فى التخت كذلك حتى يجلس على مرتبته ، وتصادف زيادة النيل فى تلك السنة فتيامن الناس بعوم السلطان ، وقالوا انه زاد لكونه سبح فيه

فلما علم السلطان ذلك قال : « لو علمت أن ذلك يقع لما سبحت فيه لئلا يضل العوام بذلك » ٠

ويبدو أن مقياس اجادة السباحة فى ذلك العصر كان أن يسبح الشخص بقصد عبور النيل من بر الى بر ، حيث كان النيل أهم الأماكن التى تجذب الناس للسباحة فيه ، خاصة سكان القاهرة ، حيث لم يقع فى أيدينا مايشير الى ممارسة السباحة فى البحار ، ففى سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م فى عهد السلطان الأشرف قايتباى ، يقال ان مركبا ببولاق غرقت فى وسط البحر (النيل) ليلا بمن فيها من الناس والدواب ، وانه كان بها شخص علامة فى السباحة يعوم من البر الى البر مغرق فى حين نجا صبى صغير لا يعرف السباحة .

وذلك يدل على اجادة الكثيرين لرياضة السباحة فى ذلك العصر كغيره من العصور السابقة ، ولاغرو فى ذلك فقد كان العرب فى الجاهلية يلقبون الرجل « بالكامل » اذا كان شاعرا شجاعا سابحا راميا ٠

الألعاب الأخرى :

سباق الخيل

ويمكن أن نضع سباقات الخيل فى مرتبة الألعاب الرياضية التى اتخذت كوسيلة من وسائل الترفيه ، واقبل عليها المسلمون بصفة عامة ، والمماليك بصفة خاصة ، فقد حظيت هذه الرياضة بعناية الخلفاء واهتمامهم ، لما عرف عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من حبه للخيل ، حتى قيل انه كان يمسح فرسه بثوبه ، كما كان يجرى الخيل ويسابق بها ٠

وفى زمن سلاطين المماليك كان لسباق الخيل شأن عظيم ، حتى ان السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى - على سبيل المثال - كان يأمر العسكر بالركوب الى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل ، وهم فى أحسن زى للتريض على ظهور الخيل حيث يزدحم الناس بالميدان للفرجة عليهم على مدى خمسة أيام .

وربما يكون هذا التقليد قد استمر حتى ايام السلطان المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل ، حيث كان الأمراء والمماليك السلطانية تتسابق بالخيل فى هذا الميدان امامهم ، وشغف سلاطين المماليك بالخيل ، وكان اكثرهم شغفا بها هو الناصر محمد بن قلاوون فقد عنى بشراء الخيول العربية الأصيلة ، وبذل فيها اموالا ضخمة ، حتى وصل ثمن الواحد منها احيانا ثلاثين الف درهم كما اشتهر بشدة العناية بامرها حتى صارت له دراية عظيمة بأنواع الخيل ، حتى بلغت عدة خيول الجشارات فى أيامه نحو ثلاثة الاف فرس ، عدا أربعة الاف وثمانمائة اخرى فى الاصطبلات ، وخمسة الاف من الهجن والنوق ، وقد انتشر سباق الخيل فى عهده ، وبلغ من اهتمام المماليك بالخيل ان كانت تقام لها أسواق خاصة ، تعرف بسوق الخيل .

وكان لتلك الأسواق اهميتها حتى كان احدها واهمها قريبا من قلعة الجبل ، مركز الحكم ، ورمز السلطة فى مصر وقتئذ ، وكان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهرا من مظاهر القوة والجاه ، حتى انه كان يحرم على العوام ركوب خيول أصايل(١٤) ، ففى ذى القعدة من سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م فى عهد السلطان المنصور حاجى ، نودى بالقاهرة وظواهرها أن العوام لا يركبون خيولا اصايل ، والحمارة لا يأخذون أكاديش ولايحملون عليها شيئا .

وكان أكثر ميل السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى الخيول العربية عكس أبيه فانه كان يفضل عليها خيول برقة ، وجلب اليه التجار الخيول من البحرين والحسا والقطيف والحجاز والعراق وغيرها ، خاصة ماكان يجلب اليه من خيول « آل مهنا ، وآل فضل » وهم من العرب المتخصصين فى احضارها له وقد أتوه بأجـــود الأنواع ، خاصة أن الخيول العربية هى التى كانت مطلوبة للسباق وللحاق وكانت أنفس الخيول وأغلاها قيمة ، وتجلب كما أشرنا من بلاد الحجاز ونجد واليمن والشام والعراق ومصر وبرقة ٠

وفى سوق الخيل كانت تنتقى الخيول بواسطة ذوى الخبـرة من الفاحصين الذين كانوا يطلبون التحديق لاختبارها وفحصـها ، وكان للتفرس قواعد تراعى عند الاختيار ، فلا بد أن ينظر الى الفرس فى جميع حالاته ، خاصة أثناء الجرى ، والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصغر كعبيه ورقة جحافله ، وقصر ساقيه وقلة التوائه ، ولين التفاته ، واذا قيس مابين آثار قوائمه وقـت جريه كانت المسافة ست أذرع ، يكون الفرس سـباقا واذا كانت المسافة أربع أذرع الى خمس فيكون الفـرس متوسـط الجرى ، أما اذا كانت أربع أذرع أو ثلاثا فهو بطىء ، كما يجب أن يكون صهيله صافيا فان ذلك دليل صحة الرئتين ، وكذا علامات أخرى عديدة كان المتفرسون يعرفونها وسجلتها كتب الفروسية ٠

ولم ينقطع سباق الخيل فى زمن السلطان الناصر محمد فلما مات بطل الى أن أعاده السلطان برقوق ، وكان له أيضا رغبة فى الخيل ، حتى قيل انه ترك عند موته سبعة آلاف فرس وخمسة عشر الف جمل وهجين ، كما كان يشترى الفرس بأعلى من قيمته الى عشر مرات ، غير العطايا ٠

وأثر عن السلطان الظاهر برقوق انه عرض فى سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م خيل السباق وفرقها على الأمراء ، « كما كانت العادة يوم ذاك » . وذكرت المصادر المعاصرة أن السلطان المؤيد شيخ بعد أن شفى من مرضه ركب فرسا ومعه الأمراء والمماليك وكان ذلك فى شعبان من سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩ م ووقف بهم تحت قبة النصر ، وقد بعث أربعين فرسا الى بركة الحاج فأجريت منها وأتته فى النهار ، وكان ذلك بغرض الفرجة على سباق الخيل « فيحصل له برؤيتها النشاط » . وهو فى هذه المرة قد جعل ابتداء الشوط من بركة الحاج وان كانت فى الغالب هى نهاية الشوط فى سباق الخيل من القاهرة .

والى جانب سباق الخيل فان السلطان المؤيد شيخ كان يهوى كذلك سباق الهجن ، فقد ركب فى الشهر ذاته الى بركة الحبش ، وساق بالهجن ، ونظر فى عليق الجمال واستكثره فرسم أن يصرف نصف عليقة لكل جمل .

وذكر أن السلطان الأشرف برسباى كان شرها فى جمع الخيول والجمال وغيرها . كما كان الأمراء أيضا مهتمين بسباق الخيل ، حتى انهم كانوا يتسابقون فى الفضاء الممتد فيما بين قبر الامام الشافعى الى باب القرافة طولا وعرضا ، وكان السباق يستمر اياما تحدث فيها اجتماعات جليلة للتفرج على السباق .

أما عن ميادين السباق وأشواطه فكان من عادة سلاطين المماليك أن يخصصوا ساحات متعددة للسباق ، تسمى الواحدة منها حلبة ، أما موضع المسابقة فيسمى بالمضمار ، والمدى يسمى غايته ، وتكون الغاية طبقا لما يتفق عليه ، وكانوا يجعلونها مائة غلوة ، والغلوة قيمة رمية السهم العربى ، وهى خمسمائة ذراع ، وقد تجعل من مواضع معلومة الى مواضع أخرى معلومة أيضا

وهذا ما طبقه المماليك وهو ماكان معروفا قبلهم · وكانت تقام فى الميادين أعمدة رخام تعرف بعواميد السباق ، بين كل عمودين مسافة بعيدة ·

وكان المماليك يتراهنون فى السباق كما كان يفعل العرب من قبـــل ·

ويمكن تلخيص أسلوب السباق الذى كان يجرى فى الساحة ، حيث تقف الخيل فى الميدان ، ثـم تصف على المقوس ، أى الحبل الذى يمد فى صدور الخيل لتكون متساوية ، وترص حوافرها كالمشط المنظوم ، ثم يرفع المقوس فى سرعة فتنطلق عشرة عشرة ، دفعة واحدة ·

أما عن الفارس نفسه فان السباق يحتاج الى فارس عارف بأحوال الخيل ، خفيف الجسم ، قليل اللحم · وتشير المصادر الى انه فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أهداه الأمير العربى مهنا فرسا شهباء للسباق وطلب الا يركبها عند السباق الا « بدوى قادها » وقادها البدوى فى السباق عريا بغير سرج وهو يرتدى قميصا وطاقية فقط ، وسبقت كل الخيول ، فشق على السلطان أن تسبق خيله وخيل الأمراء وأبطل التضمير على خيله وصار الأمراء يضمرون على عادتهم ·

وقد اشتملت بعض مخطوطات الفروسية والبيطرة المنسوبة الى العصر المملوكى على رسوم تمثل سباقات الخيل ، ومن بينها واحدة من مختصر كتاب البيطرة لابن الأحنف المحفوظ بدار الكتب المصرية ، تمثل فارسين يتسابقان ·

ولم يكن سباق الخيل والهجن مجرد رياضة تمارس بغرض الترفيه فحسب بل كانت رياضة تدريبية مهمة ، تؤهل صاحبها ليكون

فارسا عظيماً ، يعتمد عليه فى الحروب التى كانت سمة ذلك العصر كما كانت هذه الرياضة كما وضح لنا ارستقراطية لا يمارسها الا السلاطين والأمراء والأجناد لامتلاكهم الخيول اللازمة لها والتى كانت تؤول اليهم فى العادة على شكل هدايا(١٥) أو هبات وأعطيات من السلطان أو الأمراء بينما اقتصر نصيب عامة الشعب من هذه الرياضة على مجرد المتعة الناتجة عن التفرج عليها ٠

المصارعة :

ومن الرياضات المهمة التى تسلى بها النـاس فى عصـر سلاطين المماليك ماعرف بفن الصراع ، ويقصد به المصارعة ، حتى أن السلطان حاجى « صار يحضر الأوباش بين يديه يلعبون بالصراع وغيرها » ، وقيل انه كان يمارسها بنفسه مع العـوام ، حيث كان يلبس تيان من جلد ، وهى سروايل قصيرة ويتعرى من جميع ثيابه ويصارعهم ٠

وكان من الأمراء من يجيدون هذا اللون من الرياضة ، فان أحد الأمراء العشرات يقال له قرقماس العلاى المصارع أمير آخور رابع ، كان علامة فى الصراع وهذا الأمير كان صهر المؤرخ ابن اياس ، وكما يبدو أنه كان يجيد فن الصراع حتى نسب اليه فاطلق عليه المصارع كما سبق ٠

كذلك كان من الأعيان من يمارسون المصارعة فقد أشار ابـن اياس الى أحدهم وهو سيدى اسماعيل بن الأمير لاجين بأنـه كان بارعا فى فن الصراع وتوفى بالطعن فى ذى الحجة سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦ م ٠

كما أشار أيضا الى ممارسة مماليك السلطان لهذه الرياضة وكان منهم من يشغل راس نوبة ومنهم على سبيل المثال فى عهـد

السلطان قايتباى الأمير مغلباى الفهلوان المحمدى الأشرفى اينال الذى كان عارفا بفن الصراع ، علامة فيه ٠

وقد تضمنت احدى المخطوطات الخاصة بالفروسية ورمى الرمح شيئا عن المصارعة فى عصر سلاطين المماليك ، واشارت الى أنواع من الصراع التركى والعربى والعجمى ، فأوضحت ما يلبس أثناء المصارعة ، وكيفية دوران المصارعين كما شرحت كيفية مدافعة الخصم ، وتوجيه الضربات له وكذا كيفية ابطال حركات الخصم وشل حركته ٠

وقد أوردت هذه المخطوطة بعض التصاوير التى توضح أوضاع المصارعة والتدريب عليها فى ذلك العصر ٠

ويبدو من خلال المصادر المعاصرة ، أن رياضة المصارعة لم يمارسها أى من السلاطين سوى السلطان المظفر حاجى ، ربما كان ذلك لطيشه وصغر سنه ومخالطته بالعوام ، كما يبدو أن معظم السلاطين قد اكتفوا منها بأن تلعب بين أيديهم ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وربما كان ذلك ترفعا من جانب السلاطين عن هذه الرياضة ، التى تتطلب أوضاعا خاصة لاتليق بمقام السلطان ومهابته ، كالتشابك بالأيدى والأرجل ، والوقوع على الأرض ومدافعة الخصم ، وفى الواقع انه لم يكن احد من الأمراء ليرضى أن يكون فى وضع المنافسة العنيفة مع السلطان ، حتى لو كان ذلك لونا من ألوان الرياضة ٠

وتوجد اشارات الى لون آخر من ألوان الرياضة التى مارسها المماليك وهى المبارزة ، فكانوا يقضون فى ذلك أياما مشهودة ، خاصة عندما تكون أحوال البلاد مستقرة لا يهددها خطر خارجى

أو داخلى فيذكر المقريزى انه فى ربيع الأول سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م « خرج الأمراء والمماليك فى يوم السبت رابع عشره الى الريدانية خارج القاهرة بتجمل عظيم واحتفال زائد ، فان الدولة كانت لم تطرق والبلد لم يتغير حاله ، والناس فى عافية بلا محنة وأقاموا فى التبريز(١٦) الى يوم الاثنين سادس عشره ، فكانت أياما مشهودة » .

وقد عرفت هذه اللعبة عند العرب باسم لعبة اللبخة ، كما عرفت باسماء متعددة كالتحطيب - عند عامة مصر - والمطروق والجريد وقد حفظت لنا التحف الاسلامية صورا لهذه اللعبة ، حيث انها سجلت على آنية من الخزف ذى البريق المعدنى من صنع مصر تنسب الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وقد سبقت الاشارة اليها ، وهى عبارة عن رسم لرجلين يتبارزان بالعصى احدهما رسم رسما جانبيا ، بينما يبدو الآخر فى وضعية ثلاثية الارباع .

وتمدنا المصادر المملوكية كذلك ببعض التصاوير ضمن مخطوط فى ألعاب الفروسية ، من بينها رسم محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة أيضا ينسب الى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى وهو يمثل مبارزة بين رجلين وقد وقف خلفهما رجل ثالث يمسك بعصا أو بعمود فى احدى يديه ويظهر أحد المتبارزين وهو يمسك بعصا زميله ، كما وصلنا رسم آخر مشابه يمثل لعبة التحطيب هذه أو كما يسميها المخطوط بلعبة المطروق ، ويفهم ايضا من تصاوير بعض مخطوطات الفروسية التى تنسب الى العصر المملوكى أن هذه اللعبة لم تمارس على الأرض فحسب ، بل كانت تمارس كذلك من على ظهور الخيل .

هذا وقد ذكر الشعرانى فى طبقاته الكبرى فى ترجمة عثمان الحطاب (المتوفى سنة نيف وثمانمائة) ما نصه : « وكان شجاعا يلعب اللبخة فيخرج له عشرة من « الشطار » ويهجمون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويرد بضرب الجميع فلا تصيبه واحدة . هكذا أخبر عن نفسه فى صباه » .

ويدل ذلك على انتشار مثل هذه الرياضات التى تتطلب مهارات فردية فى عصر سلاطين المماليك .

أما عن رياضة الملاكمة أو اللكام فاغلب الظن أنها لم تذكر كثيرا فى المصادر المعاصرة سوى ما أورده القلقشندى وهو عبارة عن نسخة مكاتبة كتب بها المقر الشهابى بن فضل الله عن السلطان الملك محمد بن قلاوون الى السلطان أبى سعيد بهادر خان(١٧) جاء فيها « وأما الاشارة العالية الى تقاضى تجهيزه من الملاكمين والسوقات فقد رسمنا بالانتهاء اليه ، وقد جهز من الملاكمين والطين المختوم ما أمكن الآن » ..

وقد حصلنا أيضا على احدى التصاوير وردت فى احدى مخطوطات الفروسية توضح كيفية التدريب على هذه الرياضة .

وردت فى المخطوط باسم اللكام ، حيث ورد بها فصل وصف فيه طريقة التدريب على تلك اللعبة وهى أن يأخذ اللاعب مخلاة ويملؤها ليفا أو تبنا وبها خيط وثيق ويعلقها فى السقف الى عند صدره « ويحدقها تروح عنه فاذا جاءت اليه لكمها بيده تروح عنه ويصير كلما جاءته لكمها مثل الأول ثم يتلقاها بصدره وذراعه .

وعرف المماليك كذلك من ألوان الرياضة ماعرف بالمعالجة ويقصد بها رفع الأثقال ، فكانوا يستخدمون الحجارة فى ذلك ، وقد

أورد المقريزى أن السلطان المنصور بن المعز قد زاول هذه الرياضة . كما أن الأمير علاء الدين على حفيد بيبرس الحاجب كان مشهورا بالعلاج ، وانه كان يعالج بمائة وعشرة أرطال ·

كذلك تلهى الناس فى ذلك العصر بمجموعة من الألعاب التى لها طابع المقامرة ، كاللعب بالطيور مثل تطيير الحمام وكذا المناطحة بالكباش والثيران والمناقرة بالديوك ، فكان يراهن الشخص على الطير أو الكبش فاذا فاز كسب الرهان ·

وقد انتشر اللعب بالطيور فى ذلك العصر ، حتى أصبحت تربيتها من الهوايات المحببة لدى كثير من الناس ، تملأ عليهم فراغهم وتشعرهم بلذة خاصة ·

فقد شغف بعض سلاطين المماليك باللعب بالطيور ، خاصة بالحمام وأثر عن السلطان المنصور على انه كان يلعب بالحمام مع أولاد الغلمان · كما عرف عن السلطان الكامل شعبان ولعه بلعب الحمام ايضا ، وانه « قرب من يكون من ارباب هذا الشأن ، بل أمر بأن ينادى فى القاهرة بألا يعارض أحد لعاب الحمام أو غيرهم من ارباب الملاعيب » ·

بل ان أحد السلاطين قد بعث الى المؤذنين يأمرهم « انهم اذا رأوا الحمام لا يرفعون أصواتهم » بالأذان حتى لا ينزعج الحمام ·

وقد باشر بعضهم اللعب بالحمام الى حد الاسراف حتى بلغ ما أنفقه السلطان المظفر حاجى على عمل حظير الحمام سبعين الف درهم(١٨) ·

وقد عد اللعب بالحمام من مساوىء هذا السلطان ، الذى صار له اجتماع بالأوباش وأراذل الطوائف ، وكان ذات مرة يلعب

بالحمام فدخل عليه الأمير جيبغا - رأس نوبة النوب - فلامه على ذلك فقال :

اذبحها فذبح منها طيرين ، فطار عقله وقال لخواصه : اذا دخل الجيبغا الى فبضعوه بالسيف أى قطعوه ٠ وعن نفس الواقعة يذكر ابن اياس انه لما سمع كلام الأمير ، غضب وقام من وقته وطلع الى السطح وذبح الحمام الذى عنده عن آخره ، كما خرب مقاصيره التى فى السطح وأرسل الى الأمير يقول له « انى قد ذبحت ما عندى من الحمام جميعها ، وأنا ان شاء الله تعالى أذبح فى هذا القرب خياركم من الأمراء ، كما ذبحت الحمام ٠

وكان هذا مما أسخط الأمراء عليه ، ويبدو أن هذا السخط قد امتد الى كثير من الناس وآثار سخريتهم حتى ان الشاعر الصلاح الصفدى قال فى شأن هذا السلطان متهكما(١٩) ٠

والمؤسف حقا ان اللعب بالطيور قد صرف هذا السلطان عن تدبير أمور الدولة والقيام بأعباء الحكم ، حتى وصف بالطيش الزائد ، وقد يرجع ذلك الى أنه كان شابا لم يتخط العشرين الا قليلا ، حتى انه « قد اشتغل بلعب الطيور ، عن تدبير الأمور ، والتلهى عن أمر الأحكام بالنظر الى الحمام فجعل السطح داره ، والشمس سراجه ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان هواه وخالف من نهاه ، وخرج فى ذلك عن الحد ، ولا صار يعرف الهزل من الجد » ٠

كما توضح نفس المصادر المعاصرة ان هذا السلطان كان مولعا بلعب الحمام بدرجة كبيرة ، وأعماله شاهدة على ذلك حيث قيل انه « لما وصل اليه موجود يلبغا اليحياوى ، نائب الشام ، فكان من جملته ذهب عين خمسين ألف دينار ، فصرف السلطان ذلك المال

جميعه على الحمام ، فصنع لهم خلاخل ذهب فى ارجلهم والواح ذهب فى أعناقهم ، وصنع لهم مقاصير خشب ، مطعمة بالعاج والأبنوس ، وأقام لهم غلمانا يكفونهم ، ورتب لهم فى كل شهر جوامك بسبب خدمة الحمام ، فأفنى ذلك المال الذى وصل من الشام جميعه ، على ما ذكرناه من أمر الحمام » . فلا عجب اذن بعد هذا كله أن يثور عليه بعض الأمراء وينتهي أمره بالقتل .

وقد اعتبر بعض الأمراء - أنفسهم - اللعب بالحمام سبة ونقيصة حتى ان الأمير الكبير اينبك ، عندما أراد أن يجعل فى فى السلطة الأمير أحمد بن الأمير يلبغا العمرى ، فانه استدعى الخليفة المتوكل على الله الى حضرته ولكن الخليفة اعتذر بانه ابن أمير وليس من بيت الملك ولم بوافقه على ذلك ، فسبه الأمير ينبك قائلا : « ما أنت فاره الا فى اللعب بالحمام والاشتغال بالجوارى المغنيات ..

ويبدو أن اللعب بالحمام كوسيلة من وسائل الترفيه لم يكن مقصورا على السلاطين والأمراء فحسب ، بل ان بعض الصبية كانوا يلعبون به فان كمال الدين محمد بن على القاهرى الشافعى الذى أصبح فيما بعد شيخا للاسلام كان يلعب بالحمام وهو صبى فى الريدانية كما سيأتى ذلك عند تناول ألعاب الأطفال .

وعلى أية حال لم يكن اللعب بالحمام من اختراع المماليك ، ولا هو وليد عصرهم ، فقد سبقهم الى ذلك كثير من حكام المسلمين حتى ان العرب فى الجاهلية وفى الاسلام حفظوا أنساب الحمام تماما كما فعلوا مع أنساب الخيول حتى انهم سبقوا كلا من العباسيين والفاطميين فى هذا المجال .

لذا تعد ممارسة اللعب بالحمام فى عصر سلاطين المماليك استمرارا لما كان قائما قبلهم وان غالوا فى ذلك مغالاة كبيرة كشأنهم مع كثير من وسائل الترفيه التى كانت شائعة فى عصرهم ٠

والى جانب الولع باللعب بالحمام كان البعض مولعا كذلك بتربية أنواع أخرى من الطيور من أجل مهارشـــتها ومنـــاقرتها كالديوك والسمان ، حيث كان الكثيرون يغرمون بالتفرج عليها ، وارتبط هذا اللـــون من الترفيه بالاهتمـــام ايضا بتربيـــة بعض الحيوانات بغرض المناطحة فيما بينها ، مثل الكباش والثيران وربما الأفيال والسباع ٠

وقد شغف بعض السلاطين المماليك شغفا كبيرا بالتفرج على مناقرة الديوك وتناطح الكباش والثيران ، فكانوا يحرصون على حضور ذلك فى جمع من الأمراء وكذلك القصاد ، فكثيرا ماكان السلطان قنصوه الغورى بعد أن يختم ضرب الكرة ، يطلـــع الى الحوش ويجلس بالمقعد الذى به ، ويحضرون قدامه الثيران والكباش برسم النطاح ، ويستمر ذلك الى مابعد العصر ، كما كان تتناطح وتتقاتل بين يديه الأفيال الكبار والسباع ٠

وكانت الأسمطة الحافلة تقدم فى ذلك اليوم بحضرة السلطان والأمراء ومن معهم من القصاد ، وكان الأمراء شأنهم فى ذلك شأن السلاطين، فقد أورد المقريزى انه عثر فى سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١ م لدى ابراهيم بن صابر مقدم دولة المماليك البحرية على مائتى كبش للنطاح ٠

وفى غالب الاحيان ، كان التحمس من جانب أصـــحاب هذه الطيور المتهارشة أو الكباش المتناطحة ، يؤدى الى معارك فيمـــا

بينهم ، وربما كان يفضى أيضا الى العداوات ، فقد ذكر أن الناس قد أكثروا « من اقتنائها والمواظبة على اضرام شحنائها ، وربما نشأ عن ذلك فتنة تئول الى ضراب وشق ثياب واحداث شجاج واثارة عجاج ويجر الى احزاب وأفواج » ٠

وكان طبيعيا ان تعمد بعض الحكومات أثناء العصر المملوكى الى منع هذه الوسائل ، فقد حدث سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٤م أن رسم الأمير الحاج آل ملك الجوكندار نائب السلطنة بابطال جميع أرباب الملعوب من المناطحين بالكباش والمناقرين بالديوك وغيرهم ، رغم ماكان يتحصل منها للدولة من مال كثير ولكن لم يكن هذا المنع ليستمر طويلا فسرعان ما تعود الملاعيب الى سابق عهدها وربما أشد من ذى قبل ٠

ويبدو أن هذه المجموعة من وسائل الترفيه المتمثلة فى مناقرة الديوك وصياح السمان ، ونطاح الكباش والثيران كانت منتشرة حتى على مستوى الطبقات الشعبية ، حتى اننا نجد أنها وردت فى أدب الأدباء الذى تمثل بعضه فى بابات خيال الظل ، ذلك الفن المسرحى الشعبى الذى كان يعرض باباته على عامة الشعب ويستوحى موضوعاته من حياة الناس وأحوالهم ، فقد وصلتنا احدى البابات لابن دانيال باسم « المتيم والضائع اليتيم » وهى تصور مناقرة الديوك ومناطحة الكباش ، حيث يعرض ابن دانيال فى هذه البابة صورا من الملاهى التى دارت بين المتيم واليتيم ، وعادة ما تبدأ بمناقرة الديوك حيث يعد كل منهما ديكه للنقار ، وكان يطلق على أحد الديكين « أبو المعرف صباح » وعلى الاخر «صياح» فيبدأ المتيم فى الاشادة بديكه(٢٠) ٠

ويرد عليه اليتيم هو الآخر مشيدا بديكه ايضا ، ويبدو ان هواة هذا اللون من الترفيه ، كانوا يسرفون بالعناية بتلك الديوك ،

فيكسونها بالحرير ويزينونها بألوان من الحلى ، ونرى ذلك فى وصف المتيم لديكه(٢١) ٠

كما توضح هذه البابة طبيعة هذه المناقرة ، وكيفية الظفر فيها فيقول ابن دانيال على لسان « زيهون » وهو أحد شخوص البابة :

« وأحسن ما تفرج عليه السوقة والملوك ، مناقـرة الديوك ، لأنها مناصلة ومناضلة ومقاومة ومنازلة ، وهذان الديكان قد وقفا للاصطدام ، وأصرا على الاقدام ، فمن هرب من المنقار ، والتجأ الى الفرار ، وجب عليه ما تقرر وليس بعار اذا عـــاد المغلـوب وتكور » ٠

وفى هذا القول مايوضح طبيعة المناقرة بالديوك ، وانهـــا كانت تسلية الملوك والعامة ، كما تبين كيفية المواجهة بين الديوك وتأهبها للصدام ، وتشير كذلك الى ان المهزوم هو الذى يفر من غريمه هربا من نقره فيخسر المراهنون عليه الرهان ٠

وربما كانت مناطحة الكباش والثيران تسير على هذا النسق كما فى المناقرة ، فيقول المتيم بعد أن هزم ديكه فى تلك المواجهة : ولئن هرب ديكى من صياح ، فدونك كبش للنطاح ، وكل لاعب يعرف كبشى كأنه الأسد الوحشى ، يكاد ينطح البروج ، ويهدم بقرنية سد يأجوج ومأجوج » ثم تبدأ المناطحة فيشيد كل منهما بقوة كبشه ، وجمال منظره ، ويشير الى موطنه ومن الطريف أن تأتى أم اليتيم فتطلق البخور على كبش ابنها من الحسد قبل اللقاء ، وربما كان ذلك اشارة الى بعض مايصحب مثل هذه المناطحات من مراســـم وعادات ٠

وهكذايتضح أن هذا اللون من وسائل الترفيه كان متعة لكثير من الناس يملأ عليهم فراغهم ويرضى ميولهم فى المقاومة والتحدى

بحيث كان يلقى اقبالا كبيرا من الجميع ، وان كان بعض الفقهاء قد أنكروا « نطاح الكباش ، ونقار الديوك وصياح السمان وأمثالها ومما عرف الناس انه منكر اثارة التحرش بين الحيوانات ، وهى ذوات أكباد رطبة وأخلاق صعبة » ·

اقتناء الحيوانات وترويضها :

وقد تلهى سلاطين المماليك أيضا باقتنـــاء بعض الحيوانات المائية وكذا بعض الحيوانات غريبة الخلقـــة ، التى كانت غالبا ما تهدى اليهم · ويبدو أن الناس كانوا يترقبون أخبار ذلك ، فتذكر بعض المصادر المعاصرة انه « اشيع بين الناس أن شخصـــا من البرابرة قبض على فرس البجر دن بعض جهات الصعيد وأحضرها بين يدى السلطان « الغورى » فلما أحضرت بين يديه فرح بهـــا ، وقيل انه أطلقها فى البحرة التى فى الميدان » ·

كما أهدت زوجة ملك المغرب وهى فى طريقها الى الحجاز سنة ٧٣٦هـ/١٣٢٦ م الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون هدايا حافلة « ومن جملتها أعجوبة ، وهو ثور أصفر ، فاقع اللون كامل الخلقة ، وفى وسط ظهره من الجانب الأيمن كتف طالع منه رؤوس أضلاعه وذلك الكتف بمرفق وذراع ، وحافر مفروق مثل حافـــر البقر ، فكان يطوف بالقاهرة كما يفعل بالسباع ، وعليه جل من حرير أصفر » ·

ولعل ذلك يظهر أن سلاطين المماليك وكذا الناس فى عصرهم كانوا يبحثون عن كل المبهجات ووسائلها ـ على كثرتها ـ فلـــم يتركوا شيئا يدخل السرور على أنفسهم الا فعلوه ، حتى قال أحد المؤرخين « لقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لاتدرك

مثل انهم يعلمون الحمر الانسية والحيوانات العجـــم من الماشى والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب بدورها ، وبعجز أهل المغرب عن فهمها » ٠

ويفهم من هــذا النص أن المصريين كان لهم القدرة الفائقــة فى ترويض الحيوانات والطيور واســـتغلال ذلك فى الترفيه عن الناس فيما يشبه الآن عروض السيرك ٠

وقد بلغ أمر بعض السلاطين الى التفرج حتى على الأمور الجادة مثلما فعل السلطان الناصر محمد بن قايتباى فى شعبان سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م حيث أمر بأن تقطع الحيات التى كانت تلزم للبيمارستان ، بحضرته حتى يتفرج عليها ، فأحضرت بين يديه بقاعة البحرة وقطعت بحضرته وهو ينظر اليها وبعدها خلع على شمس الدين القوصونى رئيس الطب وولده وكذا الحاوى الذى أحضر الحيات وغيرهم ٠

والى جانب ذلك تلهى الناس فى عصر المماليك بمجموعـــة أخرى من الألعاب التى تتمثل فى العاب الدبابــة الذيـــن يلعبون بالدببة ، والقرادة وهــم الذيـن يلعبون بالقـــرود وكذا الحـــواة والبهلوانات « مما لايزال بعضه باقيا فى مجتمعنا الحديث ٠ وكان لهؤلاء مناطق معينة يجتمعون فيها ليعرضوا ألعـــابهم حيث كـان « ينحشر هنالك من الخلائق للفرجة ٠٠٠ مالا ينحصر كثرة » ٠

أما عن الحواة فكانت ألعابهم منتشرة فى العصر المملوكى ويقبل على مشاهدتها العامة والخاصة ، وهم الذين يلعبون بالثعابين وغيرها من الزواحف طبقا لمشيئتهم وسيطرتهم عليها ، وكان لهم فى ذلك فن ومقدرة كبيرة ، حتى ان أحد السلاطين قد خلع على حاو

احضر اليه الحيات ليتفرج عليها وتقطع امامه ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وكان الحواة يجدون فى جمع الحيات والأفاعى ليعرضوا بها العابهم ، فيشير المقريزى الى حادثة وقعت من احد الحواة مضمونها ان احدهم من أهل طرة يقال له ابوكريت أمسى عليه الليل يوما فاضطر الى المبيت بجامع القرافة بمصر ، وكان معه سلة بها حصيلة أسبوع من الأفاعى الغريبة والحيات الخطرة التى لم يقدر على جمعها قط حاو غيره ، وانسابت الأفاعى من السلة وتسربت منها ، مما أزعج من كان موجودا بالجامع لقضاء الليل فهرعوا الى تسلق المنبر والأعمدة وهم يرتعدون من شدة الخوف ، واستمروا على ذلك الى مطلع الفجر حيث استطاع الحاوى أن يستعيد اغلب الحيات ويعيدها الى سلته من جديد ·

ولعل فى تلك الرواية ما يدل على انتشار هذه الفئة من الناس وانهم كانوا يهيمون على وجوههم بغرض جمع الحيات ثم بيعها بعد ذلك ، أو استخدامها فى ألعاب للترفيه عن المارة بمقابل بسيط يحصلون عليه خلال العرض أو بعده ·

وخلاصة القول ان الحواة فى ذلك العصر كانوا يمارسون ألعابهم شأنهم فى ذلك شأن غيرهم فى عصور سابقة ، حتى عصرنا الحاضر ، فان هذه الطائفة من الناس مازالت موجودة ، تمارس ألعابها أمام جمع من المارة فى الميادين العامة والأماكن الشعبية وان منهم من انصرف الى مزاولة أعمال اخرى فاصبحنا نادرا ما نراهم ، وان كانت هذه الندرة لاتدل على انقراضهم تماما ، ومنهم من انصرف الى صيد الافاعى والثعابين وغيرها بقصد بيعها للهيئات العلمية بغرض الأبحاث فى مقابل عائد مادى يتعيشون عليه ·

ولا عجب فقد كان يحدث مثل ذلك فى عصر سلاطين المماليك حيث كان الحواة يقدمون الحيات الى البيمارســـتانات للاغراض الطبية كما سبقت الاشارة الى ذلك ٠

(البهلوانات) :

وعن البهلوانات والعابهم التى كانوا يقدمونها فى العصــر المملوكى فان المصادر المعاصرة تحدثنا بانه فى ســـنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م قام شخص من المماليك يسمى يشبك وهو من مسالمة الفرنج ينصب حبلا من أعلى مدرسة السلطان حسن تحت القلعة ، ومده حتى ربطه بأعلى المدرسة الأشرفية من قلعة الجبل ، وتقدر هذه المسافة برمية سهم أو يزيد ، وفى ارتفاع نيف على مائة ذراع ، ثم برز من رأس المئذنة ومشى على هذا الحبل حتى وصل الى المدرسة الأشرفية ، وقد أبدى فى مشيه أنواعا من اللعب ، ورمى بالمكحلة كما رمى قوس الرجل ، كل ذلك وهو فوق الحبـل ، وقـــد جلس السلطان الأشرف برسباى والأمراء لرؤيته ، وحشر النــاس من أطراف المدينة ، وأنعم السلطان على البهلوان وأركبه فرسا كامل العدة ، كما خلع عليه بطرازين ، كما أحسن اليه الأمراء أيضا ٠

وقد آثار ما قام به هذا البهلوان من سير فوق الحبل همـم شباب أهل البلد من المصريين ، حتى أن أحدهم عمد الى نصـب حبل فى داره وأخذ يدرب نفسه على السير عليه ، فلما علم من نفسه القدرة على ذلك ، قام بمد حبل من رأس نخلة الى أخرى وأعاد التجربة ثم أظهر نفسه ، ونصب حبلا بين مئذنة المدرسة الظاهرية برقوق ومده الى مئذنة المنصورية بين القصرين كما أرخى من وسط هذا الحبل الممتد حبلا آخر الى أسفل وواعد الناس حتى ينظروا مايفعله ، فجاءوا اليه من كل جهة وبدأ المشى قائما على قدميه من

راس مئذنة المدرسة الظاهرية حتى وصل الى راس مئذنة المدرسة المنصورية وهو منتصب القامة ، وبلغت مسافة ذلك نحو مائة ذراع وارتفاع أكثر من ذلك ٠

ومن الحيل التى قام بها أثناء ذلك انه نام على الحبل وتمدد ثم قام ومشى حتى وقف على الحبل الذى أرخاه فى وسط الحبل الذى هو قائم عليه ، ثم نزل على الحبل المدلى حتى آخره ، ثم صعد عليه ، وهو يبدى فنونا تذهل العين رؤيتها ، « ولولا ضرورة الحس لما صدقت » كما أنه لم يكتف بذلك فقد قام بنصب حبل من مئذنة السلطان حسن الى الأشرفية بالقلعة ، كما فعل الرجل الأول ، وقد جلس السلطان الأشرف برسباى لمشاهدته مثلما فعل مع سابقه ، وأقبل الناس من كل صوب وحدب ، وتصادف أن هبت رياح عاصفة كادت تقلع الأشجار وتلقى الدور من شدتها ، ولكن هذا الشاب البهلوان استطاع رغم ذلك ان يقدم عروضه بنجاح منقطع النظير كما اتى بحركات بهلوانية لم يسبق لها مثيل ، فكان على حد تعبير أحد المؤرخين « شيئا عجيبا ، لاسيما أنه لم يتقدم له ادمان فى ذلك ، ولا دربه فيه معلم ، وانما تاقت اليه نفسه فامتحنها ، فاذا هى متأتية له فيما أراد ، فبرز وأبدى ما يعجز عنه سواه » ٠

وهناك اشارة الى احدى التصاوير من هذا العصر ، من مقامات الحريرى المحفوظة بالمكتبة الأهلية فى فينا ، منسوبة الى مصر حوالى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٤م ، عبارة عن صورة لأمير فى مجلس شراب وطرب وترفيه ، حيث يوجد أسفل منه رسم لشخص يؤدى بعض الألعاب البهلوانية مما يعطى صورة واضحة عن بعض الألعاب التى كانت سائدة فى ذلك العصر ٠

وخلاصة القول ان الألعاب البهلوانية خاصة السير على الحبل أو ماشابه ذلك عرفت فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ٠

مواضـــع التنزهات والترويض :

والى جانب تلك الألعاب السابقة ، فقد أغرم سلاطين المماليك والأمراء بل عامة الناس بالخروج الى النزهة والتريض فى أماكن كثيرة من ربوع مصر ـ سيرد ذكرها فيما بعد ـ وكان نصيب نهر النيل فى ذلك كبير ، حتى قال الرحالة ابن بطوطة فى وصـــفه : «ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبه مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، والمدن والقرى بضفتيه ، ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل ، وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره »(٢٢) ٠

وقال رحالة آخر يدعى بيلونى وهو من جـــزيرة كريت زار مصر فى عصر المماليك « ان ماء النيل من خصائصه ان يجعـــل الناس دائما مرحين بعيدين عن الهموم والأحزان » ٠

واعتاد سلاطين المماليك الركوب فى بحر النيل ، كما اهتم بعضهم بعمارة الشوانى الحربية ولعبها فى البحر ، فقد نزل الملك الظاهر بيبرس الى القصر الذى كان فى قلعة الروضة وأرسل خلف الامام أحمد الى هناك ، « وأضافه اضافة حافلة ، وأمر باحضار الشوانى والسفن الحربية لتقوم أمامه على صفحة النيل بمناورات واستعراضات ذهابا وايابا ، والطبول والبوقات والنفوط عمالة » ٠

وكان اذا خرج السلطان للنزهة « فـــان والى القاهرة ينتهز المناسبة لاقامة المهرجانات ، فيطلق النفط أو يشعل قنابل بالزيت فى قشور البيض ثم تدلق على وجه الماء لتكون أسرجة موقدة على وجه النيل » كما طلب الأمير التاج والى القاهرة فى ذى القعدة سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م عندما عـدى السلطان المؤيد شيخ النيـــل

ونزل على أوسيم من باعة الفواكه وأصحاب البساتين « أن يحملوا النرجس ونحوه من المشموم ، فجبى ذلك منهم حتى عز وجود البنفسج بعد ذلك ، وبيع بخمسة وعشرين درهما الباقة بعد درهم » .

وواقع الأمر ان المصادر المعاصرة قد أسهبت فى ذكر هذه الألوان الترفيهية ، سواء بالنسبة لسلاطين المماليك والأمراء أو لعامة الشعب بجميع طوائفه ، الذين كانوا يتخذون من ذلك مجالا للفرجة والترفيه .

فيذكر المقريزى انه فى ليلة الخميس الرابع والعشرين من المحرم سنة ٨٢١هـ/١٤١٨ م ، كان الوقيد ببر منبابة بين يدى السلطان حيث انه نزل بقصر ابن البارزى كاتب السر الذى أنشأه على النيل بحرى منبابة ، وألزم الامراء بحمل الزيت والنفط « فجمع من ذلك شيء كثير » وأحضر البائعون الكثير من قشر المبيض ، وقشر النارنج ، ومن المسارج الفخار ، وعمل فيها قناديل القطن المغموسة بالزيت وأشعلت بالنار ، وأرسلت فى النيل بعد غروب الشمس بنحو ساعة ، وكذلك أطلقت النفوط « وقد امتلأ البران بطوائف الناس وحولهم من السخف ما لم يعهد مثله للملك قط » وتكرر ذلك من السلطان أكثر من مرة اذ يبدو انه كان من العادة أن يعمل الوقيد ليلة الخميس عند عودته من أوسيم حيث يتزل على النيل بناحية امنبابة ، وكانت تقدم له التقادم من الخيول والجمال على العادة .

وكان للناس أيضا ولع عظيم بمشاهدة ذلك والتفرج عليه ، حتى انهم كانوا يتحينون المناسبات المختلفة للمشاركة فيها طلبا للترفيه وادخالا للسرور على أنفسهم . ويروى المقريزى واقعة

مضمونها ان السلطان المؤيد شيخ نزل الى جامعه بجوار باب زويلة يوم الخميس سابع عشرة من ربيع الاول سـنة ٨٢٢هـ/١٤٢٩م واستدعى شيخ الاسلام قاضى القضاة جلال الدين البلقينى ، حيث بالغ السلطان فى اكرامه وأفاض عايه بتشريف ، وشافهه بولاية قضاء القضاة ، فارتجت القاهرة ، وخرج الناس رجالا ونساء على اختلاف طبقاتهم لرؤيته ، فرحا به ، حتى غصت الشوارع ، وفى عودته الى المدرسة الصالحية ، مر من تحت الربع وعبر من بـاب زويلة وقام السلطان فى الشباك ليراه ، فأبصر من كثرة الخلـق وشدة فرحهم وعظيم ما بذلوه وسمحوا به من الزعفران للخلوق ، والشموع للوقود ، مع مجامر العود والعنبر ، ورش ماء الورد وهم يدعون للسلطان ، ما أذهله ، وقوى رغبته فيه ، حتى ان بغلته لاتكاد تجد موضعا لحوافرها ، حتى نزل الى المدرسة الصالحية ومعه أهل الدولة عن آخرهم ، ومنها توجه الى داره « وكان يوما مشهودا واجتماعا لم يعهد لقاض مثله » .

وكان من عادة بعض السلاطين أن يصطحبوا حريمهم معهم فى النزهات النيلية والخلوية ، حيث كان حريم السلطان يخرجن على الخيول فى محفات مغشاة بالحرير ويحيط بهن سائر الأمراء والمماليك والخدام وكثيرا ماخرجت نساء القاهرة فى ذلك العصر الى مواضع اللهو والفرجة ، حيث ينكشف ستر الحياء ويختلط النساء بالرجال « الأمر الذى اثار الفقهاء ورجال الدين فنادوا بمنع خروج النساء على ذلك الوجه السافر » .

كما كان بعض السلاطين يسمحون لحريمهم بالنـزول الى بولاق ، حتى يتمتعن برؤية النيل بهدف « تغيير الجو » .

وكما سبق أن اشرنا فان سلاطين المماليك كانوا يحرصون على التمتع بهذه النزهات رغم ماكان يعانيه بعضهم من آلام المرض

حتى ان السلطان المؤيد شيخ الذى كان لايطيق حركة الفرس لما به الألم ، فقد كان يركب المحفة الى البحر ويحمل منها على الأعناق ، وفى اثناء اقامته فى بيت البارزى كاتب السر ، كان يحمل على الاعناق ايضا حتى يوضع بالحراقة ، ويسير بها فى النيل قاصدا رباط الآثار النبوية ثم يحمل من الحراقة الى الرباط ، « وتارة يقيم بالحراقة وهى بوسط النيل نهاره » .

وكان السلطان يحضر الحراريق من ساحل مصر الى ساحل بولاق ، وهى مزينة بأفخر زينة وأحسنها ، كما صار يركب فى الحراقة الذهبية ، وبقية الحراريق سائرة معه مقلعة ومتحدرة « تلعب بين يديه أحيانا والناس على اختلاف طبقاتهم مجتمعون للفرجة ، فلا ينكر على أحد منهم كما كان المماليك يقومون بلعب الرمح على شاطىء النيل وهو يشاهدهم محمولا على الأعناق كما سبقت الاشارة « فمرت على الناس ببولاق فى تلك الأيام والليالى أوقات لم نسمع بمثلها ولم يكن فيها — بحمد الله — شىء ينكر ، كالخمور ونحوها ، لاعراض السلطان عنها » .

ولم يكن السلطان المؤيد شيخ فقط هو الذى ينزل الى بيت المقر الناصرى بن البارزى — المطل على النيل — بل يبدو ان ذلك استمر حتى عهد السلطان الأشرف برسباى الذى نزل الى هناك فى ذى الحجة سنة ٨٣٣هـ/١٤٣٠م ، وقدم بين يديه فى النيل أيضا غرابان(٢٣) فلعبا كما هى العادة عند محاربة الفرنج ..

وكان من الطبيعى ألا يقتصر الأمر على التنزه على صفحة النيل فقط بل ان كثيرا من الناس اعتادوا ركوب المراكب فى الخلجان والبرك ، كالخليج الناصرى(٢٤) وبركة الرطلى ، حتى انه فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٨١هـ/١٤٧٩م منعت مراكب المتفرجين

من دخول الخليج الناصري وبركة الرطلى من أراضى الطبالة ، وذلك عنطريق وضع سلسلة على فم قنطرة الذور(٢٥) وعلى قنطـرة الفخر بموردة الجبس لهذا الغرض • ويبدو أن هذا المنع أيضا لم يقتصر على الخلجان والبرك ، بل انه امتد كذلك الى المتفرجين فى البحر ويقصد به نهر النيل ، فقد حدث فى جمادى الآخرة سـنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م ، عندما توقفت زيادة النيل واستمر ذلك سـبعة أيام « ان بادر الأمير سيف الدين سودون نائب السـلطنة بالديار المصرية الى المتفرجين ، وكبس عليهم فى الليل وقبض على جماعة وانتهرهم » •••

وفى عهد السلطان الأشرف قايتباى ، كان الأمراء كذلك يلهون فى البرك ، ففى رمضان سنة ٨٩٤هـ عمل الأتابكى أزبك وقدة حافلة وحراقة نفط فى بركة الأزبكية ، وعزم على الأمراء هناك ، وقضوا ليلة حافلة ، وتكرر منه ذلك وعزم أيضا على ابن السلطان فنزل اليه ، وبات عنده فى القصر المطل على البركة وتخلل ذلك اسمطة حافلة وتقديم التقادم الجزيلة ، وكانت هذه أول مرة يخرج فيها ابـن السـلطان منذ نشأ ، فقد كان مقيما بالقلعة « لـم يـر البر قط » •

وكان الناصر محمد بن قايتباى ينزل الى بولاق ويشق البحر فى مركب ومعه بعض العوام وأولاد عمه جانم لحضور الاحتفـال بمولد الأولياء مثل سيدى اسماعيل الامبابى ، ويحرق ببـولاق حراقة نفط حافلة ، وحدث أن بات تلك الليلة فى المراكب « وكانت من الليالى المشهودة فى القصف والفرجة ، وفعل ذلك عدة مرات » وكثيرا ماكان يتوجه الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وبات بها ، ثم كان يشق القاهرة فى موكب حافل « وحجبته خاله قانصـوه وبعض الأمراء ، وجعل قدامه طبلين وزمرين ، وعبيدا سودا ترمى بالنقوط قدامه على هيئة الكشاف » •

كذلك عنى السلطان الغورى بعمارة المراكب ، خاصة الأغربة التى كانت تعمر فى رشيد ، وعند وصولها عند رأس الجزيرة الوسطى يتجمع الناس للتفرج عليها وقد زينت بالصناجق والشطفات ودقت فيها الطبول وزعقت الزمور « واجتمع هناك الناس أفواجا أفواجا • وقد حضر السلطان بنفسه عرضا لهذه الأغربة حيث أحضرت بين يديه فلعبوا قدامه فى البحر ذهابا وايابا والطبول والنفوط عمالة وأرموا قدامه فى البحر عدة مدافع ، وكان له يوم مشهود ، واجتمع هناك الجم الغفير من الناس وأقام السلطان هناك الى ما بعد العصر » ، حتى يقال انه لم يقع السلطان منذ أن تسلطن يوم مثل ذلك اليوم فى القصف والفرجة .

وقد أشيع يوما بين الناس أن السلطان قد عمر مركبا ببولاق على صفة المركب القديم المعروف بالذهبية ، وبعد الانتهاء من اتمامها ، أمر بتزيينها بالصناجق وأن توضع فيها الطبول والزمور والنفوط ، وأن تحضر على تلك الهيئة من بولاق الى تحت المقياس حتى يشاهدها السلطان وهو هناك •

وقد رسم السلطان للامراء ، باحضار طبلخاناتهم فى مراكب عند المقياس ، ففعلوا ذلك ، حتى كان صوت الطبول والزمور مع الكوسات كصوت الرعد القاصف ، فكانت تلك الليلة من الليالى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، وكان الناس يقبلون على استئجار المراكب ، حتى وصل كرى كل مركب فى تلك الليلة خمسة دنانير وأكثر من ذلك •

وكان والى القاهرة يدور طوال الليل فى مركب خاص به وينادى للناس بالأمان والاطمئنان « الا يشوش على أحد ولا مملوك يعبث على امرأة •• » • ويصف ابن اياس تلك الليلة بقوله :

« وكانت ليلة كثيرة الاضطراب ، ماجت فيها الناس وخرجت البنت من خدرها حتى تنظر وقدة السلطان وحراقة النفط » ٠

ويبدو أن المؤرخ ابن اياس كان شاهد عيان لأحداث تلك الليلة وانفعل بها حتى انه نظم فى وصفها قصيدة تعتبر – فى رأى الباحث – من أجمل ماقيل فى وصف مثل تلك الليالى وأشمله(٢٦) ٠

ويستمر ابن اياس فى تصويره لمباهج تلك الليلة وماحوت من أسباب المتعة والترفيه ، فيمتدح السلطان الغورى بهذه المناسبة مشيرا الى أن الاحتفال بهذه الوقدة قد دام طوال الليل حتى الصباح ٠

وقيل ان حراقة السلطان كان مصروفها نحوا من مائة وسبعين دينارا وقد حضرها القضاة الأربعة واعيان الناس وقراء البلد قاطبة والوعاظ ٠

خلاصة القول أن نهر النيل والخلجان الخارجة منه ، وكذا عدد من البرك التى اشتهر وجودها فى العصر المملوكى كانت ميادين مناسبة لممارسة كثير من ألوان الترفيه والتسلية فى عصر سلاطين المماليك ، سواء للخاصة أو العامة فقد تساوى فى ذلك الجميع ٠

المتنزهات ومواضع الفرجة :

حقا لقد تعددت وسائل الترفيه والترويح عن النفس فى عصر سلاطين المماليك ، وقد أفاضت المصادر المعاصرة فى ذكر أماكن المتنزهات من حدائق وبرك وغيرها ، وماكان يحدث فيها ، وكيف كان الناس يستمتعون بأوقات فراغهم فى هذه الأماكن ٠٠

ويمكن ادراك أهمية الدور الذى قامت به هذه الأماكن ، من حيث الترفيه على الناس فى ذلك العصر اذا عرفنا أنها كانت أقل وسائل الترفيه تكلفة أو بمعنى آخر كانت من أكثر وسائل الترفيه شيوعا ويسرا بالنسبة لجميع الطبقات ذلك بعكس ألوان أخرى من وسائل الترفيه التى تتطلب مستوى خاصا ، ومقدرة مالية معينة ، كما تتطلب بعض المستلزمات والأدوات ، كما هو فى الصيد والفروسية ولعبة البولو وغيرها .

والحديث عن المتنزهات فى العصر المملوكى يستلزم القاء الضوء على طبيعة هذه المتنزهات ومواضعها ، خاصة أن المماليك استحدثوا كثيرا منها بدافع الرغبة القوية لديهم فى الاستمتاع بكل مباهج الحياة ، وقد أوردت المصادر المعاصرة أسماء كثيرة لمتنزهات متعددة فى عصر سلاطين المماليك .

ومن أشهر متنزهات المماليك القديمة . بر الجيزة ، قريبا من الأهرام حيث كان السلاطين ينصبون عندها الخيام زمن الربيع على سبيل التنزه .

وأيضا منظرة الخمس وجوه ، وقد ذكرها المقريزى ضمن المناظر التى كان يتنزه فيها الفاطميون(٢٧) ، ويذكر أيضا أنه هو نفسه قد أدركها « وهى من أعظم متفرجات القاهرة » وقد جدد السلطان المؤيد شيخ عمارة منظرة فوق الخمس وجوه القديمة ، ومنظرة التاج التى كانت أيضا من جملة المناظر التى ينزلها الخلفاء الفاطميون للنزهة ، لكنها خربت ولم يبق منها سوى أثر كوم توجد تحته الحجارة ، وماحول هذا الكوم صار من مزارع أراضى منية الشيرج .

كما عرف من تلك المتنزهات ماعرف بأرض الطبالة ، وكانت تقع على جانب الخليج الغربي بجوار خط المقس(٢٨) ، وكانت من أحسن متنزهات القاهرة وسميت كذلك نسبة الى مغنية الخليفة الفاطمي المستنصر بالله المعروفة بنسب الطبالة وكانت أرض الطبالة « أحسن موضع فى ظواهرها الفرجة ، لاسيما أيام القرطم والكتان(٢٩) ٠

وكان بظاهرها بركة الفيل التى تمثل دائرة كالبدر « والمناظر فوقها كالنجوم وعادة ماكان السلطان يركب فيها بالليل ، وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب(٣٠) ٠

ومن المتنزهات القديمة أيضا ، جزيرة الروضة التى كانت من أهم المتنزهات أيام الفاطميين ، وأنشئت فيها المناظر الكثيرة ، ويذكر ابن اياس نقلا عن ابن المتوج أن اسمها قديما كان « جزيرة مصر » فسميت الروضة زمن الأفضل بن أمير الجيوش ، وكانت قبل ظهور الاسلام متنزها لملوك القبط ، كما كان بها مكان يعرف بالهودج ، الذى عمره الامر بأحكام الله الفاطمى ، ليكون متنزها له ولزوجته البدوية ، وكان كثير التوجه اليه ، وأيضا كان بها بستان يعرف بالمختار أنشأه الاخشيد محمد بن طغج وعمر به قصرا مرتفعا ، وقد خربت فيما بعد الى أن عمرها وأصلح ما أفسد منها الظاهر بيبرس البندقدارى ، كما فرق أبراجها على الأمراء ٠

وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة الذى زار مصر فى عصر المماليك فى وصف الروضة : « وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة وأهل مصر ذوو طرب وسرور » ٠

كما أشار الرحالة أنه حضر بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده ، فزينت الأسواق وعلقت الحلل والحلى وثياب الحرير وبقى ذلك أياما(٣١) .

كما تناولها الشعراء في كثير من شعرهم ، كما سبق ذكره ، ووصفها البعض نثرا فقال :(٣٢) « ان هذه الجزيرة التى بين مصر والجيزة أعدل موضع فى الدنيا مزاجا وأصح هواء وأطيب مسكنا قولا يعرفه العاقل الفاضل ولايهتدى اليه الغمر الجاهل ... »

وكان أيضا من متنزهات مصر موضع يعرف بالسبع همايل ، وكان بالقرب من شبرا على بحر النيل ، وكان يقصد للفرجة ، وكذا المنية ويقصد بها منية السيرج وقد قيل فيهما شعر سبقت الاشارة اليــه .

هذا الى جانب مفترجات أخرى قديمة مثل كوم الريش وقناطر الأوز وبرك البشنين ، وقد قيل فى هذه المواضع أيضـــا كثير من الشعر وقد جمع بعض الموالة اسماء المفترجات(٣٣) .

وكان هناك مكان آخر يعتبر من مفترجات مصـــر القديمة ، يعرف بالتكة وخليج الذكر ، وهو مكان الأزبكية الآن(٣٤) .

وكانت هذه الأرض قديما عامرة بالمناظر والبساتين ، وكانت تعرف أيضا باسم مناظر اللوق ، وهى قريبة من بحر النيل ولمـا بنيت قنطرة على خليج الذكر كان فوقهـــا تكـــة ، يجلس عليهـا المتفرجون ، واستمرت كذلك حتى سنة ٦٥٥ هـ ـــ ١٢٥٧ م وتلاشى أمرها ، ثم حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون خليجـه المعروف بالخليج الناصرى فى سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م .

واشتهر أيضا من بين هذه المتنزهات ميدان اللهو ، جهــة بولاق حيث كان الناس يقصدونها فى ذلك العصر ويقيمون فيهــا

الأخصاص المصنوعة من الخوص ، كما زرعوا حولها الرياحين وزينوها بالرخام والدهان ٠

وهناك كان يزدحم المتنزهون رجالا ونساء ، حيث اكان من الطبيعى أن يتبعهم عدد كبير من الباعة ، فيختلط الناس من غير كلفة أو حجاب وكان من معالمها المشهورة جامع الخطيرى السابق الاشارة اليه ٠

والجدير بالذكر أن من تلك المفترجات القديمة مابقى على حاله حتى فى العصر المملوكى ، ومنها أيضا ما أضاف اليه المماليك شيئا من التحسين والتغيير كما انهم كثيرا ما استحدثوا متنزهات ومفترجات جديدة ، ربما لتناسب أسلوبهم فى الحياة من حيث رغبتهم الشديدة فى التمتع بمباهج الحياة – كما سبقت الاشارة – وربما كان ذلك نتيجة لميولهم العمرانية والمسحة الدينية التى كان يستشعرها سلاطين المماليك ، حيث كانوا غالبا ماتبدأ عمارتهم لمكان التنزه ببناء احدى الخانقاوات أو احد الجوامع ، ثم تكثر العمارة حولها من جانب الأمراء وذوى الجاه ويواكب ذلك بناء القصور والمتنزهات من البساتين والحدائق وغيرها ٠

المتنزهات الحديثة :

ولعل من تلك المفترجات التى أحدثها المماليك على سبيل المثال ماعرف برباط الآثار النبوية المطلة على النيل بجوار البستان المسمى بالمعشوق ، ويقال ان الذى عمره هو الصاحب بهاء الدين ابن حنا وكان وزيرا بالديار المصرية ت ٧٠٧هـ/١٣٠٨م وقيل انه « اشترى الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال بلغت ستين ألف درهم » وأودعها فى هذا المكان ، وصار الناس يقصدونها بسبب الزيارة كل يوم أربعاء(٣٥) ٠

وقال المقريزى : « وأدركنا لهذا الرباط بهجة وللناس فيه اجتماعات ولسكانه عدة منافع ممن يتردد اليه أيام كان ماء النيل تحته دائما » ٠٠

وكان من عادة بعض السلاطين الركوب اليها للزيارة ٠

ومن المتنزهات الجميلة وقتذاك ماعرف باسم الجزيرة الوسطى او جزيرة أروى أو بولاق ، حيث تقع تجاه بولاق(٣٦) ، وعرفت أيضا بالوسطانية وقد انحسر عنها ماء النيل سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م وكان بها قصور ودور للسكنى وطواحين وسواق ، ومناظر وبساتين، وقد أنشأت ابنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بها جامعا ، وكانت من أجمل متنزهات القاهرة ٠

وقد اهتم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بأنشاء البساتين والمتنزهات وأماكن اللهو ، حيث عمر القصور والخانقاه بناحية سرياقوس ٠

كما جعل هناك ميدانا كبيرا ، وحفر اليها خليجا من النيل ، لتمر فيه المراكب الى تلك الجهة ، عرف بالخليج الناصرى ـ سبقت الاشارة اليه ـ وانشئت هناك البساتين الجميلة وغرست فيها الأشجار، وسكن الناس على حافتى الخليج فيما بين المقس وساحل النيل ببولاق ، وصار هذا الخليج « مواطن أفراح ، ومنازل لهو ، ومغنى صبابات ، وملعب أتراب ومحمل أنس وقصف فى المراكب أو فيما عليه من الدور » وكان الناس يركبون فيه المراكب على سبيل اللهو والنزهة ، الى ان منعت المراكب منه ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ٠

واهتم السلطان الناصر أيضا بانشاء البساتين والحدائق فقد أنشأ بحوش القلعة الكبير حديقة ، نقل اليها الأشجار والرياحين

من سائر البلاد « حتى من بلاد الهند مثل جوز الهند والسنبل والقرنفل والكادى وغير ذلك من البساتين الشامية » .

كما أجرى اليها الماء من النيل الى القلعة بواسطة سواق نقالة لارتفاع مكان الحديقة ، واهتم ايضا بانشاء القصور بالقلعة التى استورد لها الرخام المشجر بالصدف والمرصع بفصوص الذهب ويقال انه أنشأ فيها محلات للحيوانات الغريبة وساحات للحيوانات الداجنة وكان من أبهج تلك القصور ، القصر الأبلق .

كما ان السلطان المؤيد شيخ أثناء سرحته الى البحيرة فى ذى القعدة سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م ، التى انتهى فيها الى مريوط التى اقام بها أربعة أيام ورسم بعمارة بستان السلطان بها حيث كان قد تهدم . كذلك أنشأ السلطان الأشرف قنصوه الغورى بستانا تحت القلعة والمتنزه العجيب بالملقة وحفر مجرى للماء من مصر الى القلعة ، كما اهتم بالقصور والمتنزهات ، قد شغف هذا السلطان بالحدائق والأزهار ، واتخاذ الأحواض والنافورات والسواقى النقالة ، كما شرع فى بناء بحرة فى ذلك البستان الذى أنشأه بالميدان وكان طول هذه البحرة نحوا من أربعين ذراعا أو أكثر ، كما بنى هناك عدة مقاعد ومناظر تطل على ذلك البستان .

وقد اشتمل هذا البستان على أنواع من الأزهار الغريبة منها مانقل من الشام ، فقد كان السلطان الغورى حريصا على الاستمتاع بذلك الى أقصى درجة ، حيث أعدت له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والابنوس وكان يفرش فوقها مقعدة مخمل بنطع ، ويجلس عليه تظلله فروع الياسمين وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه » .

بل كان يعلق فى الاشجار أقفاص الطيور ما بين هزارات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وغير ذلك ، وكان أيضا « يطلق

بين الأشجار دجاجا حبشيا وبطا صينيا وحجلا ٠٠ حتى صار هذا الميدان جنة على الارض » ٠

ولا غرو فى ذلك فقد وصف ابن اياس هذا السلطان بانه كان من دأبه « الركوب فى كل يوم والاشتغال برؤية التنزه والرياضات دائما » ٠

وكان من عادة السلاطين المماليك الخروج للنزهة فى مواضع متعددة خارج القاهرة كالاسكندرية والعباسة والفيوم وطرة وكذا تروجة وغيرها ٠

وعلى سبيل المثال فان السلطان الأشرف قايتباى سافر الى الفيوم أكثر من مرة على سبيل التنزه ، بدعوى من الأمير خاير بك من حديد ليرى البستان الذى أنشأه هناك ، وقد صحب السلطان معه عددا من الأمراء الأكابر ، والأمراء العشرات ، وعددا وافرا من الخاصكية « وأقام هناك أياما وهو فى أرغد عيش على سبيل التنزه ٠ كما سافر السلطان الغورى أيضا الى الفيوم وتكرر منه ذلك على سبيل التنزه ٠

والجدير بالذكر أن سلاطين المماليك – عند خروجهم للنزهة – كانوا يحرصون على الظهور بمظهر القوة والأبهة ، خاصة اذا كان السلطان يصطحب معه فى نزهاته واحدا أو أكثر من قصاده الأجانب ٠

وكانوا يصطحبون عددا كبيرا من الأمراء ، وكل من يتطلب الأمر حضورهم من أجل توفير الراحة للسلطان ومن معه ٠ فقد كانت تنصب خيمة كبيرة للسلطان ، تعرف بالمدورة أو الوطاق(٣٧) وكذا تقام خيام الأمراء ، وذلك فى العادة كان ضروريا ، خاصة اذا كانت تلك النزهة فى موضع بعيد ليس به مكان خاص لنزول

السلطان ، أو اذا استغرقت النزهة وقتا طويلا · وقيل أن أحد
اليمن قد أهدى الى السلطان الناصر حسن محمد بن قلاوون
غريبة الشكل ، بديعة الصنعة ، بها قاعة وحمام ، وكان يذ
فى نزهاته ، حتى صار الناس يذهبون للتفرج عليها ، وقد ا
اقامته بها ثلاثة أشهر كاملة وهو فى الجيزة بعد أن أناب م
يلبغا فى تصريف الأمور ·

ويبدو أن بعض السلاطين والمماليك كانوا – رغم حرصهم
اظهار العظمة أثناء التنزه – يتبسطون ، وينطلقون دون تـ
أو رسوم أثناء رحلاتهم الترويحية ، حتى ان السلطان الـ
عندما سافر الى الفيوم أول مرة – كما يقول ابن اياس –
وقعت منه أمور غريبة ، فقد بلغه من مصدر ثقة أن السلطان فـ
هذه السفرة فتكا زائدا ، كما أظهر أنواعا من العظمة ، وكان
الأسمطة الحافلة وكذا الطوارى الفاخرة بطول الطريق فى كل
أربع مرات ، « وكان السلطان يطوف على العسكر بالسكر فى
من السقايين ويسقيهم السكر بالطاسات ، وحكوا عنه أشياء
من هذا النمط ، وكانت هذه السفرة السابق الاشارة اليهـا
سبيل التنزه » ·

ويضيف ابن اياس انه شاهد موكب السلطان العائد من
السفرة ، عندما شق القاهرة الى القلعة فى احداث شهر ذى الـ
سنة ٩١٨ هـ ١٥١٢ م ·

اما بالنسبة لامراء المماليك فقد كانوا أيضا حريصين
الاستمتاع بالتنزه ، واقامة مواضع النزهة الخاصة بهم الى جـ
خروجهم مع السلطان لهذا الغرض ، فقد أنشأ الاتابكى بكتمر خـ
فى القرافة الصغرى « وانشأ بها حماما وفرنا وطاحونا وسـ

وجنينة وقرر بها صوفية وحضورا وجعل للصوفية خلاوى فى هذه الخانقاه يسكنون بها دائما » كما جعل فيها ربعة شريفة مكتوبة بالذهب ، بلغ مصروفها الف دينار وكانت بخط الأعاجم ٠

ويضيف ابن اياس قائلا : « ولم تزل هذه الربعة مقيمة بهذه الخانقاه والناس يتوجهون الى هذه الخانقاه بسبب الفرجة على هذه الربعة ، فانها كانت من محاسن الزمان » واستمر ذلك الى سنة تسع وتسعمائة حيث نقلها السلطان الأشرف قنصوه الغورى الى مدرسته التى فى الشرابشيين ٠

كما كان القاضى جمال الدين محمد بن عمر بن على الطنبدى ، المعروف بابن عرب الشافعى (ت ٨٤٦) يقضى أكثر وقته فى بستان له بجزيرة الفيل ٠

ويذكر ابن بطوطة أيضا أن بعض علماء مصر كان من عادتهم أن يذهبوا بعد صلاة العصر الى مواضع الفرج والنزهات ، وقد ينفرد بعضهم عن أصحابه أثناء ذلك ٠

وكان بعض الأمراء يلهون ولكن فى سترة ، كما كان يفعل تغرى بردى ابن عبد الله نائب الشام (ت ٨١٥هـ) الذى كان يلهو لكن فى سترة وحشمة وافضال ٠

وجدير بالذكر ان مواضع اللهو والتنزه لم تقتصر على الأماكن المعهودة والمخصصة لهذا الغرض ، بل ان الناس فى ذلك العصر قد اعتبروا القرافة مكانا للهو والتفريج عن النفس ، حتى انهم كانوا يخرجون اليها فى أيام المواسم والأعياد ، ومعهم الريحان والزهور ، ويصطحبون أولادهم ونساءهم وهناك يكثر الغناء والرقص واللهو وقد يبيتون هناك ٠

وقد عبر المقريزى عنها فقال انها « معظم مجتمعات أهل مصر واشهر متنزهاتهم » ..

وكثيرا ما كان السلطان ينزل ويبيت عادة فى تربة أبيه ، وكان ذلك يستتبع حدوث مساوىء لا ينبغى ذكرها ، حيث لم تكن القرافة فى ذلك العصر مجرد مكان لدفن الموتى ، وانما كانت مدينة صغيرة بها جميع مرافق الحياة الضرورية ، حتى وصفها البلوى المغربى بأنها « بلدة كبيرة قائمة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها » ..

ويبدو أن ذلك الحال من حيث التنزه وارتيـــاد المتنزهــات وأماكن الفرجة ، كان شائعا فى انحاء الدولة المملوكية ، ولم يكن ذلك مقصورا على أهل مصر فقط ، حيث يقول ابن بطوطة : « وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا ، انما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار بين البساتين النضرة والميـــاه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل » .. بالاضافة الى اهتمام أهل الشام ايضا بعمارة أماكن للنزهة والفرجة ، فعلى سبيل المثال فى شوال سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م شرع فى عمارة القبة وعمل المربع والحمام على ساقية نخيلة بظاهر حماة ، وقد فرغت العمارة فيها بعد حوالى ثلاثة شهور ، وجاء ذلك من أنزه الاماكن .

ويقول ابن عبد الظاهر ان السلطان المنصور قلاوون قد شارك بنفسه وبصحبته الأمراء والخواص وكثير من الناس فى اعادة حفر بركة قريبة من باب النصر بالكرك(٣٨) حتى حفـــرت ونظفت فى ثلاثة أيام .

وهكذا فعلى الرغم من المتاعب والأزمات التى تعرض لها عامة الناس فى عصر المماليك ، فان روح المرح والرغبة فى الترفيه والتسلية ظلت تسود حياة سكان المدن ، وخاصة المماليك الذيــن كانوا يعيشون عيشة الترف ، بينما كان معظم المصريين فى ذلك

الوقت يعملون فى زراعة الأرض ، ويدفعون الضرائب ، والى جانب ذلك كانوا يقومون بصنع ملابس المماليك الفاخرة ، وبناء عمائرهم فانهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من بعض المناصب الحكومية كالوظائف الدينية والقضاء ·

بل ان أحد السلاطين أمر بالنداء فى القاهرة « بأن فلاحا لايركب فرسا ، ولايشترى سلاحا ، ولاسيفا ولارمحا » وربما قصد بالفلاح كل من هو مصرى من غير المماليك ·

حقا لقد جمعت دولة سلاطين المماليك فى غالب وقتها بين القوة والترف عندما كان سلاطينها أقوياء ، على حين كانت تفقد ذلك خاصة فى فترات ضعف السلاطين وتولى السلاطين الأطفال أمور البلاد ، ولعل ذلك يتمشى مع قول ابن خلدون فى أن من طبيعة الملك الترف فيقول معللا ذلك « لأن الأمة اذا تغلبت وملكت مابأيدى أهل الملك قبلها ، كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته · ويذهبون الى اتباع من قبلهم فى عوائدهم وأحوالهم » ·

وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية فى تحصيلها ، وينزعون مع ذلك الى رقة الأحوال ويتفاخرون فى ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم فى أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره ويناغى خلفهم فى ذلك سلفهم الى آخر الدولة » ··

واذا حاولنا تطبيق رأى ابن خلدون هذا بالنسبة لدولة سلاطين المماليك فان ذلك يصبح متطابقا الى حد كبير لما كانت عليه هذه الدولة من أسباب القوة والترف ، فلا ريب فى أن ترف دولة المماليك ، وخاصة فى عصرها الأول قد زادها قوة على قوتها ، ولكنها عندما أخذت فى الهرم أخذت قوتها تتلاشى ، ولم تبق الدولة على حالها من القوة · حتى سقطت على أيدى العثمانيين ·

هوامش الفصل الثالث

(١) يقال ان الشاعر عدى بن زيد كان أول من لعب بالصولجان من العرب ، كما أن الخليفة العباس هارون الرشيد هو أول من لعبها من الخلفاء (انظر ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٣٤٨ ، ماجد ، العصر العباسى الاول ، ج١ ص ٢٤٥ ، ابراهيم الفحام ، مقال عن العاب الكرة عند العرب .)

(٢) والمعروف ان السلطان المعز ايبك قتل بواسطة بعض المماليك والخدام على يد زوجته شجرة الدر عقب عودته من لعب الكرة فى ذلك اليوم من ربيع أول سنة ٦٥٥ هـ

(٣) ذكر هذا الميدان باسماء متنوعة مثل : ميدان القلعة ، والميدان الاسود وقره ميدان ، ومكانه اليوم ميدان صلاح الدين ويقال له المنشية (انظر المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٢٢٨) .

(٤) القصر الابلق ، انشأه الناصر محمد فى شعبان سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م وانتهت عمارته سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م ، وقد اندثر هذا القصر ، وكان قائما فى الجهة الغربية من القلعة .

(٥) هما الاتابك فارس الدين أقطاى المستعرب والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين بن حنا .

(٦) هو السلطان قنصوه الغورى ، حيث ابتدأ بضرب الكرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الاول سنة ٩٢٠ هـ وكانت حالته الصحية ليست جيدة .

(٧) كان الاصطبل السلطانى ينقسم الى عدة أقسام هى :

الاسطبل الخاص ، وبه الخيول الخاصة بالسلطان التى تسير فى المواكب ، واصطبل الحجورة ، وبه الخيول الخاصة بلعبة الاكرة أو

الرياضة ، واصطبل الجوق ، وبه خيول المماليك التابعين للسلطان ، واصطبل البيمارستان وبه الخيول الضعيفة ، واصطبل الجشاء ، وبه الخيول المهرمة التى حان أجلها ، واصطبل البريد ، وبه خيل البريد ، واصطبل البغـــال . واصطبل السباع . واصطبل الفيلة ، كما كان يتبع الاصطبلات الســـلطانية « المناخات » وهى الامكنة المخصصة لانواع الجمال السلطانية ومنها مناخ الجمال النجاتى ومناخ الهجن والنياق ٠ (انظر ، على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، ص ١٦٧ ، جمال الغيطانى ، ملامح القاهرة فى الف عام ، القاهرة ١٩٨٣ ، سلسلة الهلال ، ص ٤٦ ، ٤٧) ٠

(٨) وصف القلشندى هيئة السلطان فى المركوب لصلاة العيدين بقوله : « أما صلاة العيدين ، فعادته أن يركب من باب قصره وينزل من منفذه من الاصطبل الى الميدان الملاصق له ، وقد ضرب له فيــه دهليز على اكمــل مايكون من الهيئة ويحضر خطيب جامع القلعة الى الميدان فيصلى به العيد ويخطب ، فاذا فرغ من سماع الخطبة ركب وخرج من باب الميدان والامراء والمماليك يمشون حوله ويطلع من باب الاصطبل ويطلع الى الديوان الكبير حيث يمد السماط » (القلقشندى صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ٣٦) ٠

(٩)

حـــويت بطشـــا واحسانا ومعرفة   وليس يحمـــل هـــذا كلـــه الفـــرس

(١٠) من المعروف ان لعبة الكرة من فوق ظهور الخيل فى عصـــر المماليك هى التى تعرف اليوم باسم البولو Polo وتقام لها مباريات دولية الآن ، حتى ان الليدى ديانا سبنسر تطلب من زوجها الامير تشارلز ولى عهد بريطانيا أن يعتزل هذه اللعبة لاحتمال تعرضـــه للخطر (جريدة الجمهورية العدد (١٠١١٣) بتاريخ ٦ سبتمبر ١٩٨١) ٠

(١١) يقول

ياحسنها كرة كالنجـــم ســـائرة   قـــد طـــال ترددادها بـــين الجواكين

تفـــرق الهـــم اذ كانـــت مؤلفـــة   بين القلـــوب بآراء الســـلاطـــين

لجبرهـــم لقلوب الجند اذ لعبوا   مع الملوك وهـــم بعض المســـاكين

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٩٣) ٠

وان كنا لانعرف لمن تنسب هذه الابيات ، فقد قال الشاعر الدهان ملغزا فى الكرة :

ومضروب لـه جـرم بلا جـرم ولا ذنب
يعاقب وهو من كرم السجـ ـية طيب القلب
(انظر ابن حجر ، الدرر ، ج٢ ، ص ٧٩) .

(١٢) المنصورية بيت كاتب السر ناصر الدين بن البارزى ، وكان يقع بشاطىء النيل ببولاق .

(١٣) الحراقة الذهبية جمعها حراقات وحراريق ، نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الاسلحة النارية (كالنار الاغريقية) وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو ، كما استخدم نوع منها للاستعراضات التى تقام فى الحفلات العامة .

(١٤) وكانت توجد أسواق اخرى مهمة تتصل بالخيل والسباق ولوازمهما وتعتبر مكملة لسوق الخيل منها : سوق المهمازيين لبيع المهاميز ، وسوق اللجميين لتباع فيه الات اللجم ، وسوق الجوخيين فكان مخصصا لبيع الجوخ المستورد لتصنع منه ثياب السروج .

(١٥) فعلى سبيل المثال فقد قدم فى رمضان من سنة ٧٧٧ هـ الامير بيدمر نائب الشام ومعه هدية السلطان الاشرف شعبان لم يعهد مثلها لنائب قبله ، منها مائتان وخمسون فرسا ، كما أهدى لجميع الامراء والاعيان عدة هدايا ، ونزل بالميدان الكبير على النيل ...
(انظر ، المقريزى ، السلوك ، ج٣ ق١ ، ص ٢٥٦) .

(١٦) يقصد بالتبريز هنا المبارزة ، فقد ذكر الصيرفى عند حديثه عن هذه الواقعة ما نصه « وعندما تبارزوا للمرة الثالثة ... » (انظر نزهة النفوس والابدان ، ج١ ، ص ١٩٢ ، المقريزى ، السلوك ، ج٣ ق٢ ، ص ٥١٦ ، حاشية ١) .

(١٧) هو السلطان ابو سعيد بهادر خان بن خدا بندا ، اخر ملوك بنى هولاكو ، ملك ايران .

(١٨) ابن حجر ، الدرر ، ج٢ ، ص ٤ ، وقد ذكر ان مصروف الحظير بلغ سبعة الاف درهم فقط .

(١٩) يقول :
ايها العاقل اللبيب تفكر فى المليك المظفر الضرغام
قد تمادى فى البغى والبغى حتى كان لعب الحمام جد الحمام

(٢٠) يقول ٠

ديكى صـباح مـن الهنـود حـذار مـن بأسـه الشـديد
أن كان منقـاره (قصـيرا) فـان كفيـه مـن حديـد
كأنمـا عـرفه عقيـق يـرى على وردة الخـدود
لـه اذا هاجـه نقـار من خصـمه وثبـة الاسـود

(٢١) يقول :

أهـلا وسـهلا بطلعـة الديـك كأنـه عـروة الصـعاليك
أتـى بتـاج كأنـه ملـك بيـن دجاج مثـل المماليـك
بطيلسان مثـل الحرير مـع التبر علـى منكبيـه محبـوك
رأيتـه اذ يشـير مـن تيهـه كأنـه الصـالح بـن زريـك

(٢٢) ابن بطوطه ، رحلة ، ص ٤ وجاء فى القرآن الكريم (٠٠ فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى) سورة القصص اية رقم ٧ واليم هو البحر ٠

(٢٣) الغراب ، مفرد أغربة ، وهى نوع من السفن الحربية التى كانت تستعمل فى العادة فى البحر الابيض المتوسط منذ أيام الامبراطورية الرومانية والارجح ان هذا النوع من السفن سمى بهذا الاسم نظرا لمشابهته لهذا الطائر من حيث السواد لطلائها بالقار والزفت ، كذلك لاستواء مناقيرها ٠

(انظر ، الخطيب الجوهرى ، نزهة النفوس والابدان ، ج٣ ، ص ٧٢) ٠

(٢٤) الخليج الناصرى ، عندما انشأ السلطان الناصر محمد بن قلاوون الخانقاة بسرياقوس ، أمر بحفر هذا الخليج سنة ٧٢٥هـ لتوصيل الماء اليها ٠
(انظر ، محمد حمد المنادى ، نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٣٣) ٠

(٢٥) الخور ، هو مصب الماء فى البحر ، وكان خليج فم الخور يخرج من النيل ويصب فى الخليج الناصرى ليقوى جرى الماء فيه ، وكانت على خليج فم الخور قنطرة هى المشار اليها (المقريزى ، السلوك ، ج٣ ق١ ، ص ٣٥٧ حاشية ١) ٠

(٢٦) ومنها

لم يسمح الدهر فيما جاد من فرج كليلة سمحت للاشرف الغـورى
فان ترد وصفها أنشدت مرتجـلا فى وقدة الليل بالاملاك والـدور

من بر مصر ومقياس يقابله كان التقابل بين النور والنور
حاكت مصابيحها ضوء النجوم اذا ما أزهرت بالدجى فى ليل ديجور

(٢٧) منظرة الخمس وجوه ، أنشأه الأفضل بن أمير الجبرشى ، وكان بها خمسة أوجه من المحال الخشب التى تنقل الماء لسقى البستان المعظيم الوصف .

(انظر . المقريزى . السلوك ، ج٤ ق١ . ص ٥٢٦ ، حاشية ١) .

(٢٨) المقس ، قرية كانت على النيل ، وموقعها اليوم جامع أولاد عنان وشارع الجمهورية وحديقة الازبكية .

(٢٩) والمناظر جمع منظرة وهى دور بناها الخلفاء الفاطميون فى القاهرة والفسطاط والروضة والقرافة للنزهة والاشراف على الاحتفالات وتوديع الحملات الحربية (انظر ابن سعيد ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٥) .

قال فيها صاحب النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة .

سقى الله أرضا كلما زرت روضتها كساها وحلاها بزينته القرط
تجلت عروسا والمياه عقودها وفى كل قطر من جوانبها قرط

(٣١) ابن بطوطه ، رحلة ، طبعة القاهرة ١٩٣٨ ، ج١ ، ص ٢٠ ، طبعة القاهرة ١٩٦٤ ، ج١ ، ص ٢٠ ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ص ٣٢ ، ٣٣ وقد لوحظ ان طبعة بيروت قد خلت فى هذه الفقرة من عبارة « واهل مصر ذوو طرب وسرور ونخشى أن يكون هذا الاغفال متعمدا من جانب ناشرى الكتاب والا يكن ذلك اغفالا لما يتطلبه البحث العلمى من أمانة بغض النظر عن هوية مصدره .

(٣٠) قال فيها ابن سعيد :

انظر الى بركة الفيل التى اكتنفت بها المناظر كالاهداب للبصر
كانما هى والابصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر

وقد استهواه منظرها حين تشرف عليها الشمس فقال ايضا :

انظر الى بركة الفيل التى نحرت لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك مجفونا ببهجتها تهيم وجدا وحبا فى بدائعها

(انظر ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٤٥ ، ابن سعيد ، النجوم الزاهرة ص ٢٧) .

(٣٢) هذا من وصف القاضى علاء الدين بن النابلسى فى كتابه « حسن السريرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » (انظر ابن دقماق ، الانتصار ، ص ١١٧) ٠

(٣٣) وقيل :

يريم جيزة حلاوى صنعة الخلاق — خلى دموعى خطيرى بحر فى اطلاق
لو لقط مقياس منية طيب الاخلاق — وخد روضة وخالوا المشتهى بولاق

(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص ٥٨) ٠

وكوم الريش كانت من اجمل متنزهات القاهرة ومكانها اليوم هى الزاوية الحمراء (انظر بحث لجنة التاريخ بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب ــ المؤرخ ابن تغرى بردى القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٧٣ ، حاشية ٣) ٠

(٣٤) قال الشاعر : ابراهيم المعمار :

ياطالب التكة نلت المنى — وفزت منها ببلوغ الوتر
قنطرة من فوقها تكة — وتحتها تلقى خليج الذكر

(انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص ٥٩) ٠

(٣٥) وقد زار المؤرخ ابن ظهيرة وراها وهى عبارة عن مرود ومخضب وقطعة من الفضة ، وضم اليها اشياء من آثار الاولياء ٠ والمخضب ، الاجانة تغسل فيها الثياب وخرقة الخضاب ٠

(انظر ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ١٩٤ ، حاشية ٦) ٠

(٣٦) الجزيرة الوسطى ، هى الآن جزيرة الزمالك أو جزيرة المعرض ، وما زالت من أحسن المواقع للسكن أو التنزه (انظر ، ابحاث لجنة التاريخ بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب ، القاهرة ١٩٧٤ ، المؤرخ ابن تغرى بردى ص ١٧٤ ، حاشية ٢ ، عبد الرحمن زكى . القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٢٣ ، حاشية ٢) ٠

(٣٧) وطاق ، اصل أوتاق بالتركية موقد النار ، وتقال على الدار والمخيم (انظر عبد الوهاب عزام ، مجالس السلطان الغورى ــ القاهرة) ٠

(٣٨) تعرف بكرك الشويك ، وهى مدينة محدثة البناء ، وكانت ديرا يتديره رهبان ، ثم كثروا فكبروا بناءه ٠٠ (انظر ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام ، القاهرة ١٩٦١ ، ج٢ ، ص ١٣٨) ٠

* * *

الباب الثالث

الألعاب المنزلية أو الهادئة

الفصل الأول

النرد والشطرنج

لعبـة النـرد :

أصل النرد ـ النرد فى اللغة ـ أساس لعبة النرد النرد فى الاسلام ـ النرد فى عصر سلاطين المماليك ، النرد عند الشعراء فى العصر المملوكى ٠

لعبة الشطرنج :

الشطرنج وصفتها ـ تطور الشـــطرنج على ايـــدى الفرس والروم ـ الشطرنج فى الاسلام ـ الشطرنج عند سلاطين المماليك ـ الشطرنج عند شـعراء المماليـــك ـ اداب اللعـب بالشـــطرنج ـ الشطرنج لغة ـ اثـر الشـــطرنج العربى على الشطرنج الأوربـى الحديث ٠

* * *

كانت لعبة النرد من وسائل الترفيه التى انتشــرت فى عصر سلاطين المماليك ٠ وهى لعبة فارسية الأصل(١) ٠ وهى المعروفة باسم الطاولة وهذه اللعبة كان يمارسها العامة والخاصة فى ذلك العصر فكان الأمراء ورجال الأدب والشعراء يهوون لعب النرد ٠

وتعرف تلك اللعبة بنرد شير نسبة الى أرد شير بن بابك الذى وضعها ، ولاشك أن المسلمين قد اخذوها عن غيرهم من الشعوب التى احتكوا بها بعد الاسلام ، ويعتبرها البعض من الألعاب الهادئة لانها كانت تجرى والقوم جلوس ، بعضهم الى جـانب بعض على

النقيض من عادات العرب ، اذ أن العربى القح كان يشعر بما فى ذلك من غرابة عن طباعه ومألوف عاداته ٠

ولعبة النرد تعتمد على الحظ ، ويستعمل فيها ثلاثون حجرا وفصان ، على رقعة رسم عليها اثنا عشر منزلا ، وتكون فى بعض الأحيان أربعة وعشرين منزلا ٠

وقد أقبل على النرد كثير من الحكام على مر العصور ، فقيل ان هارون الرشيد قدم اللاعبين به وأجرى عليهم الأرزاق ٠

وقد شاعت لعبة النرد فى المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك واقبل عليها العامة والخاصة ، فقد كان لها اغراء كبير الى جانب لعبة الشطرنج واغراء هذه اللعبة لمن يلعبها قد يصرفه عن كل شيء حتى عن أداء الفروض الدينية ، فنرى فى العصر المملوكى الشاعر الحكيم ابن دانيال يصف اغراء هذه اللعبة فى عصره واقبال الناس عليها(٢) ٠

والى جانب لعبة النرد انتشرت كذلك فى عصر سلاطين المماليك لعبة الشطرنج وهى من الألعاب الهادئة التى وضعها حكماء الهند عندما افتخر الفرس بوضعهم النرد ، فناظرهم أهل الهند بوضع الشطرنج ومافيه من التدبير ، حيث رسموا لها رقعة مربعة تتألف من ثمانى خانات طولا وعرضا ورسموا عليها أربعة وستين مربعا بالتساوى ، كما جعلوا فيها ثمانى قطع ومثلها من البيادق وطليت بلونين من طرفيها واجلسوا الملك والوزير فى القلب وأوقفوا فيلين على الميمنة والميسرة وجعلوا بجانب الفيلين حصانين من الجانبين ، كما جعلوا الرخين فى الزاويتين ، وصفوا أمامهم صفا من العساكر ، وعلى هذا النحو يستعد الجانبان للمباراة ٠

وقد كان الحجاج يتسلون بالشطرنج وهــم فى طريقهم الى الحج على ظهور الشقاديف كما شاع اللعب بالشطرنج ايام الدولة الفاطمية فى مصر حتى ان الخليفة الحاكم بأمر الله أمر بمنــع اللعب بالشطرنج ، وصادر رقاع الشطرنج فجمع منها أعدادا كبيرة وأحرقها ·

وأقبل سلاطين المماليك على الشطرنج وعلى اللعب مع المقربين اليهم من الأمراء والعلماء والأدباء ، كما حرص بعضهم اذا خرج فى أسفاره ، أن يحمل معه كمية ضخمة من العاج برسم خرط الشطرنج حتى اذا لعب السلطان بشطرنج مرة أخذه بعد ذلك أرباب النوبة وجدد غيره للسلطان ·

وقد جرت العادة أيضا بأن تصنع أدوات الشطرنج من سائر أنواع الجوهر والذهب ، والفضة والأبنوس برقاع الحرير المذهب · كما صنعت من البللور الصخرى(٣) لذا كان من الطبيعى أن نعتبر لعبة الشطرنج من الألعاب الارستقراطية الخاصة بالملوك والأمراء ، لا الفقراء والأراذل ورغم هذا فقد شــاع الشــطرنج بين مختلف الطبقات حيث لعبه السلاطين والأمراء ، والتجار والفقهاء وغيرهم ·

وقد جرت العادة كذلك فى عصر سلاطين المماليك أن يشتمل شوار العروس على الشطرنج ، أو كان يهــدى الى العروسين · تخفيفا عنهما فى نفقات الزواج ·

وقد بلغ من انتشار لعبة الشطرنج وكلف الناس بها الى الحد الذى جعل بعض الأشخاص ينسبون اليه ، كما صنفت فى هذه اللعبة وقواعدها العديد من المؤلفات والرسائل خاصة فى عصر سلاطين المماليك ·

وقد تفنن اللاعبون فى ابتداع أساليب اللعب بالشـــطرنج ، فكان من أصحاب البطولة فيه من يدير ظهره الى الرقعة ، ويأمر بنقل القطع بالاشارة ، ولعل من هؤلاء شرف الدين عيسى بن حجاج السعدى المصرى (ت سنة ٨٠٧هـ/١٣٨٥م) الذى عـرف بعيسى العالية وسمى بذلك لأنه « كان عالية فى لعب الشطرنج ، وكان يلعب به استدبارا » • وهذه براعة لم يبلغها غير القليلين من الشطرنجيين حتى فى العصر الحديث •

بل بلغ من تفوق لاعبى الشطرنج فى ذلك العصر أن أحدا منهم هو على ابن قيران التركى الأعمى الشطرنجى الذى ذكره الصفدى فى شرح لامية العجم حيث رآه بالقاهرة سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م يلعب مع أقوام ويحطهم ويغلبهم ، بل كان يتحدث مع الموجودين ويشاركهم فى جميع ماهم فيه ، ولايغيب عنه شىء مما هو فيه وقد ذاع صيته بالقاهرة فى هذا المجال •

وكان الشطرنج من أهم وسائل التسلية التى يتسلى بها أرباب النوبة وهم حرس السلطان حيث كانت تخـرج لهـم المصـــاحف لقراءة القرآن الكريم وكذا الشطرنج ليتشاغلوا به عن النوم حتى يأتى ميعاد نوبتهم مرة أخرى كذلك بلغت درجة قربهم من السلطان مبلغا كبيرا حتى انهم كانوا يدخلون عليه بدون استئذان •

وقد كان الأمير خشقدم « مدمنا للعب الشطرنج فى الليـل والنهار » والجدير بالذكر ان السلطان حسام الدين لاجين قد قتل وهو منكب على لعب الشطرنج فى احدى ليالى رمضان سنة ٦٩٨هـ /١٢٩٩م ، وقيل انه قتل وهو ينهض للصلاة بعد ان لعب الشطرنج •

كما كان السلطان الغورى يجالس أصحاب الحظوة عنده ، بل كان يجلسهم معه على المرتبة ويلاعبهم الشطرنج وكان يتعرف

من هؤلاء الجلساء على الكثير مما كانوا ينقلونه له من أخبار الناس ٠

وكانت بعض الهدايا الى السلاطين تحتوى على شطرنج ففى ربيع الأول سنة ٧٩٩هـ/١٤٧م اهدى الملك الأشرف عهد الدين اسماعيل بن الأفضل عباس بن رسول متملك اليمن الى السلطان الملك الظاهر أبى سعيد برقوق ، شطرنجا من العقيق الأبيض والأحمر ٠

ولم يكن الأمر مقصورا على الملوك السلاطين والأمراء بل كان كذلك القضاة والعلماء يلعبون الشطرنج ويقبلون عليه ، فقد ورد عن بعضهم أنه كان « غالية فى الشطرنج بالغائب مشاركا فى عدة فنون » ٠

كما كان بعضهم يجيد لعب الشطرنج حتى وصف بانه نافذ الفكر يفوق جميع اقرانه فى هذا الشأن مع صرف غالب زمانه فى لعب الشطرنج ٠ بل كان منهم من يجيد اللعب بالشطرنج ويديمه حتى فى أوقات اعتكافه » ومنهم ايضا من كان « يعرف النرد والشطرنج ويلعب يوما جيدا فى حالة واحدة دائما مدى الايام » ٠

ورغم ذلك فانه جاء فى الوصايا الموجهة الى السلطان المؤيد شيخ « انه » لا ينبغى ان يواظب على لعب الشطرنج والنرد ونحوهما فان المواظبة على هذه الاشياء تشغله عن النظر فى أمر الولاية ، فيتطرق الخلل فى أمور المملكة » ٠

كما قيل ان القاضى ابن دقيق العيد قد لعب الشطرنج فى صباه مع زوج اخته الشيخ تقى الدين بن الشيخ ضياء الدين ، فأذن بالعشاء فقاما فصليا ، ثم قال الشيخ : نعود ، فقال صهره : « ان عادت العقرب عدنا لها ، فلم يعد يلعبها ٠

وقد حظيت لعبة الشطرنج — كما حظيت النرد — باهتمام الأدباء والشعراء فقد نظم بعضهم بعض القطعات الشعرية فى

فى وصفها وبيان فنها ، فنجد بدر الدين بن الصاحب يصف مهارته فى لعبة الشطرنج حتى انه اتقن حفظها وصار بامكانه أن يلعبها دونما نظر الى رقعتها (٤) ٠

وكان الأديب الشاعر المشهور ، برهان القيراطى (ت ٧٨١هـ) قد نظم شعرا فى الشطرنج (٥) ٠

اما ابن نباتة (٦) (ت ٧٦٨هـ) فيرى فى رقعة الشطرنج ميدانا لاجالة الفكر ، فهى حديقة زاخرة بالجنى (٧) ٠

وفى قول آخر ينزع الى التأمل يرى فى لعبة الشطرنج شبها من الدنيا وحالها ، وما يعود منها على الانسان ليلا ونهارا من بؤس ونعيم ، ثم تفنى فى النهاية ولا يبقى الا الخالق (٨) ٠

وهكذا يفهم من المراجع المعاصرة ان لعبة الشطرنج ظلت ذات شأن كبير فى عصر المماليك ، وفضلا عن أن الشطرنج لعبة رياضية عقلية فهو مرآة لأفكار الناس ونفوسهم ، فهو يظهر الميول والطبائع لينصلح ما بها من نقص علاوة على انه لعب اجتماعى يسوده الهدوء والكمال ، لذا تجدر الاشارة الى بعض اداب هذه اللعبة ، منها ألا يبخس اللاعب خصمه اذا أتى بلعبة جيدة وألا يأتى بحركات مشوشة وان يتجنب ردىء الكلام ٠

هذا وقد اختلفت المراجع الحديثة فى أصل تسمية الشطرنج بهذا الاسم (٩) ٠ وأيا كان معنى الاسم فمن الصحيح ولا ريب أن لعبة الشطرنج وكذا كل لعبة بين فريقين متنافسين هى فى طريقتها وغايتها لعبة حرب أو لعبة مقاومة متبادلة يستعد لها كل فريق كما يستعد للانتصار على خصمه ويتخذ لها العدة من جميع قواه الفكرية والخلقية ، ويسأل فيها عن أساليب خصمه كما يسأل القائد عن أساليب القائد الذى يناجزه ٠

هوامش الفصل الأول

(١) والنرد لغة اسم اعجمى معرب . وشير بمعنى حلو ، كما عرفت بالكوبة فقيل ان الكوبة هى النرد فى كلام أهل اليمن ، وقيل ايضا ان الكوبة هى الطبل والنرد ٠

(٢) ومما قاله ابن دانيال فى ذلك .

وللبنج فعل البنج فى اللب مابدا	والهاك عن صوم الفريصة الفطر
وكالخال نقش «اليك» يسبيك لونه	فانت به صب الفؤاد مدى الدهر
تروقك من شفع ووتر نقوشها	وتلهيك مالاحت عن الشفع والوتر

(٣) تشير المراجع الى وجود بعض القطع ضمن مجموعة الكونتس دى بهاج فى باريس تنسب الى اواخر العصر الفاطمى (انظر ، زكى حسن ، كنور الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٩٣) ٠

(٤) ابن حجر . الدور الكامنة ، جا ص ٢٤٨ ٠

قال فى ذلك

لى فى الشطرنج علم	اتقن الادمان حفظه
العب الغائب منها	فاراه طيقا يقظه

ويرى انها لعبة أهل العقل والفكر ، وان كان ينكر مايراه من سلوك بعض لاعبيها :

اميل الشطرنح أهل النهى	واسلوه من ناقل الباطل
وكم لى اهذب لعابها	ويابى الطباع على الناقل

ولعل من أطرف ما قاله الشعراء فى وصف الشطرنج ما قاله ابن الرومى حيث قال :

أرض مربعة حمراء من أدم	ما بين شخصين موصوفين بالكرم

تذاكرا الحرب فاحتالا لها شبها من غير أن يعبثا فيها بسفك دم

هو على بن العباس بن جريج (انظر ترجمته فى ابن خلكان فى حرف العين) وجير بالذكر ان البعض قد نسب هذه الابيات الى شاعر يدعى على بن الجهم وان كنا نرجح انها لابن الرومى (انظر ، احمد نجم واخر ، أصول الشطرنج الاسكندرية ١٩٥٩ ، ص ٩) .

(٥) يقول :

انظر الى شطرنج قد بددت من فوقه الشامات قبل النقط
صحت به نسخة حسن لمن قد راحت الارواح فيها غلط

(٦) ابن نباته : هو جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن الحسن المعروف بابن نباتة المصرى ، الاديب الشاعر ولد سنة ٦٧٦ هـ وتوفى سنة ٧٦٨ هـ .

(٧) يقول .

لعبت فى الشطرنج فى غاية تقصر الاوصاف عن حدها
ان صاح فى الاقران لى بيدق تموت منه الشاة فى جلدها

(٨) حيث يقول :

تأمل تر الشطرنج كالدهر دولة نهارا وليلا ثم بؤسا وانعما
محركها باق وتفنى جميعها وبعد الفنا تحيا وتبعث اعظما

وقال شاعرا آخر كان من اكابر الامراء فى لاعب شطرنج كان يلاعبه :

لعبت بالشطرنج على شادية رشاقة الاغصان من قده
احل عقد البند من خصره والثم الشادات من خده

(انظر ، ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة جـ٧ ، ص ٦٤ ، ٦٥) .

(٩) قيل انها لفظة عربية مشتقة من الفارسية ، الكلمتان هما « شيش رنك » بمعنى ستة الوان او اشكال ومراتب ، وقيل انهما مأخوذة من « شاه رنج » بمعنى هم الملك أو مشاغله ، او من « شدرنج » أى من اشتغل به ذهب عناؤه او من شط رنج أى « ساحل المعتب » .

(انظر احمد تيمور ، لعب العرب ص ٣٥ ، العقاد ، مقال عن الشطرنج مجلة الاذاعة والتليفزيون سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ١٢ ، ١٣) .

بل يذهب البعض الى ان كلمة شطرنج ماخوذة من كالمة « شاتورانجا » الهندية ومعناها لعبة الحرب « انظر مورى ، تاريخ الشطرنج) .

— H.Y.R. Murray, A. History of Chess, Oxford, 1913.

الفصـــل الثاني

ألعاب الورق وألعاب الأطفال

اهمية اللعب ـ مضمون الالعاب الهادئة ـ العاب الورق عند المماليك العاب الاطفال عند المماليك ـ مشاركة الاطفال فى المناسبات العامة والدينية ـ المتنزهات فى حياة الاطفـــال ـ السباحة عند الاطفال ٠

الاطفال وقسوة الحياة ـ تعليم الاطفال وتأديبهم ـ جلـــب المماليك أطفالا وتعليمهم الطباق ـــ الألعاب التدريبية عند الاطفال المماليك ـ تولى السلاطين الاطفال حكم البلاد ـ انصـــرافهم الى اللهو والطيش واللعب ٠

* * *

وهناك بعض الألعاب التى تهدف فى المقام الأول الى التسلية والترفيه يطلق عليها الالعاب الهادئة ، وهى التى تتميز بقلة أو بعدم متطلباتها الحركية ٠ لعل من امثلتها العاب الورق ٠

ان العاب الورق فى عصر المماليك ليس لدينا عنهـا الكثير خاصة ان المصادر المعاصرة وغيرها من الكتب المملوكية القديمة ، خاصة تلك التى بين ايدينا ، لم تتعرض لهذه الالعاب فى شىء من التفصيل ، وان كان لاريب فى أن لعبة الورق على أية صورة ، قـد وجدت بين الناس فى ذلك العصر فلدينا ما ذكره الادفوى فى عصر متأخر ، اثناء ترجمته لمحمد بن اسماعيل فتح الدين السبنطى(١) ، فقد أشار الى لعبة بالورق كان يلعبها الشباب ، وان لـــم يذكـر اسمها(٢) ٠

وجدير بالذكر ان الادفوى قد ساق ذلك ليدلل على أن صاحب الترجمة كان لا يعرف المزاح ٠

كما أن العاب الأطفال يمكن أن تندرج تحت ذلك النوع من الألعاب التى تهدف الى الترفيه وتمضية الوقت فى مقامها الأول ، خاصة تلك الألعاب التى يمارسها الاطفال دونما تخطيط أو اعداد مسبق لها ، وان كانت تلك الألعاب التى سيأتى الحديث عنها فيما بعد ، تكون فى الغالب العابا حركية تستلزم نوعا من النشاط والحركة ، مما يتناسب مع طبيعة تكوين لاعبيها ، ولكن السمة المشتركة بينها تكمن فى أن ممارستها تكون لمجرد اللعب والترفيه ٠

وعن العاب الأطفال فى عصر المماليك فاننا نجد انفسنا أمام فئتين منهم ، الفئة الأولى وهى الأهم ، وتشمل أطفال العامة أى عامة الشعب من المصريين ، وهؤلاء فى الحقيقة لم يقع تحت ايدينا من العابهم شىء كثير من خلال مصادرنا الا القدر اليسير ، الذى تمثل فى مشاركتهم الضمنية فى بعض ما كان يجرى حولهم من احتفالات ومناسبات عامة سوف نعرض لها فيما بعد ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الكبار ٠

اما الفئة الثانية فنعني بها صغار المماليك ، وهؤلاء كان لهم نظام خاص فى تربيتهم فى الطباق ، فكانت العابهم العابا تدريبية وليست العابا حرة ، حيث لم نقف لهم على العاب مارسوها الا كوسيلة لتدريبهم عسكريا بما يتمشى مع النظام المملوكى القائم كدولة حربية ، ولكننا نجد فى نفس الوقت ان بعض الأطفال المماليك الذين قدر لهم أن يعتلوا العرش ويصبحوا سلاطين على البلاد ، تجدهم يمارسون كثيرا من الألعاب التى ارتبطت غالبا بالطيش لاجتماع حداثة السن والسلطة فى آن واحد ، وان كان ذلك في

الغالب لم يستمر طويلا حيث كان الأمراء والأكابر يستولون على الحكم مستغلين ضعف هؤلاء السلاطين الأطفال ، وسنعرض لذلك بشيء من التفصيل فيما بعد ٠

أما عن أطفال العامة فاننا لا نشك في ممارستهم لبعض الألعاب العادية التي وجدت في ذلك العصر ، شأنهم في ذلك شأن كل الاطفال في كل عصر وكل مكان ، وان كان ليس هناك شك كذلك في ان فرصتهم في مجال الألعاب ، كانت ضئيلة ومحدودة ، بسبب تلك الظروف الصعبة التي عاشتها البلاد ، والازمات التي تعرضت لها في ذلك العصر من آن لاخر فلابد أن ذلك قد ترك ظلا ثقيلا على الحياة بشكل عام وعلى حياة الأطفال بصفة خاصة ٠

ويتمثل ذلك في اغاني اللعب ، ومشاهدة عروض خيال الظل وباباته وكذلك غيرها من النصوص الموضوعة بغرض الترفيه والامتاع فانها تحمل قدرا لاغنى عنه من المعلومات الخاصة بالبيئة ، ومسالك أهلها في حياتهم اليومية ، ذلك ان هذه النماذج تعتبر نوعا من الوثائق النفسية والاجتماعية ، هذا فضلا عن انها تعتبر شواهد دالة على اسلوب العامة ــ ومنهم الاطفال ــ في تمضية أوقات الفراغ ٠

وكما سبقت الاشارة فان معظم العاب الاطفال كانت مشاركة في المناسبات العامة والدينية وما يصحبها عادة من مظاهر الاحتفال والسرور ، فعلى سبيل المثال كان في يوم النوروز(٣) يلعب الطلبة وهم طلاب العلم ونظنهم من الاطفال حيث كانت لهم مشاركة في ذلك ، ففي اثناء الاحتفال بهذه المناسبة كان الطلبة يلعبون ويبتلون بالماء ، بل بلغ بهم اللهو ان طلبوا من معلمهم وهو الشيخ بهاء الدين القفطي الخروج اليهم وموافقتهم فامتنع عن ذلك ، واشتغل

بمسألة كان يعكف عليها فاخذوا يصبون الماء حتى خشى أن يصل الماء اليه(٤) ٠

وهناك اشارة الى ان القاضى كمال الدين محمد بن على الظاهرى كان فى صباه يلعب بالحمام فى الريدانية(٥) شأنه فى ذلك شأن بعض السلاطين الأطفال كما سيرد فيما بعد الا انه ترك لعب الحمام واشتغل بالقراءة والعلم حتى تولى مشيخة الاسلام وهى قضاء القضاة ٠

واشتهرت الحياة فى المدن فى عصر المماليك بالحفلات الصاخبة ، وكان منها ما هو خاص عائلى ، ومنها ما هو عام شعبى ، ولعل اشهر الحفلات العائلية حفلات الزواج ، والحفلات الخاصة بالولادة ـ وبخاصة اذا كان المولود ذكرا ـ وحفلات العقيقة(٦) التى بلغ المصروف عليها أحيانا خمسة عشر الف دينار وكذلك حفلات ختان الاطفال ، فكانت مناسبات يشارك الناس بعضهم بعضا فى احيائها ٠

ومما لاشك فيه فان هذه المناسبات العائلية كانت فرصة طيبة لانطلاق الاطفال للعب والمشاركة فيها بصورة أو بأخرى ، ففى سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م رسم السلطان الظاهر بيبرس للامراء والجند والرعية ان كل من كان له ولد فليطلع به الى القلعة حتى يختتن مع ابن السلطان (السعيد محمد) فأحضر الناس أولادهم ، وبلغ عددهم نحو ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين ولدا ، عدا أولاد الأمراء والأعيان ، فرسم لكل واحد منهم بكسوة على قدر مقام أبيه كما رسم لكل من أولاد العامة بكسوة ، ومائة درهم ورأس غنم ، واستمر المهم(٧) فى القلعة سبعة أيام ٠

وتلك صورة واضحة من مشاركة اطفال العامة ، اطفال السلاطين فى احتفالاتهم ، وان كان لكل منهم مكانته وقدره ولاشك

ان عامة الناس كانوا كذلك يقيمون حفلات خاصة بختان أطفالهم ، وكان يصحب ذلك فرح ومشاركة لكل الأطفال ·

أما عن مشاركة الاطفال فى الاحتفالات الشعبية العامة فقد تمثل ذلك فى الاحتفال بالمولد النبوى الشـــريف وموالد الاولياء الصالحين ، فقد كان من المعتاد ان يقيم الســـلطان خيمة المولـد بالقلعة ، وتملأ الأحواض بعصير الســكر والليمون ليقدم منهـــا للوافدين دون تفرقة بين كبير وصغير ·

وكان عامة الناس يترقبون موعد المولد ، فيقبلون على شراء لعب لأولادهم مصنوعة من الحلوى على هيئة اشكال مختلفة مثـل الخيول والسباع والقطط وغيرها «فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله ، وتمتلىء أسواق البلدين مصر والقاهرة وأريافها من هذا الصنف » ·

وتلك عادة انتشرت فى مصر فى عصـــر الدولة الفاطمية واستمرت بعدها ، حتى وقتنا الحاضر ·

كما كانت موالد الأولياء ملتقى يجتمع فيه الشباب والمردان الى جانب غيرهم ، مما اعتبر من الأمور غير اللائقة لما كان يجرى فيها من المفاسد كذلك كان يجرى الاحتفال بذكرى ميلاد المسيح ، يوم الاثنين فى التاسع والعشرين من شهر كيهك (السابع من يناير) وهو من الأعياد القبطية التى جرى العرف فيهـــا عند المسيحيين والمسلمين على السواء أن يظهروا ابتهاجهم بها ، فكان موسما لبيع الشموع الملونة والفوانيس والقناديل والتماثيل الدقيقة ، التى يقبل الناس جميعا على شرائها لأولادهـــم حتى بلغ ثمن شـــمعة الفا وخمسمائة درهم فضة ·

وقد الغى الاحتفال بهذه المناسبة بالنســـبة للمسلمين عام ٧٥٩هـ/١٣٥٨م فى عهد السلطان الناصر حسن ·

ويبدو أن الاطفال كعادتهم يملكنهم أن يتخذوا من أى مكان يتواجدون فيه ملعبا لهم ، حتى ان المساجد فى بعض الأحيان لم تسلم من اللعب فيها ، مما دفع صدر الدين بن العجمى محتسب القاهرة فى ذى الحجة سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م أن يمنع مرور الناس من الجامع الحاكمى بنعالهم ، كما منع لعب الصبيان فيه ٠

كذلك كانت احتفالات وفاء النيل مجالا للهو الأطفال ، فكان قبيل الاحتفال يمر المنادون على البيوت ، ويغنون اغنيات مختلفة منها : البحر زاد : غرق البلاد ٠٠ والأطفال حولهم يردون عليهم فى كل نداء بقولهم : عوفا الله (ربما كان اصلها أوفى الله ، أى أوفى الله النيل) وعند الانتهاء من الاحتفال بالخليج يمر المنادى والاطفال على البيوت لتوزيع بعض البلح والليمون الحلو والبرتقال وهم يرجون بذلك المكافأة من كل حسب استعداده ، وقد أخذ هذا العمل يندثر مع تقدم المدنية ٠

وكان الأطفال كذلك يشاركون الكبار فى اللعب بالرماح اثناء دوران المحمل فكان المماليك الصغار يركبون خيولا قد نصبت عليها السيوف والرماح بالقباقيب وفى ايديهم رماح صغار ـ لتكون مناسبة لهم ـ يلعبون بها وهم على هذه الهيئة ٠ كما كان من واجبات المحتسب أن يقاوم المجاهرة باظهار الملاهى المحرمة وتكسير أدواتها ان كانت لاتصلح لغير الملاهى ما عدا آلات اللعب التى لا يقصد بها المعاصى وانما يقصد بها تربية الأولاد ، ففيها وجه من وجوه الخير ٠

وان كانت تقاربها معصية كتصوير ذوات الأرواح ومشابهة الأصنام ، والمنع فيها يكون بحسب ماتقتضيه شواهد الأحوال مستندا فى ذلك الى حديث للسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقد

دخل عليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهى تلعب بالبنات فأقرها ولم ينكرها(٨) • وروى أن أبا سعيد الاصطخرى من اصحاب الشافعى وقد تقلد الحسبة فى بغداد فى أيـــام الخليفة العباسى المقتدر(٩) ، قد أزال سوق الداذى وهو نوع من الخمر وأقر سوق اللعب ولم يمنع منها •

والحقيقة أن هناك علاقة وثيقـــة بين مواضـــع المتنزهات والبساتين والحدائق وطبيعة الترفيه بالنسبة للجميع وبخاصـــة الاطفال ، حيث كانوا يجدون فيها - كغيرهم - متنفسا طبيعيا سهلا فيخرجون اليها مع أسرهم أو مع اقرانهم •

وقد أوردت المصادر المعاصرة كثيرا من اخبار هذه المتنزهات وخروج الناس اليها -وهو ما أوضحناه من قبل - حيث كان الناس يتوجهون اليها ويبالغون فى القصف والفرجة ويضربون الخيام بها ، كما كانوا يقيمون أخصاصا للمتفرجين بها وصاروا يبيتون هنـــاك خاصة فى الجزر ، حتى انهم كانوا يخوضون فى النيل الى منتصف الليل ، وقد عبر الشعراء عن جمال تلك المتنزهات ووصفها(١٠) •

ويبدو كذلك أن السباحة في العصر المملوكى كانت تمثـــل مجالا للترفيه واللعب عند الاطفال على وجه الخصوص ، حتى ان ابن خلكان(١١) يصف جماعة منهم وهم يسبحون - ولابد انه قد رآهم ووصفهم بسرب الظباء(١٢) •

ولعل المقصود بسرب الظباء هم الصبيان فى مقتبل العمر ، وهم يخوضون فى الماء ويلعبون على صفحة النيل أو الغدير ، كما يصور حركاتهم فى الماء ، ومانظن تلك الحركات الا العابا مائية غالبا مايجيدها من يجيدون السباحة •

ويبدو أيضا أن شباب ذلك العصر كان لهم وسائلهم الترفيهية المختلفة التى قد تصل أحيانا الى حد الخروج عن المألوف ، حتى اننا نجد شاعرا(١٣) يلوم شبابه ، كما يلوم مشيبه(١٤) ٠

ورغم ذلك يمكن القول بأن حياة الاطفال فى عصر المماليك لم تكن كلها لهوا ولعبا ، بل لقد نالوا قسطهم من شظف الحياة ومتاعبها ـ رغم نعومة اظفارهم ـ فكثيرا ماتعرضوا للفناء بسبب الأوبئة التى كانت تتفشى من حين لآخر ٠ كما كانوا يخرجون مع ذويهم وهم حفاة من أجل صلاة الاستسقاء ، فقد روى المقريزى عن خروج الناس فى ربيع الأول من سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٧٤ م الى قبة النصر ـ خارج القاهرة ـ وهم حفاة بثياب مهنتهم ومعهم أطفالهم حتى ان المقريزى نفسه قد خرج معهم فى ذلك اليوم ، حيث أدوا صلاة الاستسقاء وكشفوا رؤوسهم عند الدعاء الى الله تعالى وهم يستغيثون ويبكون فكان مشهدا عظيما ٠

وحدث أيضا انه عندما هاجم التتار مدينة دمشق وأحرقوها عن آخرها ، واسروا كثيرا من أهلها وعندما ارادوا الرحيل عنها جمع الناس لهم اطفال المدينة الذين أسر أهلهم وأكبرهم ابن خمس سنين ليرق قلب التتار لهم وكانوا نحو عشرة آلاف طفل ، ولكن تيمور لنك أمر عساكره فساقوا عليهم بالخيل حتى أتوا عليهم جميعا كل ذلك والسلطان أبو السعادات فرج منهمك فى لهوه وشربه مع الملاح والندماء ٠

بالاضافة الى ذلك فان الأطفال فى العصر المملوكى كان عليهم أن ينالوا حظهم من التعليم والاقراء والتأديب ، وذلك عن طريق الفقهاء والمقرئين ويتخذون من المساجد مدارس لهم ٠

وجدير بالذكر أن السلاطين المماليك كانوا يفضلون شراء المماليك الصغار ٠

بل كان الرسم اذ ذلك الا يجلب التجار الا المماليك الصغار عن طريق التجار الأوروبيين من البنادقة وأهل جنوة ٠

ومعلوم أن المماليك الصغار قد نالوا عناية خاصة فى تربيتهم ، وأن العابهم التى كانوا يمارسونها كانت تتناسب مع اتجاهات المجتمع الجادة ، لكى تمارس المهارة الضرورية له ، ومن هنا ـ كما كما سبق أن اشرنا ـ كانت العابهم تأخذ شكل التدريبات المتنوعة على الوان مختلفة من الرياضات التى يتطلب الأمر أن يتصف الفارس بها مثل الفروسية واللعب بالرمح ، ورمى السهام والنشاب وغير ذلك ، حتى ان السلطان كان يحضر مبارياتهم فى الفروسية فى ميادين خاصة ٠ ولا غرو فى ذلك فقد كان الهدف الأساسى من وراء ذلك النظام الخاص لتربية المماليك الصغار عند جلبهم ، هو اعدادهم خلقيا وعسكريا ٠

ولعل ذلك النظام المحكم للتربية عند المماليك قد جعلهم يشعرون بالعزلة عن الناس ـ وحتى بالتميز فى كثير من الأحيان ـ بحيث انه بمجرد أن يعتق المملوك ـ أى ينهى فترة دراسته بالطباق(١٥) ـ فانه كان ينطلق طالبا متعة الحياة مما جعلهمفىكثير من الأحيان يبالغون فى ممارسة وسائل الترفيه المختلفة ، وربما كان ذلك بدافع نفسى أساسه الرغبة فى تعويض ما عانوه من الكبت والحرمان اثناء وجودهم فى الطباق ، كما ان هؤلاء المماليك المتخرجين غالبا ما يكونون فى سن الشباب الذى قد يدفعهم نحوهذا السلوك ٠ ومن الظواهر اللافتة للنظر أن عددا ليس بالقليل من سلاطين المماليك الذين وصلوا الى الحكم لم يكن ذلك عن كفاءة أو اقتدار ٠

وكان من الطبيعى أن ينصرف هؤلاء الاطفال السلاطين الى أمور اللهو والطيش واللعب ، وزاد ذلك على الحد حتى اننا نجد القائمين

تدبير أمور المملكة بردونهم عن ذلك بكل الوسائل وفى النهايـــة يطيحون بهم عن العرش وقد أوردت المصادر المعاصرة كثيرا من هذه الامثلة ، فكانت فى الواقع فرصة لمعرفة ماكان يتلهى به هؤلاء الأطفال السلاطين ، فقد ذكر ان الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك كان يلعب بالحمام مع أولاد الغلمان ، وترك تدبير الأمور لأمه ، حتى خلع ونفى مع أمه واخوته الى دمياط •

كذلك ذكرنا فيما سبق ان السلطان المظفر حاجى الذى تولى الحكم (٧٤٧ ـ ٧٤٨هـ/١٣٤٦/١٣٤٨م) وهو لم يبلغ الحادية عشرة من عمره كان يجتمع بأوباش الناس ، ويلعب معهم بالحمام أيضا ، كما كان يقف معهم ويراهن على الطيور ، بل بلغ به الأمر انه كان اذا لعب معهم يتعرى ويلبس ثيابا من جلد ويصـــــارع معهم •

هوامش الفصل الثانى

(١) هو محمد بن اسماعيل بن موسى عبد الخالق السفطى القوصى الدار والمنشأ والوفاة فتح الدين بن القاضى زين الدين السفطى توفى بقوص سنة ٧١٧ هـ ٠

(انظر ، الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٥٠١) ٠

(٢) ومضمون هذه اللعبة ان صاحب الترجمة جلس مرة مع جماعة ، يلعبون لعبة ويكتبون ورقا ، فى بعضها صورة شخص صاحب متاع ، وفى اخرى صورة لص ، فاذا حصلت الورقة التى فيها صاحب المتاع يقول : ياجماعة ضاع لى كذا وكذا ـ ويسمى الاشياء ـ واريد شخصا أو شخصين ـ على قدر ما يخطر له ـ يحضر لى اللص وثم اوراق اخر فيها نقطةونقطتان فاكثر حسب عدد الجماعة فوضعت الورقة التى لصاحب المتاع له ، ولكنه سكت ونحن نقول له : تكلم فيقول « حتى أبصر شيئا ضاع لى فاقوله ، والا يبقى كذبا وصرنا نقول : هذا لعب لا حقيقة له ، وهو يفكر » ٠

(٣) النوروز أو النيروز ، وهو عيد رأس السنة القبطية بمصر اول يوم من توت وقد اختلفت المصادر فى اصله التاريخى ، عنه انظر (المقريزى ، خطط ج١ ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨) ٠

(٤) وبهذه اناسبة كتب ورقة للشيخ ابن دقيق العبد وناولها لجاريته ، فدخلت ثم رجعت اليه وقد كتب الشيخ : « هذا جـزاء من ترفـع عن أصحابه » ٠

(٥) الريدانية ، خارج القاهرة وهى العباسية الحالية ٠

(٦) والمقصود هنا بالعقيقة ، الاحتفال بمرور سبعة أيام على مولد المولود وهي ما يعرف بالسبوع حتى الآن ، وان كان فى المنجد ان العقيقة هى الشاة التى تذبح عن المولود يوم سبوعه عند حلق شعره ، وفى القاموس

المحيط ان العقيقة هى الشاة التى تذبح عند حلق شعر المولود (انظر المقريزى السلوك ، ج١ ق١ ، ص ٤٤٥ ، حاشية/٢) ٠

(٧) المهم ، هو حفل عقد القران كما جاء فى النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص ١١ ويقصد به هنا حفل الختان ٠

(٨) روى البخارى ومسلم وأبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : (كنت العب بالبنات عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكانت تاتينى صواحبى فينقمعن من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان يسر بهن فيلعبن معى » والبنات هى التماثيل على صورة البنات أى العرائس (ابن الاخوة ، معالم القرية ، ص ٩٠) حاشية ١) ٠

(٩) المقتدر ، (٢٨٢ ـ ٣٢٠ هـ) جعفر بن احمد بن طلحة ابو الفضل المقتدر بالله المعتضد بن الموفق ، خليفة عباسى يوبع بعد اخيه المكتفى ٢٩٥ هـ (ابن الاخوة ، معالم القرية ، ص ٩٠ حاشية ٢) ٠

(١٠)

فى جزيرة بولاق رأينا عجبا ... أسد ساروا معهم ظبا

وقال آخر :

امض لبولاق ترى بجزيرة ... صور وولدان لها تانيق

لى من تحابى وردها نشر زها ... ولها بقلبى هزة وعلوق

(١١) ابن خلكان هو شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابى بكر خلكان البرمكى الاربلى ولد باربل ٦٨٠ هـ واقام فى مصر وناب فى القضاء ثم ولى قضاء الشام عشر سنين ٠

(١٢) ابن العماد ، شذرات ، ج٥ ، ص ٣٧١ ٠

وسرب ظباء فى غدير تخالهم ... بدورا بأفق الماء تبدو وتغرب

يقول خليلى والغرام مصاحبى ... اما لك عن هذى الصبابة مذهب

وفى دمك المطلوب خاضوا كما ترى ... فقلت له : دعهم يخوضوا ويلعبوا

(١٣) هو اسماعيل بن هبة الله القوصى ، أديب شاعر ٠

(١٤) الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ١٧١ ، ١٧٢ ٠

ياشبابى أفسدت صالح دينى ... يامشيبى نغصت لذة عيشى

فعدوان انتما لا صديقا ... ن تلاعبتما بحلمى وطيشى

(١٥) كانت الدراسة فى الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهرا ، وان كانت احيانا تمتد الى عدة سنين (ماجد ، نظم ، ج١ ، ص ١٧) ٠ ٠

الفصل الثالث

خيـــال الظـــل

تمهيد ـ منشؤه ـ خيال الظل عند العرب صفة اللعب بالخيال ـ شغف سلاطين المماليك بالخيال ـ ظهور ابن دانيال ـ مجتمع القاهرة ـ بابات خيال الظل لابن دانيال وبابات أخرى ـ انتشاره فى عصر المماليك ٠ موقف بعض الحكام من خيال الظل ـ السلطان العثمانى وخيال الظل ـ تدهور فن الخيال وازدهار فن القره قوز ـ انحسار خيال الظل ونهايته ٠

* * *

لقد بلغت الدمى المتحركة ذروتها فى التقــدم والتطور عند العرب فيما بين القرنين الحادى عشر الميلادى والخامس عشر ٠ ولكن نجد فى العهود الاسلامية التى جاءت بعد ذلك أمثلة للعب الشعبية ، بل نجد فى بعض المراجع تصنيفا لشتى اللعب التى كانت منتشرة عندهم ٠ فيذكر ابن خلدون لعبة الكرج التى كانت منتشرة أيام بنى العباس ٠

وكما انتشرت اللعب الشعبية المتحركة والالعاب الأخــرى المتنوعة فى البلاد العربية ، انتشرت كذلك فى مصر وفى ســائر البلدان العربية أيام المماليك لعبة خيال الظل التى تعتمد على تحريك دمى مصنوعة من الجلد خلف ستار مشدود من القماش يضـيئه مصباح ٠

وهو من أهم وسائل الترفيه فى ذلك الوقت ، وكان يســمى وقتئذ بشخوص الخيال أو ظل الخيال أو طيف الخيال ، أو مسرح الدمى(١) ، أو خيال الستار أو ذى الخيال ٠

ولعل هذه المسميات تشير الى تلك الوسائل التى كان يتوسل بها المخايلون فى ممارسة ذلك الفن حيث تتطلب مسرحا • كما يرجع بعضها الى ذلك التشابه بين هذا الفن وماكان يقدم على مسارح الدمى التى كانت شائعة فى أوربا فى ذلك الوقت • وكذلك بعض الدمى التى كان يقوم اللاعبون بادراجها خلف الستارة البيضاء • وقد ذكر ان تلك الدمى كانت من الجلود المجففة ذات الألوان المتباينة وتتروح أطوالها بين ثلاثين وخمسين سنتيمترا •

أما عن منشأ هذه اللعبة ، فيكاد يجمع المؤرخون أن اصلها من لعب الهند القديمة ، ويقول البعض ان أصل نشأتها كانت فى الصين ، وانتقلت منها الى البلاد العربية عن طريق الهند وفارس ثم انتقلت الى مصر عن طريق سوريا ومن مصر الى بلاد المغرب العربى •

وعلى أية حال فأيا ما كانت نشأة المخايلين وفنهم فان الذى لاشك فيه ان هذا الفن قد أصبح على مدى فترة زمنية طويلة من أهم صور الفنون الشعبية كلها واذا كان خيال الظل قد اعتبره الناس فى مصر فى أوائل القرن العشرين تسلية شعبية فانه كان فى العصور الوسطى التسلية العامة المفضلة لجميع طبقات المجتمع •

وقد عرف خيال الظل للمرة الأولى ــ عند العرب ــ فى العصر العباسى وكان مجيئه الى مصر فى عصر الفاطميين فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى(٢) • حيث عرفت مصر فيه خيال الظل الذى يتوسل بالصورة والضوء معا ويحتاج تبعا لذلك الى مكان محكم حتى يمكن أن يركز الضوء فيه على التمثيل ومع ذلك فقد كان يتسم بنوع من المرونة فى الحركة بحيث يمكن أن يؤدى فى فناء الدار أو داخل فسطاط معين ، لذلك أصبح فيما بعد من وسائل احياء المواسم وحفلات الزواج والختان وما اليها •

وقد استمر خيال الظل طوال العصرين الأيوبى والمماليكى يمثل وسيلة من أهم وسائل التسلية فى مصر حتى فتح السلطان العثمانى مصر ، وعندئذ حرص على أن يصطحب معه عند عودته الى القسطنطينية (استانبول) بعض المخايلين ٠

فقد ذكر المؤرخ المصرى ابن اياس فى حوادث سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م ان السلطان سليم العثمانى أحضر فى بعض الليالى بمقياس النيل بجزيرة الروضة خيال الظل فلما جلس للفرجة ، قيل ان المخايل صنع صفة باب زويلة ، وصفة السلطان طومانباى لما شنق عليه وقطع به الحبل مرتين « فانشرح ابن عثمان لذلك ، وانعم على المخايل فى تلك الليلة ـ بثمانين دينارا ، وخلع عليه قفطانا مخملا(٣) مذهبا وقال له : « اذا سافرنا الى اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك ٠

ولكن ابن اياس لم يقطع بتحقيق هذه الرواية وعلق عليها بأنها اشاعة راجت ، ويمكن القول بأن السلطان سليم هو الذى نقل الى اسطنبول الحذاق المهرة فى جميع الحرف والصناعات ، قد نقل الى عاصمة ملكه بعض من يحذقون فن خيال الظل كهذا المخايل الذى أشارت اليه رواية ابن اياس ٠

ونفهم من هذه الرواية أن فن الخيال قد أصبح فى مصر حرفة وأصبح فى استطاعته أن يعبر عن الأحداث التاريخية بحيث لم تكن العروض الظلية فى هذا العصر مقصورة على عرض الهزليات اللاهية والمضحكات بل كانت لها أهداف اسمى من ذلك كما ذكرنا من قبل ، مما يقطع بأن فن المخايلة العربية سار زمنا طويلا حتى اكتمل واكتسب مقوماته ٠

أما عن صفة اللعب بالخيال فانه كما سبق أن ذكرنا يتخذ شخوصه من جلود وتحرك بعصى من وراء ثوب أبيض مشدود

(ستار) فيظهر خيال الدمى فيه حيث يقوم اللاعبون بادر
الخيال خلف الستارة البيضاء بواسطة سيقان خشبية يحر
اللاعبين ، يختص بتحريك جميع مايقدم على المسرح من
فى حين يقوم اثنان من اللاعبين بالعزف على آلات موسيق

أما عن طبيعة المسرح الذى تمثل عليه شخوص الخيا
أحمد تيمور وصفا دقيقا له(٤) ٠

ومن المؤكد انه حدث تطور لمسرح خيال الظل ايام تيم
كان عليه منذ أيامه الأولى فى مصر ، على ان هذا المسرح
السابق يتمتع بشىء من المرونة بحيث يمكن أن يكون متنق
مكان لآخر ، خاصة ان فن الخيال قد أصبح فنا شعبيا بحي
تسلية عامة لجميع طبقات المجتمع(٥) ٠

والملاحظ ان وصف الخيال لايذكر لنا شـــيئا عن اس
شخوص او دمى الخيال وان ما كان يحدث هو تمثيل غير
من خلف ستار ، ولعل ذلك كان يعبر عن مرحلة من مراحل
فن الخيال ٠

ويؤكد ذلك ماذكره صاحب تذكرة البنية فى سنة ١٦
١٣١٦م حيث جاء فى ترجمة شيخ الكتابة نجم الدين موسى بر
ابن محمد الحلبى ثم الدمشقى الشهير بابن البصيص المتو
ذات السنة انه نظم عن طريق أهل التصوف نظما يذكر فيه ا
وهو يشير أن محرك الشخوص يكون واحدا(٦) ٠

وكان لسلاطين المماليك ولع شديد بهذه اللعبة خاصة
شاعت الظروف أن يقترن عصر السلطان الظاهر بيبرس باسم
شخصية ساهمت فى تأليف تمثيليات خيال الظل ، هو محمد
دانيال الموصلى المتوفى سنة ٧١٠هـ/١٣١١م وقد عرفت تمث

خيال الظل باسم البابات ومفردها بابة وسيأتى الحديث عنها تفصيلا فيما بعد ٠

أما عن ابن دانيال فهو من أعظم المبرزين فيه فقد نبغ فى هذا الدرب من الأدب الشعبى التمثيلى ٠ يأتى اشياء مخترعة ، وصنف طيف الخيال الشاهد له بالمهارة فى الفن وله أرجوزة سماها « عقود النظام فيمن ولى مصر من الحكام » وكان كثير النوادر والرواية ٠

وقد عمل على الارتفاع بمسرح خيال الظل فى عصر سلاطين المماليك ٠

ولد ابن دانيال بأم الربيعين بالموصل سنة ٦٤٦ ــ ١٢٣٨م وقضى شبابه بها ودرس القرآن الكريم فى كتاتيبها ، وتلقى العلم والأدب فى مدارسها وكانت الموصل اذ ذاك من أمهات العالم الاسلامى علما وثروة ، ولكنه لم يكد يلمس آثار تلك النهضة الثقافية للموصل وينهل من مواردها الفياضة حتى زحفت موجة التتار المدمرة التى قوضت معالمها العمرانية ومعاهدها العلمية وطوحت بعلمائها وادبائها وكان ذلك فى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وابن دانيال لم يكن يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، حيث تبدل الحال غير الحال فأصبح نعيمها شقاء وعمرانها خرابا ، وعلمها جهلا وعمت الفتن والأوبئة والمجاعات ، وانعكست حياة الفوضى والاضطرابات على حياة الناس ، فعم الفساد الخلقى والتفكك الاجتماعى بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ الأمة الاسلامية ٠

ففى عام ٦٦٥/١٢٦٧م قصد ابن دانيال مصر مع غيره من الأدباء والمفكرين الذين لقوا العنت فى بلادهم وضيقا فى معايشهم ٠

وعندما تصدت القاهرة لموجات التتر وهزمتهم هزيمة منكرة فى موقعة عين جالوت كانت حينئذ ملاذا لكل خائف ، وموئلا لكل

قاصد ، فقصدها الناس من مختلف الاقطار ، واستقر ابن دانيال فى القاهرة وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، وهو أميل مايكون الى تحرر الشباب وانطلاقاته وايثار العاطفة الفارغـة المسـليـة على الالتزام الجاد ٠

ويصورابن اياس حال مجتمع القاهرة حين قدم ابن دانيال اليه فيقول : فى حوادث سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م « ٠٠ وفيها أبطـل السلطان ضمانالحشيشة وأمر باحراقها وأضرب بيوت المسكرات وكسر مافيها من الخمور واراقهـا ومنع الحانات من الخواطـى واستتاب العلوق واللواطى »(٧) ٠

وعلق ابن دانيال على ذلك فأورد أشعارا فى بابتـه « طيف الخيال » يسجل فيه ذلك بأسلوب كله دعابة وخفة ظل ٠

هكذا نجد ان فى رواية ابن اياس أصدق تصوير لحالة مجتمع القاهرة فى ذلك الوقت ولعل ذلك يرجع الى أن اخلاق الظاهر بيبرس كانت على درجة كبيرة من الحزم والعنف يتنافى معها وجود أنواع الملاهى والمسكرات التى كانت موجودة قبله ، فقد وصفه أبو المحاسن فى نجومه بأنه « كان يحب أن يطلع على أحوال أمرائه وأعيـان دولته ، حتى لم يخف عليه من أحوالهم شىء » ٠

ولعل شجاعة الظاهر بيبرس كانت صفته البارزة المميزة وهى الصفة التى جعلت المعاصرين يعجبون به وبشخصيته ، ويجعلون منه بطلا يتناقلون سيرته ويرددونها دائما دون ملل أو سأم ، وزاد من هذا الاحساس انه ظهر فى وقت كان المسلمون فيه أشدالناسحاجة الى زعيم شجاع له القدرة على مواجهة خطر الصليبيين من ناحية وخطر المغول من ناحية أخرى ٠

فقد كان الظاهر بيبرس حاكما شجاعا ، قائـــدا مجاهدا ، مرابطا وقد جاءت سيرته فى الأدب الشعبى ، لتصور ذلك السلطان فى الصورة التى أحب الشعب العربى ان يراه عليها ، فجعلت منه البطل المخلص ٠

ويصور لنا ابن دانيال كذلك حال مصر بعد هجرتـــه من الموصل فيذكر انه وجد مواطن الأنس دارسة ، وسمع بقصة المصلوب ابن الكازرونى وذكر ايضا اعتذار صديقه اليـــه لتقصـــيره فى الاكرام ، اذ لم يأته بالمدام وقال له « قد غلب ظنى أن ابا مرة قد مات وعد من الرفات ، قم بنا نبكيه ، ونصف الحالة ونرثيه » ٠

يقول ابن دانيال « لما قدمت من الموصل الحدباء الى الديار المصرية فى الدولة الظاهرية ، سقى الله عهدها ، وأعذب فى الجنان ورودها وجدت تلك الرسوم دارسة ، ومواطن أنسها غير انســـة ، عافية الآثار ، ساقطة الحد بالعثار وقد هزم أمر السلطان ، جيش الشيطان ٠٠ وتولى الخوان والى القاهرة ، اهراق الخمور واحراق الحشيش ، وتبديد المزور ، واستتاب العلوق ، واللواطى ، وحجر البغاة والخواطى ، وشاعت بذلك الأخبار ووقع الانكار ، واختفى المطول فى الدار ، وقد آذى الخلاعة غاية الأذية وصلب ابن الكازرونى وفى رقبته نبانية » ٠٠

وجاء قول ابن دانيال مطابقا الى حد كبير لما ذكره ابن اياس وهو ما سبقت الاشارة اليه ٠

اضف الى ذلك فقد كانت الحالة الاقتصادية لمجتمع القاهرة ابان قدوم ابن دانيال اليها سيئة للغاية بسبب نقص خطير فى فيضان النيل فارتبكت الحياة الاقتصادية وتزعزعت حالة الأسواق وترتب على هذا أو ذاك ارتفاع الأسعار وانتشار الجوع بين الناس ٠

وفى ظل هذه الظروف نزح ابن دانيال الى القاهرة فاستغل أهم مافيها من وسائل الترفيه وأبدع فيها وهو فن خيال الظل مصورا فى باباته كل ما كانت تعانيه البلاد فى وقته ، فان ابن اياس قـد وصف ابن دانيال هذا بانه كان شاعرا ماهرا وله شعر جيد فمن ذلك ما قاله عن نفسه وعن حرفته الأولى وهى الكحالة(٨) .

ولعل ذلك يصور لنا طورا من أطوار حياته الأولى فى مصر الذى اتسم بالفاقة وقلة المورد حين نراه يندب حظه مستغلا الفاظا قريبة من العامية فى اغلب الأحيان .

وليس هناك مجال للشك فى أن الذى خلد ذكر ابن دانيال هو تفوقه فى فنه التمثيلى فكانت له اليد الطولى فيـــه ، فهو الذى يصنع الرواية ويكتبها وينظم الأصوات ويلحنهـــا ويعين الأزيـــاء المناسبة ، وكل مايحتاج اليه التمثيل ويشترك بنفسه فى العرض ، فكان هو الكاتب والناظم والمغنى والمخرج والممثل فاجاد وأبدع .

ورغم أن كثيرا مما كتبه هذا الأديب قد تناولته ايدى البلى فقد وصل الينا من أثاره ثلاث روايات أو بابيات أو لعب منها نسخة فى دار الكتب المصرية بعنوان « طيف الخيال »(٩) .

وقد حظيت تلك المخطوطات باهتمام كبير من كثير من ادباء العالم العربى حيث قاموا بنشر بعضها(١٠) . كما قام بعضـــهم بتحقيق هذه البابات الثلاث ونشرها .

وتشير بعض المراجع الى وجود بعض الرسوم التى كانت مستعملة فى تمثيليات خيال الظل من بينها واحدة من الجلد محفوظة بالقسم الاسلامى من متاحف الدولة ببرلين وتنسب الى العصـــر المملوكى كما يشير نفس المرجع الى وجود رسم آخر محفوظ فى نفس

المتحف وهو يمثل فارسا ممن يصيدون بالصقر مصنوعا من الجلد المخرم ، حتى يمكن تحريكه منها حسب الحوار ٠

وقد انصرف ابن دانيال الى مهنة الكحالة وقرض الشعر ، وغشيان مجالات اللهو والضحك ، يغرق فيها أشجان روحه واحساسه الخفى بالضياع ٠ فقد جمع فترة من الزمن بين مزاولة الكحالة لبعض النهار ثم ينصرف بعدها الى اللعب بخيال الظل والى هوايته الأدبية فى بعضه الآخر وشطر من الليل ٠

ولم يستمر ابن دانيال على هذه الحال مدة طويلة اذ ذاع صيته بين الناس وشاع ، وسعى الى التعرف به كبار رجال الدولة وكثرت عليه الانعامات والهبات حتى تحسنت حاله ، واتخذوه نديما لهم ، يطرفهم بفكاهاته ونكاته وشعره التحامقى ، وأصبح لابن دانيال راتب من الديوان من لحم وعليق ٠

وقد كان ابن دانيال مؤهلا لهذا النجاح ، وتلك الشهرة السريعة فقد كانت نفسه تنطوى على ظرف ، وخفة روح ٠

ويمكن القول انه ماكان لابن دانيال ان تكون له هذه المنزلة فى نفوس الحكام والمحكومين ، وما كان لينجح هذا النجاح فيذيع صيته ويشتهر امره بين الناس لولا ان الشعب المصرى شعب مرح بطبعه ، محب للفكاهة والدعابة ميال الى الأخذ بأسباب الترفيه والتسلية والترويح عن النفس على الرغم من المتاعب والأزمات التى تعرض لها عامة الناس فى عصر المماليك ٠

فكان ابن دانيال هو النبتة الحية التى صادفت تربة خصبة صالحة رغم ما يعتليها من أحجار فتوغلت جذورها حتى نمت وازدهرت فاصبحت دوحة ماثلة تظل الناس وسط بيداء شاسعة ساعد على ذلك تلك الروح المصرية الفكهة التى كانت فى أوجها ،

فلم تتسع تلك الروح فى عصر كما اتسعت فى عصر المماليك ، اذ فرغت مصر أو كادت من الحروب الصليبية ، وخلد المصريون الى حالة من الرخاء ، انتشرت فيه فنون من اللهو واللعب ، وتفجرت ينابيع الفكاهة فى أنفسهم ٠

ومما لا شك فيه كما سبق ان اشرنا ان الذى خلد ذكر ابن دانيال هو تفوقه فى فنه التمثيلى ، فاذا كان شعره قد ضاع اكثره ، ولم يبق منه الا بعض المقطوعات التى سجلها المترجمون له ، فــان أدبه التمثيلى لايزال حيا فى نماذج متكاملة او مقاربة للصورة التى وسمها ، حتى قيل ان أروع ما ابقاه لنا التاريــخ من تمثيليــات « خيال الظل » هو ماكتبه ابن دانيال » فى القرن السابع الهجرى فى لكتابه طيف الخيال ، فلم يبق من الشعر التمثيلى العربى فى القرون الوسطى على الاطلاق الا تمثيليات ابن دانيال ٠

والروايات الدانيالية الثلاث هى :

البابة الأولى :

طيــف الخيــال :

وهى من أبدع البابات الثلاث بل يعتبرهــا البعض ابــدع مسرحية فى تاريخ خيال الظل المصرى ٠ فهى تعكس صورة مجسمة من واقع الحياة المصرية فى القرن الثالث عشر الميلادى ، السابع الهجرى بكل ما فيها من تقاليد وعادات ، وتحكيها بأسلوب ذلك العصر ٠

وبرغم ان اطار هذه البابة ـ كغيرها ـ هو الاطار الفكاهى المرح فانها تصور نقدا سياسيا لاذعا لحدث مشهور فى تلك الفترة ، وهو استقدام الأمير ابى العباس أحمد بن الخليفة الظاهر العباسى

من بغداد الى مصر واحتفاء الملك الظاهر بيبرس به · وبطل هذه البابة هو الأمير وصال ، وهو الصورة الســاخرة لذلك الأمير العباسى ·

وهذه البابـة الدانيالية الأولى من الوان الكوميديا المسـماة بالفارس أى المهزلة · واحداثها تتابع متسلسلة حتى تؤدى دورها فى خلق الموقف الضاحك فى خلال مراحل البابة ، كما تؤدى الى النهاية المريحة لموضوع القصة ·

البابة الثانيــة :

عجيب وغريب :

يعتبر البعض هذه البابة احدى الوثائق التاريخية الصـالحة ومن الشواهد الحيوية الصادقة ، التى تصور جانبا اجتماعيا فى عصر من أهم عصورنا الماضية فهى بمثابة سجلات فنية شعبية لمجتمعنا ونفسيته ، ومنهج تفكيره وطرائق عيشه ومسالك خبراته ، مما يهم باحث التاريخ والاجتماع ونحوهما ، لأنها تبرز ناحية من نواحى حياة الشعب قلما يقع نظر الباحث عليها فى كتب التاريخ فقد صاغ ابن دانيال اللغة الدارجة والمعانى المتداولة بين اشخاص من عامة الشعب فى أسلوب عربى ، وتناول كل تلك المعانى الشعبية وعبـر عنها بالفاظ تنم عن غزارة مادته اللغوية وثروته الأدبية ·

وبالرجوع الى هذه البابة نجد انها ليسـت تمثيلية كاملة العناصر لها موضوع معين ، وانما هى مجموعة من المواقف أو الاستعراضات الفكاهية تعرضها مجموعة عجيبة من ذوى الحرف الغريبة ممن كانوا يجولون فى الأسواق والموالد والحفلات العامة ، فهـى تعرض حوالـى سـبع وعشـرين شـخصية(١١) من هذه الشخصيات حسب الظهور فى المسرحية :

غريب الصانى وعجيب الدين الواعــظ ، وحويس الحــاوى وعسلية المعاجينى ، وهلال المنجم ، وعواد الشرداط ، وشـــبل السباع ، ومبارك الفيال ، وأبو العجب صاحب الجدى ، والصانعة وأبو القطط ، وزغبر الكابى ، وأبو الوحش ، وناتو السودانى ، وشدقم البلاغ صاحب الرمح والسيف ، وميمون القراد ، ووثــاب البختيارى صاحب الحبال والصوارى ، وجراح المذبل ، وحمـــال المشاعل ، وعساف الحاوى براحلته ، وغريب ..

واستطاع ابن دانيال بمهارة ان يقدم وصفا دقيقـــا لهـذه الشخصيات من حيث الحركة أو طريقة الحديث والتخاطب واختياره لكل شخصية مايناسبها من الحوار وينتقى لها خصائصها من القول والفعل والمصطلح ، كما اختار لكل شخصية اسما غريبا مضحكا مشتقا من طبيعة المهنة التى تمتهنها أو منطبقــا على أوصـــافها الجسمية الطبيعية والشاذة ، وهو أسلوب مازال معمولا به فى بعض المسرحيات الكوميدية الهابطة التى تشتمل على شخصيات تحمل أسماء غريبة بقصد الاضحاك .

وهذه المواقف الخفيفة لبابة عجيب وغريب قد تنعدم الرابطة الموضوعية بينها ، لكن يمكن القول بان هناك رابطة واحدة بين هذه المواقف ، وهى اتفاقها جميعا فى اظهار ناحية من نواحى المجتمع المصرى فى القرن السابع الهجرى ، كما ان هذه البابة وان بعدت عن التقاليد المسرحية فانها تستحق منا وقفة اعجاب لذلك المؤلف والمصور البارع الذى تأمل المجتمع حوله فوجد الفساد بين طبقات الشعب ، ورأى المحتالين يبتزون أموال الجمهور الساذج بطــرقهم الخاصة ، فصور ذلك كله وجسم حيلهم أمام الجمهور حتى يظهرهم على حقيقتهم ، وقد استغل ما عرف به من سخرية وفكاهة وقدرة على النظم والنثر فى تصوير ذلك كله كأنـــه مصلح اجتماعى يبرز ما فى المجتمع من عيوب .

ولعل ذلك هو ما يضفى على بابات ابن دانيال قيمة اجتماعية مهمة فى عصر المماليك خاصة ان مهنته الأولى وهى مهنة الكحالة بدكان « داخل باب الفتوح » قد اعانته على ان يشاهد عن كثب ، بل ان يخالط نماذج كثيرة من البشر تعج بهم الأحيـــاء الآدلـــه بالسكان ٠

ثالثا : البابة الثالثة :

ويأتى بعد ذلك دور الحديث عن ثالثة روائع ابن دانيال التى سماها « المتيم والضائع اليتيم » وهى تختلف فى موضوعها عن البابتين السابقتين اختلافا كبيرا ، وان اتفقت معهما فى الأسلوب والهزل ٠

وهناك شك كبير فى صحة انتساب هذه البابة لابن دانيال ، أو على الأقل فانها قد تكون تعرضت لكثير من التحريف حتى خرجت فى مستوى هابط ، تعبر عن صورة بشعة من أنواع الشـــذوذ ، وأخطر مهاوى الانسان ، ويستند أصحاب هذا الرأى الى ان ثمـة اختلافات فى نصوص هذه التمثيلية فى المخطوطات التى ذكرتها ، ويؤيدون بذلك وجود الشك فى نسبة التمثيلية برمتها الى ابـــن دانيال ٠

ويعزو البعض صحة هذا الشك الى ان الأساليب الهابطة التى وردت بهذه البابة ليست للشيخ ابن دانيال ، لما يكتنفها من مستوى هابط ٠

ولكن ذلك يمكن الرد عليه بان طبيعة ابن دانيال الساخرة ، كذلك ظروف المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك وما ساده من خلاعة ومجون وميل الى المتع الحسية كل ذلك من شأنه ان يجعل انتاج ابن دانيال وكثيرين غيره(١٢) تغلب عليه تلك الرو-

الفكهة والاسترسال فى الخلاعة والمجون اللذين طبعت عليهما شاعريته التى اتجهت الى بعث السرور واثارة الضحك والترويح عن النفس بالفكاهة والسخرية معا .

ومادام هذا هو الاطار العام الذى دارت فيه بابات ابن دانيال فلماذا اذن الشك فى نسب تلك البابة اليه مع ماعرف عنه من الاتجاه فى شعره وتمثيلياته الى المجون ؟ ومع ذلك نراه احيانا يستثير الضمير الدينى الأخلاقى والاجتماعى فيؤكد ان حياة اللذة الحسية تضيع صاحبها فى الدنيا والآخرة فنرى أن كلا من باباته الثلاث ختمت بطلب التوبة والانابة وتلك نهاية تعد مثارا للراحة النفسية لدى الجمهور وتتكون شخوص هذه البابة من شخوص بشرية وشخوص حيوانية وجمادية ، والشخوص البشرية تضم : المتيم ، الذميم ، بابا البيرم والحكم زيهون بالاضافة الى شخصيات أخرى ثانوية .

أما الشخوص الجمادية والحيوانية فتنحصر فى الديوك والكباش والثيران وأدوات المائدة ، حيث استعرض ابن دانيال بعض الألعاب التى كانت شائعة فى عصره .

والجدير بالذكر ان هذه البابات الظلية الثلاث قد الفها صاحبها ابن دانيال فى عهد السلطان الظاهر بيبرس كما سبقت الاشارة بهدف ملء الفراغ الذى استحدثه السلطان بالقضاء على الخلاعة والمجون ، كما اعترف هو بذلك .

وتشير بعض المراجع الى ان هذه البابات لابن دانيال وجدت فى مخطوط قديم عثر عليه مصادفة وحفظ بمكتبة « أحمد تيمور باشا » ثم انتقل الآن الى دار الكتب المصرية ، ووجدت نسختان أخريان من هذا المخطوط احداهما بمكتبة الأسكوريال بالأندلس ، واخرى بمكتبة استانبول بتركيا .

ويذكر بعض الباحثين في تاريخ الأدب الشعبى ، ان هذه المخطوطات الثلاث كتبها رجال أساءوا فهم أصول هذه التمثيليات ، خاصة أن تدوينها قد تم بعد وفاة ابن دانيال بزمن طويل ·

وقد يكون ذلك سببا فيما حدث بالنسبة لبعض التمثيليات الدانيالية من تغيير أو تحوير مما دفع البعض الى الشك فى نسب أحدى التمثيليات الى ابن دانيال كما سبقت الاشارة الى ذلك ·

ولم تكن بابات ابن دانيال هى الوحيدة التى تمثل بواسطة خيال الظل ابان عصر سلاطين المماليك ، بل كان هناك العديد من التمثيليات التى كانت تقدم على مسارح خيال الظل وتتناول موضوعات على مستوى أرفع من الموضوعات التى تناولتها تمثيليات ابن دانيال ، ولكن لم يستطع الحصول عليها ويرجع البعض ذلك الى انها اما أن تكون مفقودة واما انها لاتزال محفوظة فى المكتبات الخاصة ، كما قد يرجع اختفاء بعض النصوص الظلية الى انقراض اللاعبين الذين كانوا يحفظونها ، ويتبادلونها بينهم مشافهة ·

ومما لاشك فيه أن الويلات التى أصابت بلاد العرب ، طوحت بكثير من تراثه الخالد ، كما أن اللغة التى كان يستعملها أرباب الخيال لاتخلو من مجون وخلاعة ، ولذا تحاشاها رجال الدين وزهدوا فيها ، فتركها الناس وكان نصيبها الاهمال والتلف ·

وقد انتشر خيال الظل انتشارا واسعا بين الأوساط الشعبية فى مصر ابان عصر المماليك ، حتى اصبحت العروض الظلية تقدم فى معظم الأفراح وحفلات الزواج ، كما كانت تقدم فى المقاهى الشعبية ·

وتدور معظم هذه البابات حول نقد المظالم التى كانت تعتصر الحياة الاجتماعية المصرية ، أو تدور حول الدعوة لكراهية الأعداء

ومهاجمتهم والانتصار عليهم · ولم تذع هذه البابة ربما لأن موضوعها هو السخرية من جماعة العلماء الذين كانوا يكونون طبقة خاصة من المجتمع المصرى وعرفوا بأصحاب العمامة ، تمييزا لهم عن الطبقات الاجتماعية الأخرى ، وكان يحترمها الشعب المصرى ويتخذ منها ملجأ وحاميا أمام طغيان المماليك وظلمهم ، فسخرية المؤلف من هذه الطبقة جعلت الناس ينفرون منها ولايقبلون عليها ·

ويدل رفض الشعب المصرى لهذه البابة الماجنة التى تسيء الى طبقة العلماء ، على سلامة حس الشعب وقدرته · وما دام الحديث يتناول تمثيليات خيال الظل التى كانت نتاجا أدبيا لمحترفي فن الخيال ابان عصر سلاطين المماليك فتجدر الاشارة الى عـــدة تمثيليات أخرى ظهرت بعد هذا العصر وتوسل بها فن خيال الظل في عروضه الجماهيرية ·

ونذكر من هذه التمثيليات ماذكره احمد تيمور فى كتابه خيال الظل واللعب والتماثيل عند العرب وفيه يتحدث عن « صفة اللعب بالخيال » ويذكر المراجع القديمة والحديثة التى ذكرته وعرفت بـــه وأرخت له ، ويسجل طرائف مما قيل فيه ، وفى لاعبيه ، ومحبيه . ثم يسجل ملخصات دقيقة وافيه لاثنتى عشرة قصة من قصصـــه الرائعة منذ أول العهد بخيال الظل بين الفنون المستحدثة الى العهد الذى لحقها فيه(١٣) ·

وعن جمهور خيال الظل فى عصر سلاطين المماليك كوســيلة من وسائل الترفيه فى ذلك العصر ، فقد انتشر هذا الفن انتشارا هائلا بين الأوساط الشعبية مما ساعد على ترويج رسالته لوصولها الى أكبر قطاع ممكن من جمهرة الشعب الذى وجد فى المخايلـــة تعبيرا عما بنفسه وعما حوله ، فقد كانت طبيعة حياة هـــؤلاء

المخايلين واحتكاكهم الشديد بالمجتمع الذى يعيشون فيه ، ومعاناتهم لمشكلاته وآلامه ، وكذلك قربهم من الطبقة الفقيرة فى البلاد ، واحساسهم بما تعانيه ، بل مشاركتهم هذه المعاناة ·

كل هذه عناصر أساسية طبعت انتاجهم الأدبى بلون خاص وجعلتهم ينفرون من المشاكل الذهنية المجردة ، لينقلوا بعد ذلك فى مسرحياتهم مايريدون من حياة وحرارة ، وليعالجوا فيها مشكلات واقعية لاتخلو من وخزات نقدية للعادات والأوضاع العامة ، ولا من التلميحات والتوريات السياسية اللاذعة ، كل ذلك فى اطار فكاهى مرح يعرضه المخايلون امام النظارة لقاء أجر معلوم ·

وقام فن خيال الظل بدوره الأساسى فى التسلية والترفيه ، فاقيمت العروض الظلية فى المواسم والموالد ، وفى معظم الأفراح وحفلات الزواج كما كانت تقدم فى المقاهى الشعبية ، حيث يلتقى بروادها الذين كانوا يشكلون جمهورا على قدر من التجربة والنضج وكانوا يحبون أن ينقدهم خيال الظل ، فكأنما استقر فى النفوس أن هذا الفن لابد أن ينقد كل الناس ، وكل الطبقات ، فهم يقبلون النقد وان كان جارحا ·

ولم تكن تمثيليات خيال الظل تسلية للطبقات الدنيا فحسب بل كانت تعرض على الكبراء كذلك ، تنقل اليهم ، ولاينتقلون اليها ·

فقد كان علية القوم وأثرياؤهم فى أول الأمـــر يستخدمون المخايلين فى مناسبات عديدة ، ليقوموا بالترفيه عن مدعوييهم ·

ورغم ماتميز به هذا الفن من شعبية فلم يصبح نشاطه مقصورا على الترفيه عن العامة بموضوعات من الجد أو الهزل ، بل ظـل المخايلون يغزون قصور الحكام والأعيان فى الريـف والمدن على السواء خاصة فى ليالى رمضان ·

وقد كان السلطان الناصر حسن يتسلى بمشاهدة خيال الظل ويدعوه اليه وبصحبته الأمراء ، ويقول ابن اياس فى حوادث سنة ٧٦٢هـ فى المحرم « عدى السلطان وتوجه الى نحو كوم برا ، وكان زمن الربيع ·· فلما توجه السلطان الى كوم برا ، طابت له الاقامة هناك ، فأقام بها نحو ثلاثة اشهر ، وكان بالقاهرة أوخام واوباء مع أمراض شديدة بالناس ، فاستمر مقيما هناك وهو فى ارغد عيش وكان فى كل ليلة يحضر عنده مغان عرب ، وخيال ظل ، ويحرق حراقات نفط ، وكانت الأمراء تتوجه الى هناك ، وتعطى الخدمة للسلطان فى كل يوم اثنين وخميس ··

كما حرص السلطان الأشرف شعبان أن يحمل معه عدة من أرباب الملاهى والمخايلين لما حج فى سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م مع ماحمله من الملاهى ·

ويمكن القول ـ استقراء لكتب التاريخ والأدب التى تناولت عصر سلاطين المماليك بالدراسة ـ بأن موقف الحكام من خيـــال الظل كان يختلف من حاكـم الى آخـــر ، فمنهـــم من كان يبيحه ويشجعه ، ومنهم من كان يتركه ولايمنعـــه كذلك كان منهـــم من يحاربه ويحرمه ويأمر باحراق عرائسه ويأخذ على لاعبيه العهـــود بألا يعودوا الى ممارسته ، فقد ذكر السخاوى فى التبر المســـبوك أن الظاهر جقمق أمر فى سنة ٨٥٥هـ ـ ١٤٥١ م بابطـــال اللعب بخيـــال الظـــل ، واحراق شخوصه وكتب على اللاعبين العهـــود بألا يعودوا اليه ·

ولعله فعل ذلك لما كان يقع من مجتمعاته من مفاسد ، حتى ان البعض يذكر أن لاعبى ولاعبات خيال الظل أنفسهم كانوا ـ فى ذلك الوقت ـ من أحط الناس خلقا ، وكان الشذوذ الجنسى متفشيا بين

اللاعبين من الرجال ، جتى لقد كان لهم معجبون من الشـــواذ ، يشغفون بهم حبا ويغدقون عليهم الأموال ، بل كان الشـــعراء من هؤلاء المعجبين الشواذ ينظمون القصائد فى الغزل الفاحش بهؤلاء اللاعبين واللاعبات(١٤) ٠

ورغم هذا فانه يجب علينا الا ننساق وراء ذلك الرأى كلية فان فى ذلك الاتهام لأصحاب الخيال قسوة وتعميما ، وهو أمر لايجوز أن يقع فيه باحث مدقق ومعلوم ان أمر بعض السلاطين بابطـــال اللعب بالخيال ـ السلطان جقمق ـ لم يكن لسقوط هذا الفن فى هاوية خلقية فحسب بل ان الدافع الرئيسى لذلك هو أن الســـخرية والنقد قد تجاوزا الحدود المقررة عند الحكام ، فقد اصطنعت بابات هذا الفن رموزا تثير السخرية والضحك فى نفوس الجماهير من السلطان وحاشيته ٠

فقد كان هذا الفن يتصدى فى كثير من مواقفـــه للنواحـــى السياسية والاجتماعية ولايكتفى بمواقف الضحك التى يثيرها بين جمهوره كما سبقت الاشارة الى ذلك ٠

وكان الأمراء شغوفين بمشاهدة عروض خيـــال الظـــل فى مناسبات عدة وكانوا يسمحون للناس بمشاركتهم فى ذلك ، فـــلا يملون الفرجة على هذا الفن وغيره من الملاهى فى كل ليلة لأيـــام طويلة متواصلة ، فيذكر أنه فى ربيع الآخر عـــام ٨٩٩هـ اختـــار السلطان قايتباى الأمير ماماى بن خداد الدوادار الثانى رسولا الى ملك بنى عثمان فأخذ ماماى يســـتعد للرحيل ، وكانت توقد له كل ليلة بناحية بركة الرطلى وقدة حافلة يمثل فيها خيال الظل أو يغنى بعض من مغنى العرب أو ابن رحاب المغنى أو يتفكهون بالعاب رنكات فرقة المحبظين ، وكان رئيس المحبظين فى عهده هو محمد الريس

فتات العنبر ، وكان استاذا فى صنعة الخيـــال وفـــاق فى ذلك « بريوه »(١٥) .

ولندع ابن اياس يحدثنا فى ذلك فيقول « وكان يعمل فى كل ليلة خيال ظل أو مغانى عرب ، أو ابن رحاب المغنى أو غير ذلك من الملاهى ، وكانت ليالى مشهودة فى القصف والفرجة حتى خرج الناس فى ذلك عن الحد وأقاموا على ذلك نحوا من عشرين يوما ثم سافر الامير ماماى وخرج فى تجمل زائد وموكب حافل ، فتوجه الى بلاد ابن عثمان » .

وفى ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ نزل السلطان الناصر محمد بن قايتباى من القلعة واتجه نحو القناطر العشر ، فعدى الى بـــر الجيزة ، ومعه أولاد عمه قيت وهما جانم وأخوه جانى بك وعـــدد من الخاصكية ، وقد سبق هذا الجمع الخدم والطهاة ، فضربوا لهم وطاقا هناك حيث أقاموا ثلاثة أيام ، واستدعى لايناس السلطان ومن معه « أبو الخير » ومعه « خيال الظل » وجوق المغانى العرب و « بريوة ريس المحبظين ، وقد خرج عن الحد فى اللهو والخلاعة والانشراح .

وهكذا استمر خيال الظل طوال عصر سلاطين المماليك من أهم وسائلهم فى الترفيه ، بل كان تسلية عامة لجميع طبقـــات المجتمع التى استمتعت بهذا الفن وتجاوبت معه بدرجة كبيرة فكان ذلك عاملا من أهم عوامل ازدهاره ورواجـــه فى ذلك الوقـــت . والجدير بالذكر أن حفلات خيال الظل كانت تقام فى الساعات الأولى من الليل أى بعد المغرب بقليل ، كما كانت تقام فى الأحياء لاحياء ليالى رمضان أو بعض الأعياد الاخرى وبعض المناسبات السعيدة كحفلات الختان .

وتزامن مع فن خيال الظل خاصة فى الفترة الاخيرة فن شعبى آخر شاع بين الناس باسم الأراجوز ، أو قرقوز .

ونميل الى الرأى القائل بانها فى الأصل كلمة تركية خاصة ان هذا الفن كان قد انتشر فى تركيا من قبل .

وتجدر الاشارة ولو فى عجالة سريعة الى هذا الفن باعتباره فنا تزامن مع فن خيال الظل فترة فى أواخر عصر سلاطين المماليك وهو يمثل بواسطة دمى من الخشب أو الجص متحركة الأعضاء ، وهى تتحرك بواسطة خيوط تشد الى أسفل المنضدة الموضوعة عليها تلك الدمى ويصاحب حركاتها حوار يلقيه صاحب القره قوز الذى ينغم صوته تبعا لمقتضيات الموقف .

وتلك الدمى المستخدمة فى القرهقوز تختلف فى خصائصها عن دمى خيال الظل فهى تصنع على شكل مماثل للشكل الأسطوانى للجسم وليست رقائق مسطحة من الجلد أو الخشب أو الورق المقوى أو غيره مما تصنع منه دمى خيال لتمثل قطاعا جانبيا أو اماميا للجسم وتصمم لهذه الدمى ملابس مختلفة مما ترتدى مثيلها الشخصيات الحية التى تحاكيها ويغلب ان يصمم الوجه فى وضع تعبيرى يدل على أعمق خصائص الشخصية التى تمثلها الدمية .

وسواء كانت هذه الخصائص واقعية أو رمزية فان تركيب الوجه كان يعبر فى العادة عن ملامح مضحكة مدعاة للسخرية فعند تصميم وجه الدمية التى تمثل شخصية الجندى المملوكى أو التركى ـ وكان شخصية مكروهة جدا من المصريين ـ كان يراعى أن يكون قفاه عريضا ليدل على شدة غبائه وبطشه ، وتنهال على هذا القفا العريض صفعات الأراجوز وغيره من شخصيات التمثيلية .

وواضح من هذا أثر كراهية الشعب لحكامه فى ذلك الزمن وسخريته منهم ومقاومتهم بهذا الأسلوب المصرى الأخاذ .

وفن الأراجوز اقرب الى التهريج الشعبى من فن خيال الظل كما يبدو أن تمثيلياته مرتجلة يبعثها الموقف والمناسبة نفسها أو محفوظة يتناقلها القائمون بهذا الفن شفاها ولم يكن يقصد بها الا التسلية والترفيه فى المقام الأول ولذلك لا يظن انه قد دون منها شىء أو ألفت فيها تمثيليات تكون كل منها وحدة متماسكة كما فى بابات خيال الظل .

ورغم شيوع فن القره قوز وانتشاره فان خيال الظل لم يتوقف ولم ينحسر كلية أواخر عصر سلاطين المماليك ، ولكنه استمر بصورة أو بأخرى حتى اوائل القرن الرابع عشر الهجرى فكان لايزال للناس شغف بالخيال فى مصر وكانت له سوق رائجة فى الأعراس ، وقل ان يقام عرس لايلعب فيه الخيال .

هوامش الفصل الثالث

(١) احمد تيمور ، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب ص ١٧ ·

احمد عبد الرازق وآخرون : دراسات فى الحضارة الاسلامية ـ المجلد الاول ص ٩٣ ويشير المؤلف الى ان المستشرق الالمانى جورج جاكوب قد عنى بدراسة هذه اللعبة فوقف على طبع اجزاء من كتاب طيف الخيال لابن دانيال الموصلى وكتب فى خيال الظل كتبا ومباحث جاء بيانها فى المبحث الذى كتبه ليتمان فى مجلة الجمعية الشرقية الالمانية · انظر :
E.L. Hmann. Z. M6, Band 91 — Heft 2, (1937). PP. 486 — 500.

(٢) ويذكر شوقى ضيف ان مصر والشعوب الاسلامية قد عرفت خيال الظل منذ القرن السادس للهجرة ·

(انظر شوقى ضيف ، الفكاهة فى مصر ص ٦٤) ·

(٣) القنطان محرف عن لفظه التركى (قفستان) وهو فى الفارسية (خفتان) والمخمل اى ذو الوبر المعروف الآن بالقطيفة ·

(انظر احمد تيمور ، خيال الظل حاشية ٢ ، ص ٢٣) ·

(٤) يتخذون له بيتا مربعا يقام برواقد من الخشب ويكسى بالخيش او نحوه من الجهات الثلاث ، ويسدل على الوجه الرابع ستر أبيض يشد من جهاته الاربع شدا محكما على الاخشاب ، وفيه يكون ظهور الشخوص ، فاذا اظلم الليل ودخل اللاعبون هذا البيت ، ويكونون خمسة فى العادة منهم غلام يقلد النساء واخر حسن الصوت للغناء ، فاذا أرادوا اللعب ، اشعلوا نارا قوامها القطن والزيت تكون بين ايدى اللاعبين ، اى بينهم وبين الشخوص ، ويحرك الشخص بعودين دقيقين من خشب الزان ،

يمسك اللاعب كل واحد بيد ، فيحرك بهما الشخص على مايريد ، وتتخذ الشخوص من جلود البقر ، بحيث اذا عرضت : « الصور » أمام ضوء النار المشتعلة ظهرت زاهية بهية لشفوف تلك الجلود ٠
(انظر ، احمد تيمور ، خيال الظل ، ص ١٩ ، ٢٠) ٠

(٥) وهناك وصف اخر لخيال الظل يوضح انه كانت « تنصب ستارة ويوقد خلفها (على بعد معين) مصباح ثم يقف بين المصباح والستارة شخصان يقومان بحركات مضحكة (ويكون جانب القاعة الذى يجلس فيه النظارة مظلما) فيظهر خيال الشخصين وما يقومان به أشباحا تتحرك على الستارة ».
(انظر ، عمر فروخ ، تاريخ الادب ، ج٣ ، ص ٦١٨) ٠

(٦) الحسن بن عمر بن الحسن ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ج٢ ص ٧٦ حيث يقول :

الكون عندى كالخيا ... ل محرك الاشخاص واحد
ان كنت تنظر غيره ... ما انت من حزب الاماجد

(٧) ومما قاله فى ذلك :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه ... خفيف الاذى اذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى ... الا تب فان الحد قد جاوز الحدا

(انظر ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ص ١٠٤) ٠

(٨) حيث يقول :

ياسائلى عن حرفتى فى الورى ... وضيعتى فيهم وافلاسى
ما حال من درهم انفاقه ... ياخذه من أعين الناس

وقوله :

ما عاينت عيناى فى عطلتى ... اقل من حظى ولا بختى
قد بعت عبدى وحمارى معا ... واصبحت لا فوقى ولا تحتى

(٩) مخطوط = طيف الخيال : تأليف شمس الدين ابن عبد الله محمد بن دانيال (دار الكتب ـ ٣٥٥٦ ادب) ٠

(١٠) قام تقى الدين الهلالى سنة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨م بنشر بعض المخطوطات التى تتضمن بابات ابن دانيال وطبعها بمطبعة الاعتماد ببغداد ٠

(١١) تختلف المخطوطـات فى تحديد عدد شخوص هذه البـابة ففـى النسخة المصرية سبعة وعشرون شـخصا بينما فى النسختين الاخريين خمسة وعشرون شخصا فقط » ٠

(١٢) منهم على سبيل المثال :

ابن سودون : هو نور الدين ابو الحسن على بن سودون العلائـى البشبغاوى ٠ ولد فى القاهرة ٨١٠ هـ وتوفى بدمشق سنة ٨٦٨ هـ ٠

(انظر ، الضوء اللامع للسخاوى جـ٥ ، ص ٢٢٥) ٠

(١٣) وهذه القصص الاثنتا عشرة اطلق عليها لعبا ومفردها « لعبة » وهى : لعبة علم وتعاذير ، ولعبة الأولانى ، ولعبة التمساح ، ولعبة ابـى جعفر ، ولعبة الشونى أى لعبة المركب ، ولعبة الحجية ـ أى السـفر الى الحج ـ ولعبة الحمام وكذلك لعبة المتياترو ، وهناك ايضا لعبة القهوة ، ولعبة الشيخ سمسم او شميس ولعبة العجائب ، ولعبة حرب السودان ٠

(انظر احمد تيمور ، خيال الظل والتماثيل المصورة عند العرب ص ٢٠ وما بعدها)٠

(١٤) ويقول : احمد تيمور نقلا عن صلاح الدين بن أيبك الصفدى انه قال فى مليح مخايل :

هويت خياليا حكى الغصن قـده ... اذا ما انثنى هاجت عليه البلابل

اراق دم العشـاق سيف جفونـه ... ومن بعد ذا اضحى عليهم يخايـل

وقال فيه ايضا ٠

مخايـل قـد بـدت عليـه ... مخايـل البـدر فـى الكمـال

تريـك باباتـه فنونـا ... تروق فـى الحسـن والجمـال

فقـد غـدا وصلـه يقينـا ... احسـن ما كـان فـى الخيـال

(انظر احمد تيمور ، خيال الظل ، ص ٢٢) ٠

(١٥) بريوة ، هو أحد رؤساء فرقة المحبظين ٠

***

الخاتمـــة

تنوعت وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك فى مصـر بدرجة كبيرة نتيجة لظروف المجتمع المصرى فى ذلك الوقت وطبيعة نشأة المماليك الذين أغراهم غنى مصر خاصة فى أول عصـرهم بالتفنن فى الاستمتاع بمباهج الحياة سلاطين وأمراء ومن يـدور فى فلكهم ٠ وعرف عن المماليك بحكم نشأتهم انهم كانوا يميلون عن الشعب ويعتبرون أنفسهم طبقة مميزة لها من الحقـوق ما ليس لأفراد الشعب ٠

ورغم ذلك فقد وجدت وسائل ترفيهية استمتع بها العامة من الشعب وان كان دورهم فى ذلك سلبيا اقتصر على كونهم متفرجين ومشاهدين الا فيما يتناسب مع قدرهم وقدرتهم من وسائل الترفيه الشعبية غير المكلفة والتى لا تتطلب امكانات وأدوات ضـرورية لممارستها يعجز الكثيرون عن تدبيرها ٠

ولعله بات من الواضح أن وسائل الترفيه فى ذلك العصر يمكن تقسيمها الى وسائل جادة تمثلت فى أنواع من المجالس كمجالس العلم والوعظ والأدب والالعاب الرياضية التى كان منها بالضرورة الفروسية والرماية وهى تتفق مع طبيعة المماليك في كونهم فرسانا مغاوير حربا وسلما وان كانت هذه الرياضة فى الغالب الأعم رياضة

أرستقراطية فلم نستدل على ان احدا من العامة كانت له مشاركة ايجابية فى هذا المجال حيث كان يحرم على طبقات معينة من الشعب ركوب الخيل أو حتى اقتناؤها ·

ومن اهم وسائل الترفيه كذلك سرحات الصيد التى أصبحت مواكبها من مراسم الدولة المملوكية وعلى امتداد العصر خـرج السـلاطين فى سرحات للصيد الى كثير من مواضـعه من أرض مصر ، وكذا شارك السلاطين والأمراء فى رياضـة لعـب الكـرة (البولو) وكانت تلعب من فوق ظهور الخيل وأصبحت من أهـم الرياضات حتى اتخذت أدواتها وهى عصا البولو شعارا يرسم على رنوك بعض الأمراء · وكانت البولو لعبة ارستقراطية ففى الغالب لم تكن تمارس الا من جانب السلاطين والأمراء والفرسان وكان دور الشعب فيها محدودا يقتصر على كونه جمهورا متفرجا ·

هذا الى جانب مجالس اخرى تتصل بالشراب والطرب واللهو وقد انهمك غالبية السلاطين المماليك والأمـراء فى تعـاطى هذه المجالس وتنوعت أسباب الترفيه غناء وموسيقى ورقصا ، فازدهر فن الغناء فى ذلك العصر حتى أصبح يعد من أزهى العصور طربـا وكثر فيه المغنون والمغنيات والعازفون والعازفات وايضا وجـد الراقصون من الرجال والراقصات اللاتـى جلبهـن المماليـك من اليهود والأرمن ·

كما شاع فى العصر المملوكى وسائل ترفيهية اخرى عرفت بالوسائل المنزلية أو الهادئة وهى فى الغالب لاتحتاج الى حركة ولكن يلزم لها الهدوء والجلوس مما دعا البعض الى تسـميتها بالألعاب الهادئة ومن أمثلة ذلك ، لعبتا النرد والشطرنج واتضـح من خلال الدراسة اشتراك الكثيرين فى هذه اللعبة خاصة الشطرنج·

فبرغم انه لعبة ارستقراطية للملوك والعظماء فان كثيراً من الطوائف قد مارست هذه اللعبة كالقضاة والعلماء والتجار وغيرهم ٠

كما وجد ايضا من هذه الألعاب لعبة الورق التى كان يمارسها بعض أفراد الشعب ولم نستدل على أن أحدا من السلاطين قد مارس لونا من العاب الورق ٠

أما العاب الاطفال فقد تنوعت على الرغم من ان اطفال العامة لم تكن لهم العاب مميزة عن غيرهم من الاطفال فى أى عصر بل ان أطفال المماليك بطبيعة الحال وخاصة ابناء السلاطين والامراء وكذا السلاطين الاطفال كانت لهم العابهم المنوعة وان كانوا قد بالغوا أحيانا فى ذلك ٠ وغلبت على أطفال المماليك الألعاب العسكرية نتيجة لتربيتهم فى الطباق التى تعتبر مدارس عسكرية يتخرج فيها المملوك ويستمر تعليمه عند سيده حتى يصبح فارسا ٠

وثمة وسيلة ترفيهية أخرى شاعت فى عصر سلاطين المماليك وهى خيال الظل التى كانت مجالا للترفيه بالنسبة للسلاطين والأمراء والعامة على السواء ، بل هى الوسيلة الأهم بالنسبة للطبقات الدنيا التى وجدت فيها السلوى وعبر بفنها عما يريدون ذلك لاختلاط اربابها ومعايشتهم لطوائف الشعب ٠

وقد انتقد المخايلون بفنهم بعض الاوضاع التى كانت سائدة فى ذلك العصر فلم يستطع ذلك غيرهم فى الغالب الاعم ، فيسوقون النقد فى اسلوب ساخر ضاحك فيمر دون مؤاخذة وقد اوضحت الدراسة ان وسائل الترفيه التى وجدت ومورست فى العصر المملوكى انما كانت فى معظمها امتدادا لمثيلاتها فى العصور الاسلامية السابقة وان غلب عليها طابع خاص فى العصر المملوكى لما تميز به المماليك من حيوية ونشاط ٠

هذا مع قلة ما احدثوه من وسائل جديدة للترفيه فى عصرهم فلم نجد جديداً منها فى عصرهم سوى لعبة القبق فلم تشر اليها مصادر سابقة على عصرهم .

وامكن الوقوف على مشاركة جميع فئات الشعب فى الترفيه وان اختلفت الوسيلة كالعلماء والقضاة وعامة الناس .

واختلفت مواقف السلاطين والامراء تجاه بعض وسائل الترفيه فمنهم من شجع اللعب والرياضة كالرماية والصيد والفروسية وغيرها فاقاموا لها الميادين المختلفة وحرضوا الناس عليها . ومنهم من انهمك فى اللهو وأسباب الترفيه من شراب وغناء وخلافه كما وجد من السلاطين من حاربوا أسباب الخلاعة والمجون فمنعوا المسكرات والبغايا الا أن هذا المنع لم يكن ليستمر طويلا فسرعان ماكانت تعود الحال لكما كانت واحيانا أشد . وكان هذا المنع غالبا مايكون فى ضوء ما تتعرض له البلاد من كوارث وازمات .

كما ان تعلق الناس فى ذلك العصر بضروب الترفيه والملاهى كان له اثره الواسع فى أدبهم وشعرهم فعبر الشعراء والأدباء شعرا او نثرا مما أثرى الحياة الأدبية فى ذلك العصر .

ولوحظ من خلال الدراسة ان بعض وسائل الترفيه كانت ارستقراطية لايمارسها غير السلاطين والأمراء ولم يكن لعامة الناس مشاركة ايجابية فيها مثل الفروسية والصيد والعاب القبق والبولو على سبيل المثال .

وان كان الشعب قد شارك حكامه بدرجة أو بأخرى الكثير من متعهم كالاستمتاع بمجالس الطرب غناء ورقصا وموسيقى فقد كانت معظم هذه المجالس مفتوحة تقام فى مواضع المتنزهات والفرجة بحيث يمكن للراغبين الاستمتاع بها متى شاءوا .

ولوحظ ان فئات الشعب مع استمتاعهم ببعض وسائل الترفيه فانهـــا فى ذات الوقت تحملت أعباء ذلك وماترتب عليه من نفقات فى اقامة الزينات التى ضج الناس منها لكثرة المناداة بها فى كل مناسبة مهما كانت • فيرسم السلاطين والامراء باقامة الزينة بأوامر صارمة لايملك الناس الا الامتثال لها •

ولعل الشعب فى ذلك كان غاضبا راضيا لأنه وجد فى هؤلاء المماليك فرسانا وحماة للبلاد ردوا عنهـا اخطـارا داهمـــة من الصليبيين والتتار •

وتأثرت وسائل الترفيه رواجا او انحسارا بالحالة الاقتصادية للبلاد فكانت رائجة فى اوقات اليسر ، منحسرة فى أوقات الأزمات والمجاعات والأوبئة وتعتبر الفترة الأولى من العصر المملوكى اكثر ترفيها نظرا لغنى الدولة المملوكية بدرجة كبيرة رغم كثرة الحروب •



ومع استمرار وسائل الترفيه ابان عصر المماليك الجراكســة فانه كان بداية النهاية لعصر سلاطين المماليك خاصــة عندما ظهر الخطر العثمانى الذى أصبح يهدد الدولة حتى قضى على استقلالها عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م •

* * *

ثبت المصـــادر والمراجع

(أ) المخطوطات :

١ - ابن بكتوت الرمــــاح :

- كتاب الفروسية وعلاج الخيــل ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤ فنون حربية ٠

٢ - جمال الدين حسين بن أحمد :

(غير معروف وفاته)

- روضة المستهام فى علم الانغــام ، مخطوط مصــور ميكروفيلم ضمن كتاب فى معرفة الغناء والهنوك ، بمعهـد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ٣٢ موسيقى ، وتوجد نسخة أخرى ناقصة بنفس المعهد تحت رقــم ٢٩ موسيقى ٠

وهى مصورة عن نسخة طوبقبو باستانبول ٠

٣ - ابن دانيــال :

(شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعى الموصلى ت ٧١٠ هـ) ٠

- طيف الخيال ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقــم ٥٣٥٦ أدب ٠

٤ ـ الـرزاز :

(بديع الزمان ابى العز بن اسماعيل الجزرى ت ٦٧٢ هـ)
ـ الجامع بين العلم والعمل النافع فى صـناعة الحيـل ، مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ٢ ، ٥ ، صناعة اطعمة ٠

٥ ـ صفى الدين الارموى :

(ق ٨ هـ)

ـ مختصر فى معرفة النغم ونسب أبعاده وأدواره ، مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ٤٠ موسيقى ٠

٦ ـ ابن الطحان (ابو الحسن محمد بن الحسن ق ٨ هـ) :

ـ حاوى الفنون وسلوة المحزون ، مخطوط بدار الكتـب المصرية تحت رقم ١٣٦٢ موسيقى وتوجد نسخة أخـرى مصورة ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ١٣ موسيقى ٠

٧ ـ طيبغا الأشـرفى :

ـ كتاب بغية المرام وغاية الغرام فى الرمى بالنشـاب ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٣ فروسية (القـرن الثامن الهجرى) ٠

٨ ـ أبو العباس أحمد محمد ابراهيم :

ـ هداية الرامى الى طريق المرامى (فى علـم الرمـى بالبندق) مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ٥١ فنون حربية ، وتمت كتابتها سنة ١٠٨٠ هـ ورقم ٧٦ فنون حربية بدار الكتب المصرية ٠

٩ - عبد الرحمن بن أحمد الطبرى :

- الواضح فى علم الرمى ، ضمن مخطوط مجموع فى الفروسية والخيل والرمى تشتمل على رسائل ومنتخبات هى :

العديم المثل الرفيع القدر ، لم يعلم مؤلفه ، منتخبات مختلفة فى الرمى والفروسية وأدوات القتال ، تمت كتابتها سنة ٨٧١ هـ ٠

١٠ - العينى (بدر الدين محمود بن أحمد ت ٨٥٥ هـ)

- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ وقد حقق منه د٠ عبد الرازق القرموط مابين سنة ٨١٥هـ وسنة ٨٥٠ هـ على مرحلتين نشر بعضها لأول مرة سنة ١٩٨٥ ٠

١١ - القاسم بن على الزيدى :

- كتاب القوانين السلطانية فى الصيد مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ٤١ فنون حربية ٠

١٢ - المشهدى (محمد بن على بن أحمد بن عبد الرحمن المشهدى ق ٩ هـ) :

- كشف الهموم والكرب فى شرح آلة الطرب مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ٣٨ موسيقى وتوجد نسخة أخرى منه بالمكتبة الازهرية برقم ٧٣٠٨ وهى خالية من اللوحات والصور بعكس الأولى ٠

١٣ ـ ابو المظفر بن سعيد المعروف باللجلاج :

ـ كتاب الشطرنج ، مخطوط مصـــور ميكروفيلم بمعهـد مخطوطات جامعة الدول العربية تحت رقم ١ موسيقى ٠

١٤ ـ محمد بن على الصغير :

ـ رمى النشـــاب ، مخطوط مصـــور ميكروفيلم بمعهـد مخطوطات جامعة الدول العربية تاريخ النسخ ٨٢١ هـ تحت رقم ٢١ فنون حربية ٠

(ب) المصادر العربية المطبوعة

١٥ ـ ابن الاخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت ٧٢٩ هـ):

ـ معالم القرية فى أحكام الحسبة ، القاهرة ١٩٤٩ تحقيق د٠ محمد محمد شعبان ، وصديق أحمد عيسى ٠

١٦ ـ الادفوى (كمال الدين جعفر بن ثعلب ت ٧٤٨ هـ)

ـ الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد ، القاهرة ، ١٩٦٦ تحقيق سعد محمد حسن ٠

١٧ ـ ابن ايـاس (محمد بن أحمد بن اياس المصرى ٠ ت ٩٣٠هـ)

ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ٤ أجزاء تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ ، ١٩٨٢ ، ج٣ ط بيروت ٠

ـ المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور كتاب الشعب، القاهرة ١٩٦٠ ٠

١٨ ـ بدر الدين أبو عبد الله الحنبلى ٠ ت ٧٧٧ هـ :

ـ مختصر الفتاوى لابن تيمية ٠

١٩ ـ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطبخى · ت ٧٧٩ هـ)
ـ تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ج١ ج٢ القاهرة ، ١٩٦٤ طبعة دار الكتاب اللبنانى ·

٢٠ ـ ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحاسن يوسف · ت ٨٧٤ هـ)
ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة · القاهرة ١٩٣٨ ، ١٩٧٠ ·
ـ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ج١ ، القاهرة ١٩٥٦ ·
ـ حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور ·

٢١ ـ ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد جبير الكنانى الاندلسى)
ـ رحلة ابن جبير ، تحقيق د· حسين نصار القاهرة ١٩٥٥) ·

٢٢ ـ ابن الحاج (ابو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدرى الفاسى · ت ٧٣٧ هـ)
ـ المدخل الى الشرع الشريف ، ٤ أجزاء القاهرة ١٣٤٨هـ ·

٢٣ ـ ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب) :
ـ تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ١٩٨٢ تحقيق محمد محمد أمين ·

٢٤ ـ ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلانى · ت ٨٥٢ هـ) :
ـ انباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشى · القاهرة ١٩٧٢ ·

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة نشر وتصحيح سالم الكرنكوى الالمانى طبعة بيروت (بدون) ٠

٢٥ - ابن الحسين (ابو عبد الله الحسن بن الحسين) :
- كتاب البيزرة ، تحقيق محمد لكرد على دمشق ١٩٥٣ ٠

٢٦ - الخطيب الجوهرى (ابن داود الصيرفى) :
- نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ج٣ القاهرة ١٩٧٣ ٠

- انباء الهصر بانباء العصر ، تحقيق حسن حبشى ٠ القاهرة ١٩٧٠ ٠

٢٧ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ) :
- المقدمة ، ج١ طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ١٩٦٦ تحقيق على عبد الواحد وافى القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ١٩٦٦ ٠

٢٨ - ابن دقماق (صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى ت ٨٠٩ هـ ٠
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٠ ج٤ القاهرة ١٣٠٩ هـ

٢٩ - الراونـــدى :
- راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية نشره بالفارسية محمد اقبال وترجمه الى العربية ابراهيم أمين الشواربى وآخرون القاهرة ١٩٦٠ ٠

٣٠ - ابن الزيـات : (ت ٨١٤ هـ)
- الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ، بغداد ٠

٣١ - زيتر شتين ، تاريخ سلاطين المماليك (لم يعلـم جامعه) نشره زيتر شتين ٠ ليدن سنة ١٩١٩ م ٠

٣٢ ـ السبكى (تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى ت ٧٧١ هـ) :

ـ معيد النعم ومبيد النقم · ليدن سنة ١٩١٩ ·

٣٣ ـ السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن ابى بكر عثمان السخاوى ت ٩٠٣ هـ)

ـ الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع ج٥ · القاهرة ١٣٥٤ هـ

ـ التبر المسبوك فى ذيل السلوك · القاهرة ١٣١٥ هـ ·

٣٤ ـ السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١ هـ) :

ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة · القاهرة ١٣٢٧ هـ ·

٣٥ ـ ابن شاكر الكتبى (محمد بن شاكر بن أحمد ت ٧٦٤ هـ) :

ـ فوات الوفيات · بولاق · القاهرة ١٨٨١ ·

٣٦ ـ ابو شامة المقدسى (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم ت ٦٦٥ هـ) :

ـ كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين القاهرة ١٢٨٧ هـ ·

٣٧ ـ الشوكانى (محمد بن على ت ١٢٥٠ هـ)

ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع · القاهرة ١٣٤٨ هـ ·

٣٨ ـ الصفدى (صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدى · ت ٧٦٤ هـ

ـ أمراء دمشق فى الاسلام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٥ ·

٣٩ ـ ابن طولون (شمس الديـن محمد بن طولون ت ٩٥٣ هـ)
ـ مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان تاريخ مصر والشام ، تحقيق محمد مصطفى ٠ القاهرة ١٩٦٤ ٠

٤٠ ـ ابن ظهيرة (غير معروف بالتحديد) :
ـ الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، نشـــره مصطفى السقا ، وكامل المهندس القاهرة ١٩٦٩ ٠

٤١ ـ ابن عبد ربه (شـــهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ٠ ت ٣٢٧ هـ) :
ـ العقد الفريد ج١ القاهرة ١٩٤٩ ، ج٧ القاهرة ١٩٥٣ ٠

٤٢ ـ ابن عبد الظاهر (محيى الدين ت ٦٩٢ هـ) :
ـ تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور تحقيق د٠ كامل مراد القاهرة ١٩٦١ ، ١٩٧١ ٠

٤٣ ـ ابن العماد (ابو الفلاح عبد الحى بن العمـــاد الحنبلـى ت ١٠٨٩ هـ) :
ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٠ القاهرة ١٣٥١ هـ ٠

٤٤ ـ العينى (بدر الدين محمود بن احمد ت ٨٥٥ هـ) :
ـ السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ٠ تحقيق فهيم محمد شلتوت القاهرة ١٩٦٧ ٠
ـ عقد الجمان ، من سنة ٨١٥ ـ ٨٥٠ هـ نشر وتحقيـــق د٠ عبد الرازق قرموط ٠ القاهرة ١٩٨٥ ٠

٤٥ ـ الغزولى (علاء الدين على بن عبد الله البهائى)
ـ مطالع البدور فى منازل السرور ج١ القاهرة ١٣٠٠ هـ ٠

٤٦ ـ ابو الفدا (عماد الدين اسماعيل ابو الفدا ٠ ت ٧٣٢ هـ) :
ـ المختصر فى اخبار البشر ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٥ هـ ٠

٤٧ ـ ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ) :
ـ تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ بيروت ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ ٠
نشره د٠ قسطنطين رزيق ٠

٤٨ ـ ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين بن العمرى ٧٤٩هـ) :
ـ التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٢ هـ
ـ مسالك الابصار فى ممالك الأمصار ـ نشر أحمد زكى ٠
القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ ٠

٤٩ ـ القرمانى (ابو العباس احمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى):
ـ اخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، بغداد ١٢٨٢ هـ ٠

٥٠ ـ القلقشندى (شهاب الديـــن أحمد بن على القلقشـــندى ت ٨٢١ هـ) :
ـ صبح الاعشى فى صناعة الانشاء القاهرة ١٩١٥ ٠

٥١ ـ ابن قيم الجوزية (شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابى بكر ت ٧٥١ هـ) :
ـ الفروسية ، دار التراث العربى ، بيروت لبنان ٠

٥٢ ـ ابن كثير (عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤ هـ) :
ـ البداية والنهاية ، القاهرة ٠

٥٣ ـ المسعودى (على بن الحسن بن على ، ت ٣٤٦ هـ) :
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهـــر ، ج٤ بيروت لبنـــان ١٩٨٢ ٠ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد بيروت ١٩٧٣ ٠

٥٤ ـ المقريزى (تقى الدين احمد بن على ت ٨٤٥) :
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر د٠ مصطفى زيــادة جزءى ١ و ٢ فى ستة أقسام ٠ ونشر د٠ سعيد عاشور جزءى ٣ و ٤ فى ستة أقسام أخرى ٠ القاهرة ١٩٧٣ ٠
ـ الخطط : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار القاهرة ١٢٧٠ هـ) ٠

٥٥ ـ النواجى (شمس الدين محمد بن الحسن ت ٩٥٩ هـ) :
ـ حلبة الكميت ٠ القاهرة ٠ ١٢٢٩ هـ ٠

٥٦ ـ النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٨٣٣) هـ ٠
ـ نهاية الارب فى فنون الادب الاجزاء المطبوعة القاهــرة ١٣٤٩ ٠

٥٧ ـ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموى ت ٦٩٧ هـ) ٠
ـ مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ، تحقيق د٠ جمــال الدين الشيال القاهرة ٠

٥٨ ـ ابن الوردى (عز الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ، ت ٧٤٩ هـ)
ـ تتمة المختصر فى اخبار البشر القاهرة ١٢٨٥ هـ ٠

ثالثا : المراجع العربية الحديثة :

٥٩ ـ ابراهيم حمادة (دكتور) :
خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال ٠ القاهرة ٠

٦٠ ـ أحمد أمين أحمد :
قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية القاهرة ٠ ١٩٥٣ ٠

٦١ ـ احمد تيمــور :
لعب العرب ، القاهرة ١٩٤٨ ·
خيال الظــل واللعب والتماثيــل المصــورة عند العرب ، القاهرة ١٩٥٧ ·

٦٢ ـ أحمد رشــدي :
الأدب الشعرى ، القاهرة ١٩٧١ ·

٦٣ ـ احمد شلبي (دكتور) :
موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج٥ ، القاهرة ١٩٧٧ ·

٦٤ ـ احمد صادق :
الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى القاهــرة ١٩٦٦ ·

٦٥ ـ أحمد عبد الرازق (دكتور) :
وسائل التسلية عند المسلمين ، دراسات فى الحضارة الاسلامية مجلد ١ ، القاهرة ١٩٨٥ ·

٦٦ ـ أحمد مختار العبادى (دكتور) :
دولة المماليك الاولى فى مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩ ·

٦٦ ـ أحمد نجم وآخر :
اصول الشطرنج · الاسكندرية ١٩٥١ ·

٦٧ ـ السيد الباز العرينى (دكتور) :
الفروسية فى مصر ، فى عصر سلاطين المماليك
رسالة دكتوراه القاهرة ١٩٥٥ ·

٦٨ ـ السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :
تاريخ الاسكندرية وحضارتها ١٩٦١ ·

٦٩ ـ ايتجهاوزن :
التصوير عند العرب ، ترجمة عيسى سليمان وطه التكريتى . بغداد ١٩٧٤ .

٧٠ ـ جورج زيدان :
تاريخ التمدن الاسلامى ، ج١ ،

٧١ ـ جمال الغيطانى :
ملامح القاهرة فى ١٠٠٠ عام ـ كتاب الهلال القاهرة ١٩٨٣ .

٧٢ ـ حسن ابراهيم حسن (دكتور) :
تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، القاهرة ١٩٤٨ ، ١٩٦٤ .

٧٣ ـ حسن السندوبى :
تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى ج١ القاهرة ١٩٤٨ .

٧٤ ـ حسين فرج زين العابدين :
صيد الوحوش ، القاهرة ١٩٧٠ .

٧٥ ـ سعد الخادم :
الدمى المتحركة عند العرب ، القاهرة ١٩٦٦ .

٧٦ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٦٣ .
العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .
المجتمع المصرى فى عهد سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ .
بحث عن نساء القاهرة فى عهد سلاطين المماليك الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، وزارة الثقافة القاهرة ١٩٧١ .

٧٧ ـ سيدة الكاشف (دكتورة) :
مصر فى عهد الاخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ .

٧٨ ـ شوقى ضيف (دكتور) :
الفكاهة فى مصر ، القاهرة ١٩٨٥ ٠
الشعر والغناء فى المدينة ومكة ٠ القاهرة ١٩٧٦ ٠

٧٩ ـ عبد الحميد يونس (دكتور) :
التراث الشعبى ، القاهرة ١٩٧٩ ٠

٨٠ ـ عبد الرحمن زكى (دكتور) :
القاهرة تاريخها وآثارها ٠ القاهرة ١٩٦٦ ٠

٨١ ـ عبد السلام محمد هارون :
الميسر والأزلام ، القاهرة ١٩٥٣ ٠

٨٢ ـ عبد المنعم ماجد (دكتور) :
دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ج٢ ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

٨٣ ـ عبد الوهاب حمودة :
صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى ٠ القاهرة ١٩٦٥ ٠

٨٤ ـ عبد الوهاب عزام (دكتور) :
مجالس السلطان الغورى ، القاهرة ١٩٤١ ٠

٨٥ ـ على ابراهيم ابوزيد (دكتور) :
تمثيليات خيال الظل ، القاهرة ١٩٨٢ ٠

٨٦ ـ على ابراهيم حسن (دكتور) :
دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٨ ٠

٨٧ ـ علي مبارك :
الخطط التوفيقية الجديدة جـ١ ، القاهرة ١٩٦٩ ·

٨٨ ـ عمر فروخ :
تاريخ الأدب العربى ، ج٣ بيروت ١٩٧٩ ·

٨٩ ـ غطاس عبد الملك خشبة :
تطور الشعر فى الغناء العربى ، سلسلة كتابك · القاهـــرة ١٩٧٧ ·

٩٠ ـ فؤاد فرج :
القاهرة جـ٣ ، القاهرة ١٩٤٦ ·

٩١ ـ فتحي عبد الهادى (دكتور) :
التراث الغنائى المصرى الفلكلور ، القاهرة ١٩٧٨ ·

٩٢ ـ فيليب حتى :
تاريخ العرب مجلد ٢ ، ترجمة محمد مبروك نافـــع ، القاهرة ١٩٥٢ ·

٩٣ ـ فوزى محمد أمين (دكتور) :
المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكـــى القاهـــرة ١٩٨٢ ·

٩٤ ـ قاسم عبده قاسم (دكتور) :
دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٩ ·

٩٥ ـ محمد أحمد الحفنى (دكتور) :
محيط الفنون ، باب الموسيقى العربية من قبـل الاسلام حتى سيد درويش ، القاهرة ·

٩٦ ـ محمد جمال الدين سرور (دكتور) :

الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ٠
دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠ ٠

٩٦ب ـ محمد جميل بيهم :

قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور ، بيروت ١٩٤٨ .

٩٧ ـ محمد حمدى المناوى :

نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ٠

٩٨ ـ محمد عادل خطاب (دكتور) :

الألعاب الريفية ٠
النشاط الترويحى وبرامجه ٠ القاهرة ط١ ٠

٩٩ ـ محمد قنديل البقلى :

الطرب فى العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٤ ٠

الاوزان الموسيقية فى ازجال ابن سودون القاهرة ٧٦ ٠

١٠٠ ـ محمد محمود سامى :

تاريخ الموسيقى والغناء العربى ٠ القاهرة ١٩٧١ ٠

١٠١ ـ محمد مصطفى :

المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ـ القرن التاسع الهجرى ، القاهرة ١٩٤٩ ٠

١٠٢ ـ محمود رزق سليم (دكتور) :

عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والادبى ٠ القاهرة ١٩٤٧ ٠

النيل فى عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٥

١٠٣ ـ مختار السويفى :

خيال الظل والعرائس فى العالم ، القاهرة ٠

١٠٤ ـ نبيل محمد عبد العزيز (دكتور) :

الطرب وآلاته فى عصـــــر الأيوبيين والمماليك ، القاهرة ١٩٨٠ ٠

١٠٥ ـ نسيب الاختيار :

الفن الغنائى عند العرب ، بيروت ١٩٥٥ ٠

١٠٦ ـ نعمات احمد فؤاد (دكتورة) :

الأدب والحضارة ٠ سلسلة كتابك ٠ القاهرة ١٩٨١ ٠

١٠٧ ـ يوسف القرضاوى (دكتور) :

الحلال والحرام فى الاسلام ، القاهرة ٠

١٠٨ ـ وزارة الثقافة :

القاهرة فى الف عام ٩٦٩ ـ ١٩٦٩ طبعة القاهـــرة ١٩٧١ ٠

ثالثا : المراجع الأجنبية :

١٠٩ ـ Ahmed Rbd ar-Raóiq, Deux jeux, ds. Annales Islamologiques. XII (1974).

Lachsase au quépard d'apre's len sources arbaes et Les oeuvres.

١١٠ ـ — E.L. Hamann, Z. M6, Band 91 Heft 2, 1937).

١١١ ـ F. Viré traité de L'art de volerie, (Kitabal — Bayza ré). Arabico, XII (1965).

١١٢ ـ H.Y.R. Murray, A. History of chess, Oxford, 1913.

١١٣ ـ Lane — Poole, Cairo, London (1892).

— Ahist of Egypt in the middle ages London (1930).

١١٤ ـ M. Mostafa, Miniature paintings in some Mamlug Manuscéipts, B1E, L 11, (1970 — 1971).

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

صــدر من هــذه السلسلة

١ ـ **مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ،**
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ **على ماهر :**
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ **ثورة يوليو والطبقة العاملة :**
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ **التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة**
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ **غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى**
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ـ **صــلاح الدين الأيوبى ،**
د . عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ـ **رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية ،**
د . على بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ **صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،**
د . محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ **توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية :**
محمود فـوزى ، ١٩٨٧

١١ ـ **مائة شخصية مصرية وشخصية ،**
شكرى القاضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ **هدى شعراوى وعصر التنوير ،**
د . نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ـ اكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية ،
د . عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى ،
د . على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصـــر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) ،
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ،
د . محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،
د . على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د . أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراســلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،
د . محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، حـ ١ ،
د . توفيق الطــويل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ التصوف فى مصــر ابان العصــر العثمانى حـ ٢ ، امام التصوف فى مصر : الشعرانى ،
د . توفيق الطــويل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦م) ،
د . نجوى كامل ، ١٩٨٩
٢٥ ـ المجتمع الاسـلامى والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين : ترجمة : د . احمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د . سعيد اسماعيل على ، ١٩٨٩
٢٧ ـ فتح العرب لمصر ، جـ ١ ،
تأليف : الفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩
٢٨ ـ فتح العرب لمصر ، جـ ٢ ،
تأليف : الفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩
٢٩ ـ مصر فى عصر الاخشيديين ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
٣٠ ـ الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩
٣١ ـ خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شـكرى القاضى ، ١٩٨٩
٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، جـ ٢ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩
٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضـاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د . خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصـور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د . يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ **اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ **المجتمع الاسلامى والغرب ، حـ ٢ ،**
تاليف : هاملتون بووين : ترجمة : د . احمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،**
د . سليمان صـالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ **فصول من تاريخ مصر الاقتصـادى والاجتماعى فى العصر العثمـانى**
د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠

٣٩ ـ **قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،**
د . جميل عبيـد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ **الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،**
د . عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ **محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،**
د . رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ **تكوين مصر عبر العصور ،**
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ **رحلة فى عقول مصـرية ،**
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ **الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د . محمد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ **الحروب الصليبية ، حـ ١ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم د . حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ــ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ــ ١٩٥٧) ،**
ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ــ **تاريخ القضاء المصرى الحديث ،**
د . لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ــ **الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،**
د . زبيدة عطـا ، ١٩٩١

٤٩ ــ **العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ــ ١٩٧٩) ،**
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ــ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ــ ١٩٥٤) ،**
د . سـهير اسكندر ١٩٩٣

٥١ ــ **تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،**
(ابحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقـافة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدها للنشــر :
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ــ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر ،**
د . الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ــ **اربعة مؤرخين واربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،**
د . محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ــ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د . محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ــ **الحروب الصليبية ج ٢ ،**
تاليف : وليم الصـورى : ترجمة وتعليق : د . حسـن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ــ **المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسة عن اقليم المنوفية ،**
د . حلمى احمد شلبى ، ١٩٩٢

٥٧ - **مصر الاسلامية واهل الذمة ،**
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ - **احمد حلمى سجين الحرية والصحافة ،**
د . ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ - **الراسمالية الصناعية فى مصر ، من التمصير الى التاميم (١٩٥٧ - ١٩٦١) ،**
د . عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ - **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ - **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ - **هؤلاء الرجال من مصر ج ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ - **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية،**
تاليف : د . سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، اعدها للنشر : د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٤ - **مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة وثائقية ،**
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ - **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)**
سهام نصار ، ١٩٩٣

٦٦ **المراة فى مصر فى العصر الفاطمى ،**
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ - **مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية،**
(ابحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس

الاعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر : د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ــ **الحروب الصليبية ، هـ ٣ ،**
تاليف : وليم الصورى ، ترجمة : وتعليق : د . حسن حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ ــ **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ ــ ١٩٥١)،**
د . محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ ــ **اهل الذمة فى الاسلام ،**
تاليف : ا . س ترتون ، ترجمة وتعليق : د حسن حبشى ،
ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ــ **مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ ــ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ــ **رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ــ ٥٦٧ هـ) ،**
امينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ــ **تاريخ جامعة القاهرة ،**
د . رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ــ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ ١ ، فى العصر الفرعونى**
د . سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ــ **اهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،**
د . سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ــ **دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتلال البريطانى) ،**
د . سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ـ **الحروب الصليبية ، هـ ٤ ،**
تاليف : وليم الصـورى ، ترجمة وتعليق : د حسـن حبشـى ، ١٩٩٤

٧٨ ـ **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩) ،**
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،**
تاليف : فريد دى يونج ، ترجمـة : عبد الحميـد فهمى الجمال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ **قنـاة السـويس والتنافس الاسـتعمارى الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،**
د . السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ **تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر اكتوبر ،**
د . رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ **مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ،**
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، هـ ١ ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، هـ ٢ ، القسم الأول ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ، ١٩٩٥

٨٥ ـ **تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢)،**
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ **تاريخ التجارة المصرية فى عصـر الحرية الاقتصـادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،**
د . أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ **مذكرات اللورد كايرن ، هـ ١ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ **التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ **تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،**
د . عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ **معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،**
د . نريمان عبد الكريم احمد ، ١٩٩٦

٩١ ـ **تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،**
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) هـ ٢ ،**
نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ ـ **قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨) ،**
د . نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ، جـ ٢ ،**
د . سهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ـ **مصر وافريقيا .. الجذور التاريخية الافريقية المعاصرة ،**
(ابحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د . عبد العظيم رمضان

٩٦ - **عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،**
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ - **العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،**
د . ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ - **هيكل والسياسة الأسبوعية ،**
د . محمد سيد محمد

٩٩ - **تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى - الرومانى) ج ٢ ،**
د . سمير يحيى الجمال

١٠٠ - **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،**
أ. د. عبد العزيز صالح ، أ. د. جمال مختار ،
أ. د. محمد ابراهيم بكر ، أ. د. ابراهيم نصحى ،
أ. د. فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ. د. عبد العظيم رمضان

١٠١ - **ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،**
اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء/ عبد الحميد كفافى ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ - **المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢ ،**
د . تيسير أبو عرجة

١٠٣ - **رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره ،**
د . على بركات

١٠٤ - **تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢) ،**
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ــ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ ــ ١٩٨٧) ،

د . احمد فارس عبد المنعم

١٠٦ــ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ، هـ ٢ ،

د . سليمان صـــالح

١٠٧ ــ الأصولية الاسلامية فى العصر الحديث ،

تأليف : دليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد الجمال

١٠٨ ــ مصر للمصريين ، هـ ٤ ،

ســليم خليــل النقــاش

١٠٩ ــ مصر للمصريين ، هـ ٥ ،

ســليم خليــل النقــاش

١١٠ ــ مصادرة الأملاك فى الدولة الاسلامية (عصر ســـلاطين المليك) ، هـ ١ ،

د . البيومى اسماعيل الشربينى

١١١ ــ مصادرة الأملاك فى الدولة الاسلامية (عصر ســـلاطين المماليك) ، هـ ٢ ،

د . البيومى اسماعيل الشربينى

١١٢ ــ اســماعيل باشــا صــدقى ،

د . محمد محمد الجوادى

١١٣ ــ الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى)،

د . اسماعيل عز الدين

١١٤ ــ دراسات اجتماعية فى تاريخ مصر ،

احمد رشــدى صــالح

١١٥ ــ مذكراتى فى نصف قرن ، ﺟ ٣ ،
أحمد شفيق باشا

١١٦ ــ اديب اسحق (عاشق الحرية) ،
علاء الدين وحيد

١١٧ ــ تاريخ القضاء فى مصر العثمانية (١٥١٧ ــ ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى

١١٨ ــ النظم المالية فى مصر والشام زمن سلاطين المماليك ،
د . البيومى اسماعيل الشربينى

١١٩ ــ النقابات فى مصر الرومانية ((دراسة وثائقية))
حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ ــ يوميات من التاريخ المصرى الحديث (١٧٧٥ ــ ١٩٥٢)
لويس جرجس

١٢١ ــ الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ــ ١٩٥٤) ،
محمد عبد الحميد الحناوى

١٢٢ ــ مصر للمصريين ﺟ ٦ ،
سليم خليل النقاش

١٢٣ ــ السيد احمد البدوى ،
د . سعيد عبد الفتاح عاشور

١٢٤ ــ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن ،
د . محمد نعمان جلال

١٢٥ ــ مصر للمصريين ﺟ ٧ ،
سليم خليل النقاش

١٢٦ ــ مصر للمصريين ﺟ ٨ ،
سليم خليل النقاش

١٢٧ ـ **مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨) ،**
ابراهيم محمد محمد ابراهيم

١٢٨ ـ **معـارك صـحفية ،**
جمال بدوى

١٢٩ ـ **الدين العام (وأثره فى تطور الاقتصـــاد المصـــرى) (١٨٧٦ ـ ١٩٤٣) ،**
د . يحيى محمد محمود

١٣٠ ـ **تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٧) ،**
ســمير فريد

١٣١ ـ **الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨)**
جايل ماير

١٣٢ ـ **دار المندوب السامى فى مصر جـ ١**
د . ماجدة محمد محمود

١٣٣ ـ **دار المندوب السامى فى مصر جـ ٢**
د . ماجدة محمد محمود

١٣٤ ـ **الحملة الفرنسـية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى للدارندلى**
بقلم : عزت حسن أفندى الدارندلى
ترجمة : جمال سعيد عبد الغنى

١٣٥ ـ **اليهود فى مصر المملوكية (فى ضوء وثائق الجنيزة) (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)**
د . محاسن محمد الوقاد

١٣٦ ـ **أوراق يوسف صديق**
تقديم : أ . د عبد العظيم رمضان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة